

د. روبن بِدُول

الرَّاحَةُ الْغَرَبِيَّونَ
فِي
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ

ترجمة: د. عبد الله الأدم نصيف

جامعة الملك سعود

كتاب سلسلة ابراهيم
كتاب جيد غير مترجم
كتاب بدء ترجمة

رقم التسلیل ٣٢٩٩٢٩
التاريخ ١٤١٥-٦-٤
رقم التصنيف ٤٧٠٤٥٨

إلى أصدقائي العرب الذين جعلوا الأيام التي قضيتها في بلادهم من أسعد الأيام في حياتي ...

جامعة اليرموك - المكتبة



حقوق الطبع محفوظة للمترجم

د. محمد عمار

الرياض ١٤٠٩/١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد
المرسل رحمة للعالمين .

في هذا الكتاب ، الذي بين يدي القارئ ، معلومات مهمة ، فهو يشتمل على مشاهدات ، وملحوظات ، وانطباعات ، عن عدد من مدن الجزيرة العربية وقرابها وسكانها وحكامها ، سطراها عدد من الرحالة الغربيين ، إثر قيامهم بجولات متعددة في أرجاء الجزيرة ... شمالها وجنوبها ... شرقها وغربها ، منذ القرن السادس عشر ، وليس هذه المشاهدات والملحوظات سوى جزء من تاريخ الجزيرة العربية : السياسي والحضاري والاقتصادي والاجتماعي كتبه مؤرخون معاصرون لتعريف القارئ الغربي بهذه البلاد وحضارتها .

وقد حدا بي إلى ترجمة هذا الكتاب أمران : الأول في اعتقادي أنه من حق القارئ العربي أن يعرف ما قاله غيره عن بلاده . والأمر الثاني أن المجهودات العلمية للرحالة الغربيين في الجزيرة العربية - المتمثلة في الكشف عن الآثار ومواضعها ونحوها النصوص القديمة دراستها - أحد الموضوعات المأمة لادة تاريخ الجزيرة العربية القديم التي أقوم بتدريسها في جامعة الملك سعود .

وأود الإشارة إلى أن هذا الكتاب يحتوي على تعبيرات غامضة هي من سمات أسلوب المؤلف ، وهو شيء يتلقى مع ما صرحت به هو نفسه في مقدمته ، من أنه سيحاكي أسلوباً سابقاً لأسلوب هذا القرن ، ولعله قصد بذلك أن يتأمل أسلوبه مع أسلوب الرحالة الذين كتب عنهم . وقد ورد في الكتاب عبارات نائية أو غير لائقة ، فلم أترجمها وقد أشرت إليها في داخل النص بنقط بين أقواس كأنني تركت إعادة نشر بعض الصور لعدم أهميتها . كما أود الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى الشروحات والتعليقات الهامشية هناك شروحات قصيرة بين أقواس مربعة داخل المتن الترجم ، فهي وعبارة على ع ليست في الأصل .

المحتويات

الصفحة	الموضع
٥	مقدمة الترجم
٧	مقدمة المؤلف
٨	الجزيرة العربية
٢٠	الإستكشافات الأوربية في الشرق الأوسط
٢٣	ثلاثة رحال إلى مكة :
٢٣	لودوفيكتو دي فارثينا
٢٦	جوزيف بتس
٢٩	علي بك العباسى
٣٥	نيبور وأصحابه
٤٤	بوركهارت
٥٤	بيرتون
٦٧	بلجريف
٧٧	داوتى
٩٠	فلبي
١٠٣	رحاله في الحجاز
١٢٦	رحاله في شرق الجزيرة العربية وشمالها
١٤٦	رحاله في جنوب غرب الجزيرة العربية
١٦١	عدن والمناطق الداخلية فيها
١٦٥	حضرموت
١٧٤	قطرة
١٧٨	رحاله في عمان
٢٠٣	المراجع التي استخدمها المترجم في الشروحات

مقدمة المؤلف

من المعتدل أن يكون ما كُتب عن الجزيرة العربية ، أكثر مما كُتب عن أي جزء آخر من العالم ، وبختلف حجم هذه الكتابات ، ما بين مؤلفات كبيرة مثل كتاب تشارلز داوتي Doughty ، الذي احتوى على ستةألف كلمة ، وما بين مقالات مختصرة على صفحات الجرائد ، وكان اختياري لموضوعات هذا الكتاب اجتهاداً مني ، فقد أخترت ما رأيته مهماً أو مفيداً أو ممتعاً ، وأأمل أن يوافقني القارئ فيما اخترت ؛ لقد أثرت هذا على أعمال علمية كثيرة عن الجزيرة العربية ، فموضوعات علم النبات ، أو علم الحيوان أو علم الجيولوجيا ليست بالمواضيع التي يمكن لغير المختصين قراءتها بسهولة . وقد كتبت هذا الكتاب ؛ لإرضاء لنفسي ، وأملني الوحيد هو أن يستمتع القارئ به كما استمتعت أنا به .

هناك أشياء ذكرت في هذا الكتاب ، وقد لا يرضى عنها أصدقائي العرب ، ولكن يجب أن أبين لهم أن عملاً كهذا ، يحتم على أن أذكر أشياء لست مسؤولاً عن كتابتها ، فإن كان هناك من الرحالة من لم تعجبه شعائر الحج ، أو لقي معاملة فظة من البدو ، فإني أذكرها هنا كما جاءت في كتبهم ، وفي نفس الوقت أقول إن تجربة هؤلاء الرحالة مع العرب تختلف كلية عن تجربتي معهم ، فأنا أكن إحتراماً كبيراً للمسلم الملتزم ، وقد استمتعت كثيراً بمصاحبة العرب من كل الطبقات وإنني على يقين بأن العرب يملكون من الثقة بالنفس والإدراك ما يمنعهم من أن يتأثروا بمثل تلك المفهومات ، كما أنتي شغوف جداً بكتابة الكلمات الإنجليزية بالطريقة التي كانت تكتب بها في القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد حافظت على ذلك بقدر الإمكان .

أما الأسماء العربية فقد حاولت كتابتها بطريقة سهلة ومبسطة للقارئ الإنجليزي العادي حاذفاً منها النقط والشرطات التي يستخدمها الأكاديميون المتحذلقون في كتابة هذه الأسماء مثل اسم «عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعود» أما أسماء الأماكن فقد كتبها حسبياً هو مألف ومعروف عند القارئ الإنجليزي مثل جدة Jeddah وما سوى ذلك فقد استخدمت طريقة أطلس التايمز .

روبن بدول

مركز دراسات الشرق الأوسط

جامعة كمبريج

وقبل أن أختم هذه الأسطر القليلة لا يفوتي أن أنوه بالدعم المادي الذي قدمته جامعة الملك سعود ممثلة في مركز البحوث بكلية الآداب ، مما يسر إعداد هذه الترجمة ، كما لا يفوتي أن أشكر مؤلف الكتاب الدكتور روبن بدول على الإذن لي بنقله إلى العربية .

ويطيب لي أن أقدم شكري لكل من ساهم في ظهور هذه الترجمة سواء كان من حيث التشجيع أو تقديم المشورة وأخص منهم : أ.د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري ، أ.د. عبدالقادر محمود عبدالله ، أ.د. عبدالله محمد الغذامي ، د. ربيع عمر بدير ، أ. نائل راغب ، أ.د. محمود اسماعيل صيني ، د. عمر سليمان العقيلي ، والحمد والشكر من قبل ومن بعد الله تعالى ولـِ التوفيق والسداد .

عبدالله آدم نصيف

قسم الآثار والمتاحف

جامعة الملك سعود

٥٠٠ قدم ، وباً تبقى من مساحة شبه الجزيرة العربية هو عبارة عن أرض صلبة مغطاة بالحجارة والخصائص ، وبالمكان زراعتها لو توفر الماء .

يتسلط المطر على معظم مناطق الجزيرة العربية كل عام ، وينتظم سقوطه بغزاره على الشريط الساحلي الغربي ، والجنوبي ، والجنوبي الشرقي ، ومن المحتمل أن تكون أية منطقة معرضة لسيل مفاجئ ، حيث يندفع الماء منحدراً إلى الوديان اليابسة على ارتفاع ما يقرب من ستة أقدام ، وبسرعة تزيد على سرعة ركض الإنسان ، جارفاً معه أشجاراً وحيوانات ، وفي بعض الأحيان سيارة قد تركت من قبل صاحبها دون مراقبة ، وقد تكون هذه السبيل عارمة : ففي ذات مرة ارتفع الماء في صحن الحرم المكي إلى عشرة أقدام^(١) تلك قصة مشهورة ، بفادها أن أحد الغزارة انتهز فرصة الأمطار الغزيرة في اليمن وحول صحن المسجد في صنعاء إلى مسبح مفتوح ، وأجر العذاري على أن يسبح فيه عاريات . ولا يوجد هناك على أي حال ما يمكن أن يسميه الأوروبيون نهراً أو بحيرة . ليس من الضروري بيان شدة الحر في الجزيرة العربية ، ولكن من المهم ، أن نعرف الإختلاف الكبير في درجات الحرارة بين الليل والنهار ، فقد وجد الرحالة فليبي مناطق يصل فيها الاختلاف إلى ٤٠ درجة . ولعل التجربة الشخصية ، توضح الاختلاف في هذه البلاد : ففي صباح يوم ما كانت الحرارة والرطوبة عالية في عدن ، مما اضطر كاتب هذا الكتاب ، أن يغير قميصه بعد ربع ساعة من لبسه ، حيث التصق على جسده بسبب تصبب العرق ، وعلى بعد مائة ميل من ذاك المكان وعلى ارتفاع ٨٠٠٠ قدم قضى ليلة في الجبال وهو يرتجف من شدة البرد تحت أربع عشرة بطانية .

التاريخ :

بعد مرور مائة عام على وفاة الرسول ﷺ في عام ٦٣٢ للميلاد ، وبعد أن انطلق العرب ببطاقتهم الفياضة ، لحمل عقيدتهم الجديدة ، إلى الخليط الأطلسي وإلى حدود

(١) جاء في أخبار مكة للأزرق بأن مكة قد تعرضت في العاشر من جماد الآخر عام ٧٣٨هـ لأمطار شديدة وقد طاف الماء بالكتيبة وعلا إلى ما فوق عتبتها ووصل إلى قناديل المطاف وأغرق بعض أهلها ومات نحو ستين نفراً (أنظر البركاتي ، ص ٣٢٤) - المترجم .

الجزيرة العربية

لكي نتصور مسرح الأحداث الذي تنقل عليه هؤلاء الرحالة ، فإنه يجب علينا التعرف على جغرافية وتاريخ الجزيرة العربية . إن هذه الدراسة المختصرة ، ستترك بصمة رئيسة على الجزء الذي تشغله حالياً المملكة العربية السعودية ، وبالخصوص المنطقة الجنوبيّة الشرقية ، والمنطقة الجنوبيّة الغربية لشبه الجزيرة العربية ، كما سيظهر ذلك واضحاً خلال الفصول القادمة .

تغطي الجزيرة العربية منطقة مساحتها تقارب المليون ميل مربع ، ممتدةً على مسافة قدرها ١٤٠٠ ميل طولاً و ١٢٠٠ ميل عرضاً . وعلى طول الساحل الغربي تند سهول ضيقة ترتفع عالياً لتكون جبالاً يصل ارتفاع بعضها إلى ما يقارب من ١٠٠٠٠ قدم ، وتسمى هذه المنطقة «البحجاز» ، وتأتي منطقة نجد بعد هذه السلسل ، وهي عبارة عن هضبة تنحدر تدريجياً نحو الشرق ، حتى تصل الخليج ، مكونة مستنقعات مالحة ، غالباً ما يصعب تمييزها عن البحر .

ومركز هذه البلاد ، يتكون من مرتفع على شكل هلال يسمى «جبل طويق» ، وعليه نجد ما يقدر بواحد في المائة من مساحة البلاد الصالحة للزراعة ، ومجموعه من المدن كالرياض وعنيزة وبريدة . وعلى غرب هذا الهلال ، تقع منطقة «الحرات» وهي منطقة شاسعة من الأحجار البركانية ، غالباً ما ترتفع إلى عشرة أقدام فوق الرمال ، وتحيط بهذا الهلال من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية صحاري رملية شاسعة . فإلى الشمال تقع صحراء «النفوذ» مغطية مساحة تقارب من ٢٦٠٠٠ ميل مربع ، ثم «الدهاء» حيث تند إلى ما يقرب من ٤٠٠ ميل طولاً و ٣٠٠ ميلاً عرضاً . ثم تتصل هذه الصحراء مع أكبر الصحاري في الجزيرة العربية وهي صحراء «الربع الخالي» التي تغطي مساحة نحو ٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع ، وهي تزيد بذلك على مساحة فرنسا ، ويكون الربع الخالي من عدد كبير من التلال الرملية ، يصل ارتفاعها بعض الأحيان إلى

سليم الشجاع ، السلطان العثماني التاسع ، نجى أباه عن العرش عام ١٥١٢م ، وأول عمل قام به هو تصفية أقربائه ، وكان شاعرًا بارزًا وتمد رسالته إلى شاه إيران قطعاً أدبية رائعة غير أنها ملية بالإهانات مما دفع [الشاة] إلى إعدام حاملها . في عام ١٥١٧م استولى على مصر وبطش عهده وعهد ابنه سليمان (خلفه عام ١٥٢٠م) أعظم فترة مررت بها الأمبراطورية العثمانية .



أمن الحج وسلامة الحجاج ، فنصب الحاميات العسكرية في موقع إستراتيجية على طول الطريق الذي يقع تحت سيطرة باشا مكة وبasha المدينة . وما عدا ذلك ، فإن السلطة العثمانية لم تحاول جدياً السيطرة على الجزيرة العربية . وفي غضون قرن من الفتح العثماني ، أخذت السلطة الحقيقة في كل من القاهرة وبغداد ، تقع في أيدي حكام محليين يعلونون تعظيم الأسمية للسلطان العثماني ، وفي نفس الوقت لم يسمحوا له بالتدخل في شؤونهم الداخلية . وفي نهاية القرن الثامن عشر أصبح واي حلب حاكماً قوياً يستطيع السيطرة على آية منطقة تقع على بعد مسيرة ساعة من أبواب المدينة ، بينما كان باستطاعة حاكم مدينة عكا الجنون^(٦) الجزار باشا أن يفقأ العيون ، ويُيقِّن الألسن بالمسامير لكل تاجر يَتَّهم بينما يتحارب ولاتها في سوريا ولم يكن ذلك ليسبيها دائمًا ، بل كانت ترى فيه وسيلة للتبييض طاقتهم . غير أن الباب العالي ذاق اندحاراً مشيناً عندما وافق السلطان مجرراً على سيطرة محمد علي باشا على مصر ؛ ففي عام ١٨٣١م أرسل محمد علي ابنه إبراهيم لغزو الشام وقارب أن يصل بجيشه إلى سواحل البسفور ، لولا تدخل الدول الأوروبية الكبرى التي ضمنت انسحابه . إن هذه الدول نفسها كانت تتسرّع فيما بينها في استقطاع الولاية بعد الأخرى من جسم الأمبراطورية العثمانية التي كانت في يوم ما قد امتدت إلى

(٦) لقد تولى أحمد باشا الجزار باشوية صيدا ونقل مقر حكمه إلى عكا التي بلغ فيها قمة مجده عندما تمكن من الصود في وجه الحصار الذي فرضه نابليون بونابرت على المدينة (١٧٩٩م) وقد تذمر التجار الأوروبيون والفرنسيون خاصة من استبداد الجزار بهم وفرضه الضريبات عليهم ، وقد توفي الجزار عام ١٨٠٤م عبدالكريم ، ص ١٣٤ - المترجم .

الصين ، أصبحت الجزيرة العربية في موقع خلفي منعزل واعتمدت في معظم موارد她的 المالية على موسم الحج إلى مكة الذي فرضه الرسول عليه السلام على كل من تبعه ولم استطاع إليه سبيلاً^(٧) لم يستطع الحجاز أن ينتفع ما يكتبه من الغناء ، لذلك اعتمد على استيراد الحبوب من مصر ، وغالباً ما كان الحجاز تابعاً سياسياً لمصر . وهذا حال الحجاز خلال القرون الوسطى حيث اعترف المكيون بسلطة سلاطين مصر عليهم ، وبالإخص بعد أن قوى مركزهم بسبب احتضانهم الخلفاء العباسين بعد أن هربوا من بغداد إثر الغزو المغولي^(٨) .

لم يكن الخليفة «خليفة الرسوا» ، وحده الشخصية الرئيسة في العالم الإسلامي ، فقد كانت مكة مركز «الشريف الأكبر» وهو رئيس العائلة المنحدرة من نسل الرسول محمد عليه السلام ، ومن الطبيعي فإنه كان يتمتع بمكانة كبيرة كا يحظى باحترام القبائل العربية في الحجاز .

وفي عام ١٥١٧م احتل العثمانيون مصر وأعلنوا أن الحجاز تابع لسلطتهم ، وقد أرسل شريف مكة ابنه إلى القائد المنتصر السلطان سليم لمبايعته والاعتراف بسلطنته^(٩) وأهداه قرآنًا - يقال إنه نسخ يهد الخليفة الثاني^(١٠) ، ومفتاحاً فضياً للكعبة ، وفي نفس الوقت حمل الأتراك معهم إلى القدسية الكسوة ورابة النبي التي حلها الخلفاء معهم إلى مصر ، وفي القدسية اتخذ السلطان لنفسه لقب «حامى الأماكن المقدسة» . وأخذ خلفاؤه فيما بعد لقب «خليفة» .

حااز السلطان التركي على القيادة الدينية للإسلام ، ولهذا أخذ على عاتقه مسؤولية

(٧) الذي فرض الحج هو الله سبحانه وتعالى وما على الرسول عليه السلام إلا البلاغ المبين قال تعالى : هُوَ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ جَعَلَ الْبَيْتَ مِنْ اسْتِطَاعَةِ إِلَيْهِ سَبِيلًا الآية ٩٧٦ (٩٧٦) من سورة آل عمران (المترجم) .

(٨) دخل المغول بقيادة هولاكو في عام ١٢٥٦هـ / ١٢٥٦م (المترجم) .

(٩) عندما كان السلطان سليم الأول في مصر ، استقبل أبيامي بن الشريف برؤسات الثاني ابن محمد ، شريف مكة ليعلن اعتراف والده بالسلطة العثمانية ، فأقره سليم على نظام الشرافة كما كان من قبل (عمر ، ص ٩٥ - المترجم) .

(١٠) الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم ينسخ القرآن وإنما أشار على الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه بجمعه ، فجمع عندئذ في المصحف ، ثم نسخ في المصاصف من قبل لجنة مشكلة بأمر الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه (مزيد من المعلومات أنظر ، الصياغ ، ص ١٠٤ - ١١٩) - المترجم .

عشرون ألف حاج في عام ١٧٥٧م ، إذ ماتوا عطشاً في الصحراء بعد ما فقلوا رواحهم إثر عملية نهب وسلب بعد هجوم كاسح قام به البدو^(٣) . أما بالنسبة لنجد ، فلم تكن هناك سلطة ما ، إذ لم يفهم أمر تلك المنطقة التي كانت تتألف من قرى صغيرة مستقلة وقبائل محلية ، دائمًا ما كانت في حروب مستمرة مع بعضها البعض . وكانت الدرعية من بين القرى الصغيرة ، غير أنها منذ القرن السادس عشر أصبحت تابعة لحكم العائلة السعودية ، وتقع هذه القرية على بعد سبعة أميال من مدينة الرياض الحالية^(٤) .

وفي عام ١٧٤٥م جاء إلى محمد بن سعود قاضي شرعى كانت حياته قد تعرضت للخطر بسبب تمسكه بتطبيق الشريعة بذاتها . لقد كان محمد بن عبدالوهاب شخصاً مؤمناً متھمساً وعزى كل المفاسد والشروع التي كانت سائدة آنذاك إلى ابعاد الناس عن عقيدة آبائهم وأجدادهم الطاهرة ، وإن كل البدع التي جاءت بعد وفاة الرسول عليه السلام ، حتى شرب القهوة والتدخين ، تعتبر خطأ وكفراً^(٥) . ومن أسوأ هذه البدع هو الاعتقاد بأن في استطاعة الأئمة الصالحين ، وحتى محمد عليه السلام ، التوسط بين الإنسان وحاليه ، كما انتشرت بعض مظاهر الجاهلية في نجد كعبادة الأحجار والأشجار ، التي تستحق اللعنة حقاً .

أسوارينا ، وضمت أقساماً من بولندا وبوكارانيا وكان باستطاعتها أن تعيير البحر الأسود بحيرة تركية ، أما في الداخل فكان هناك تفكير خاطئ يخيم على عقول المحافظين أساسه المكايدة ، معتقدين أنه ليس للأتراك المسلمين حاجة في أن يتعلموا أي شيء من البربرية الكفار . وهكذا سمحوا للتقدم التقني الذي بدأ يعم غرب أوروبا أن يفوتهم ، فلم يكن هناك أي كتاب مترجم إلى اللغة التركية ، للدرجة أنه قيل إنه حتى نهاية القرن الثامن عشر ، لا يوجد من بين الطبقة التركية الحاكمة شخص قد سمع بجاليليو Galileo^(٦) وإن مجرد اقتراح لتأسيس فرقة لإطفاء الحروائق ، يعتبر تدخلاً في مشيئة رب [سبحانه وتعالى] ، وقد أعلنت السلطات الدينية بأن الله [سبحانه وتعالى] لن يبارك في جيش يرتدي أفراده السراويل ، وكانت جماعة الانكشارية^(٧) تؤلف جبهة قوية تعمل ضد أي تطور في حين إنها كانت في وقت ما تقود طلائع الجيوش في كل معركة ولكن هذه الجماعة أصبحت فيما بعد عصابات لا يهمها ولا يحركها إلا شيء واحد ، هو الخوف من فقدانها للمجاه .

وفي مثل هذه الأحوال السائدة آنذاك ، فإن الحكومة العثمانية لم تعر بالاً للاهتمام بأحوال الجزيرة العربية وكل ما كان يعنيها هو استمرار الجزيرة العربية في ولائها للباب العالي ، كما أنها كانت حريصة على المحافظة على تعاليم الإسلام وإقامة شعائره الدينية . ولم يُظهر الحكومة العثمانية أي اهتمام بأمور الحجاز لولا الحادثة التي قيل إنه ذهب ضحيتها

(٧) غاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢م) : عالم فلك إيطالي ، أيد نظرية كوبيرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس (المورد ، معجم الأعلام) - المترجم .

(٨) الانكشارية : فرقه عسكرية أنشأها السلطان أورخان (١٣٢٦ - ١٣٥٩م) عندما جند ألفاً من الأسرى النصارى وسن قانوناً خاصاً لهم ، نصت أحد بنوده على الطاعة المطلقة لأول الأمر (عوض ، ص ١٢) . ويعيش أفراد الانكشارية بلا أمل في الزواج أو النزرة ، فيعتبر السلطان أباهم والشّركة مأواهم والقرآن عقیدتهم والمربي مهنيتهم ، وعندهم أن أعداء السلطان ، أعداء الله ، وقد قامت هذه الفرقه بدور رئيسي في الفتوحات العثمانية الكبرى في القرنين الخامس والسادس عشر (عمر ، ص ٤٨ - ٤٩) ، ثم بدأ الفساد يدب تدريجياً إلى هنا الجيش عندما مات السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣م) للفلانين والغرفرين بالآخرات في سلك الانكشارية بعد أن كان ذلك محظوظاً عليهم ، فكثر عددهم وقتل برकتهم وضعف تمكّهم ببادئهم حتى تحولوا من أدلة نصر وظفر إلى أدلة هزيمة وتغريب (عوض ، ص ١٣ - ١٤) - المترجم .

(٩) لند وقع الهجوم على قافلة الحرفة (مؤن من طعام وملابس لإسعاف الحجاج في طريق عودتهم إلى الشام) في ٢٠ ذي الحجة ١١٧٠هـ / ٥ سبتمبر ١٧٥٧م ، في المنطقة الواقعة ما بين القطرانة ومعان ، أما المهجوم على قافلة الحجاج فوقع في حوالي ١٠ صفر ١١٧١هـ / ٢٤ نوفمبر ١٧٥٧م ، في المنطقة الواقعة بين تبوك وذات حاج وقد حدثت هذه المأساة في نهاية عهد السلطان عثمان الثالث (مات في ١٦ صفر ١١٧١هـ) ، وكان أميراً للحج حينذاك حسين باشا بن مكي والي الشام ويقال بأن امتناعه عن دفع المال إلى البدو من بي صخر - في وقت كانوا يعانون فيه من شدة القحط والجدب - هو السبب في هذا الهجوم ، هذا بالإضافة إلى ما لحقهم من خسارة كبيرة نتيجة حرمانهم من الاشتراك في عملية نقل الحجاج (أنظر ، رافق ، ص ٢٦٥ - ٢٦٧ - وكذلك عبدال الكريم ، ص ٢١٤) - المترجم .

(١٠) أصبحت قرية الدرعية الآن تقريباً جزءاً من مدينة الرياض الكبرى (المترجم) .

(١١) لم يقل محمد بن عبدالوهاب أو أحد من اتباعه حسناً أعرف ، بترجم شرب القهوة أو حتى بكرأه شربها (المترجم) .

[الإمام] عبدالله بن سعود ، خلف والده في عام ١٨١٤ م بعد ثلاث سنوات من بداية الغزو المصري للجزيره العربيه ، وفي عام ١٨١٨ تم عرضت عاصمه للدمار أما هو فقد أخذ أسيراً حيث تم إعدامه في القسطنطينيه .



تركي بن عبدالله ، هرب ورفع راية الحرب ، واستطاع أن يستعيد مدينة الرياض مرة أخرى ويعيد غالبية بلاد نجد إلى سلطة آل سعود . ولكن في شهر مايو عام ١٨٣٤ م اغتيل تركي يد أحد أقاربه^(١) ، والذي حكم لمدة ٤٠ يوماً فقط ، حيث استطاع فيصل بن تركي^(٢) أن يتسلق أسوار القصر ، ويقطع حجرة قاتل أبيه .

وكان رفيق فيصل في تلك العملية شيخ مشهور من مدينة حائل في جبل شمر اسمه عبدالله بن رشيد ومن طريق ما يحكى عنه أنه طعن ذات مرة في إحدى المعارك في رقبته ، وترك في ساحة المعركة بإعتباره ميتاً ، إلا أن سريراً من الجراد زحف نحو ابن رشيد ، وبتأثير حركة أجنحة الجراد ، فإن جرحه قد غطى بالرمل ، بينما حام حوله سرب من الطيور واقتلاع إياه من حر الشمس ، وتقديرأً لمساعدة ابن رشيد فقد عينه فيصل أميراً لنطافته ، جبل شمر .

(١) قتل الإمام تركي في الرياض وهو خارج من المسجد بعد صلاة الجمعة ، على يد ابن عمه مشاري (ابن عيسى) ، ص ١٦١ - المترجم .

لقد استطاع محمد بن عبدالوهاب أن يقنع كل أهالي الدرعية ، من ابن سعود وغيره ، بأن كل منعارضه يعتبر كافراً ، وأن من الواجب إعلان الجهاد عليهم ومصادرة أموالهم وإعطائهم للمؤمنين ، وكان هذا حافزاً مهماً دفع الكثير من أتباعه إلى المشاركة بالجهاد في أكثر من خمس وعشرين معركة في غضون خمس سنوات . وقد كان أتباع محمد بن عبدالوهاب يُسمون أنفسهم «بالسلفيين» ، أما أعداؤهم فكانوا يسمونهم «بالوهابيين» . وبعد فترة وجيزة من بداية عام ١٨٠٠ م قام أتباع محمد بن عبدالوهاب بهدم أهم الأضرحة المقدسة في العراق وجلبوا معهم غنائم كثيرة ، حتى أن بعض فرقهم قد توغلت شمالاً حتى وصلت إلى حلب . والمعروف أن كلتا المطقتين [العراق وحلب] كانتا ضمن السلطة العثمانية . وفي الوقت نفسه امتد تأثير الدعوة الوهابية إلى سواحل الخليج ، وخرجت بعض القبائل الغازية تجاه ساحل البحر لمصادرة أموال الكافرين وقد عُرف هذا الساحل فيما بعد بـ «ساحل القراصة» .

أخذ عميد أسرة آل سعود «عبدالعزيز» لقب إمام ، وبهذا أصبح من الختم أن تبدأ الخصومة بينه وبين شريف مكة ، إذ أن كلاً منها اعتبر الآخر مهظقاً خطراً . وقد وقع بين الجانبين عدد من المصدامات ، ففي صيف عام ١٨٠٢ م دخلت قوات [الإمام] عبدالعزيز بن سعود مدينة مكة وقبل انسحابه أمر بإعدام بعض الدجالين المسيئين إلى الدين ، وفي عام ١٨٠٦ م عادت القوات السعودية بقيادة ولده سعود إلى مدينة مكة مرة أخرى ثم إلى المدينة وعلىثر ذلك أوغر السلطان محمود الثاني إلى واليه على مصر محمد علي للتدخل وجسم الأمر . وفي عام ١٨١١ م استطاعت قوة تركية - مصرية دفع النجدين إلى خارج مكة والمدينة . ولم يكن نجاح تلك الحملة العسكرية بالأمر السهل ، إذ لم يستطع إبراهيم باشا احتلال الدرعية - عاصمة السعوديين - إلا بعد سبع سنوات من القتال الشديد ، وبعد احتلالها أمر بدميرها ، وما زالت آثار الدمار باقية حتى اليوم أما عبدالله بن سعود الذي خلف والده عام ١٨١٤ م ، فقد لقي حتفه في القسطنطينية .

لقد قرر المصريون تركيز قواهم في الحجاز ، على أن يتركوا حاكماً خاضعاً لهم في نجد التي أصابها الدمار للدرجة أنهم أعتقدوا إنها لن تُسبّ لهم أية متابعة في المستقبل . وبالرغم من أن أمراء آل سعود قد أخذوا إلى المنفى . إلا أن واحداً منهم إسمه

وفي عام ١٨٣٨م زحف الجيش المصري مرة أخرى ، وبعض على فيصل وأخذه فاستولوا على الإحساء وهي المنطقة الواقعة في أقصى نجد . وقد توفي سعود بمرض أسيراً إلى القاهرة ، ولكن في عام ١٨٤٠م باع سلطة مصر التوسيعية بالفشل بسبب الجدري في عام ١٨٧٥م ، وعاد عبدالله ليتول أمر السلطة ، ولكنه بعد قليل من ذلك عداء اللورد بالمرستون لهذه السياسة^(١٣) . وهكذا اضطرت مصر إلى الانسحاب من اكتشاف أنه لا يستطيع الحكم بدون مساعدة محمد بن رشيد ، والذي وضعه تحت الجزيرة العربية ، تاركة أميراً من آل سعود تابعاً لها كحاكم لمنطقة نجد . وفي أوائل عام ١٨٨٧م عندما عجز عبدالله عن إخماد تمدد قام به أولاد ١٨٤٣م ظهر الأمير فيصل مرة أخرى بعد أن هرب من سجنه في مصر ، وبمساعدة من أخيه ، احتل ابن رشيد مدينة الرياض ، وأبعد عائلة آل سعود عنها . ابن رشيد لم يواجه صعوبة كبيرة في استلامه لرئاسة الحكم ثانية .

لقد توفي محمد بن رشيد في فراشه ، وهذا شيء يكاد يكون فريداً بالنسبة لهذه وبعد وفاة عبدالله بن رشيد ، تولى إمارة جبل شمر ابنه طلال واستمر طلال في العائلة الحاكمة ، وخليفة ابن أخيه عبدالعزيز . الذي وجد نفسه وجهاً لوجه أمام ولائه للإمام فيصل بن تركي ، ولكنه في الحقيقة كان يتسم باستقلال جزئي في إمارته ، محارب لم تشهد له الجزيرة العربية مثيلاً منذ ألف عام ، إنه عبدالعزيز ، المعروف باسم فقد بسط نفوذه على شمال الجزيرة العربية لامتلاكه صفات يقدرها العرب كثيراً ، سعود . ففي يناير من عام ١٩٠٢م استعاد عبدالعزيز بن سعود ، وكان عمره كالكرم ، والشجاعة والعدل . وبقى طلال يُظهر ولاءه للإمام عبدالله الذي تولى الإمارة حينذاك ثمانى عشرة سنة – مدينة الرياض مع سبعة من رفاته . وفي أبريل من عام السعودية بعد وفاة أخيه فيصل ، ولكن في عام ١٨٦٧م انتحر طلال لأنه اعتقد أنه في ١٩٠٦م ، وبعد عدة معارك ، انتصر ابن سعود على ابن رشيد ، الذي قُتل ، وتولى الإمارة بعده ابنه ، وكان في الثامنة عشرة من عمره . ولكن هذا الصبي [لم يحكم إلا لمدة طريقه إلى الجنون .

عشرة أشهر حيث [قتل في يناير ١٩٠٧م من قبل إبني عمه ، فحكم أكبرهما لمدة سنة وبعد وفاة طلال ، تقلد الإمارة أخوه متبع الذي حكم لمدة أربع سنوات ثم قبل أن يقتله أخوه الأصغر الذي حكم هو الآخر لمدة سنة تقريباً ثم اغتيل ، بعد ذلك اغتيل من قبل أولاد أخيه ، ويقال إنه قُتل برصاصه مصنوعة من الفضة . فسلم الحكم نصب صبي – وهو أحد القلة القليلة الباقية من العائلة – عمره عشر سنوات ، أميراً مع بندر وهو أكبرهم سنًا ولكنه لم يبق سوى بضعة أشهر ، حيث قُتل بيد أحد أخوه وصي عليه ، وهذا [أي الوصي] بدوره توفي مسموماً بعد وقت قصير .

طلال ، وهو محمد بن [عبدالله] رشيد الذي بسط سلطته على شمال الجزيرة العربية واستطاع هذا الأمير أن يستمر في الحكم لمدة عشر سنوات ، بعدها قُتل بيد ابن وشرقهها لمدة ربع قرن .

عم له ، والذي كان أحق في تحديه هدف مستهدف ، فذبح فوراً ذبح الشاه بيد أحد العبيد ، وأعلى عرش الإمارة أحد أبناء عم الأمير المقتول ، ولكنه كان متراجعاً في استلام الحكم وسرعان ما طلب هذا الأمير عندما حانت له الفرصة ، الأمان عند ابن سعود ، بعده جاء أمير آخر ، وكان ترتيبه الثالث عشر والأخير من أمراء عائلة ابن رشيد الذين حكمو منطقة جبل شمر لمدة تسعين عاماً تخللتها النزاعات والاضطرابات . وفي نوفمبر

في الوقت نفسه ، تمرد سعود أصغر أبناء فيصل على أخيه عبدالله ، ونصب نفسه حاكماً في الرياض . ولقد استغل الحكم الأتراك في العراق هذه التصريحات المستمرة ،

(١٣) بالمرستون : رئيس وزراء بريطانيا من عام ١٨٥٥ - ١٨٥٨م ومن ١٨٥٩ - ١٨٦٥م وقد لعب دوراً بارزاً في الشؤون الأوروبية (المورد ، ص ٦٧ من معجم الأعلام) - المترجم .

(١٤) لا يُؤيد هذا القول إلى أدلة تاريخية (المترجم)

من عام ١٩٢١م دخل ابن سعود مدينة حائل .

بينما كان منافساً لابن سعود يزورون أنفسهم ، كان هو يعمل على تقوية مركزه عالمياً ، بالإضافة إلى ذلك ، فإن الاعتقاد السائد آنذاك هو أن مركز شريف مكة ، بعد عام ١٩١٢م كان لا يزال سلاح فعال وهو «الإخوان» والإخوان في الأرجحية القادر على إعلان بطلان دعوة السلطان العثماني للجهاد ، والذي كان بإمكانه أن جماعات من البيو استقرروا في مناطق خصصها لهم ابن سعود وبعث إليهم عدداً غير المنوف المسلمين في الإمبراطورية البريطانية . وهكذا اندلعت الثورة العربية في يونيو المرشدين الدينيين الذين يتوافقون في فكرة الجهاد ؛ وعاش الإخوان عيشة بسيطة جداً عام ١٩١٦ ، وفي نوفمبر ١٩١٨م استطاع جيش الشريف أن يسبق الجيش وكان أملهم الوحيد ، هو الموت في الجهاد حتى يذهبوا إلى الجنة ، وكان من عاداتهم لبريطاني في الاستيلاء على دمشق .

يطلقوا الرصاص ثم يبدأوا المجمع بالسيوف ، وقل من يجرؤ على مقاومتهم ، وفي وقت استمرت الخلافات والتراويات المسلحة ، بين جيش الأشراف وبين الإخوان مبكر من عام ١٩١٤م استطاع الإخوان أن يطردوا الأتراك من الإحساء ، ولم تأذن خلال الحرب العالمية قبلها ؛ وكانت هناك بعض الوقت ، حالة مثيرة للاشتعال ، حيث تلك العملية إلا أيام معدودات .

ستعلّم الطرفان المتزاوجان أسلحة وزعنفها وزارة الخارجية البريطانية على الطرف الأول ، بنادق وزعنفها وزارة شؤون الهند على الطرف الثاني ، وفي تلك الفترة استطاع ابن سعود ، أن يمد حكمه إلى جبل شمر ، وواحة الجوف ، ووادي السرحان حتى وصل إلى ابن سعود البطل حدود المعتميات البريطانية في العراق والأردن .

في عام ١٩١٧م وهو في أواخر الثلاثين من عمره وفي صيف عام ١٩٢٤م حدث الصدام الأخير بين حكام الحجاز وحكم نجد . ومعه إثنان كان هما في ذلك الوقت احتل الأخوان مدينة الطائف ، بعد معركة دامية ، وفي شهر أكتوبر أثراًهما كرماناً إلى العزيزة العربية وهن ذلك العام دخل الأخوان مدينة مكة بدون إراقة دماء ، بعد أن تدخل ابن سعود السير يرسى كوكوشصياً في الأمر . بعد ذلك بقليل تنازل الشريف حسين عن العرش وغادر البلاد ، وجرت ردة فعل . بعد أن كان قد أعلن نفسه خليفة وملكاً على العرب ، ثم اعتلى العرش ابنه علي الذي لم تتجاوز سلطته أسوار مدينة جدة إلا قليلاً ، والتي وقعت هي الأخرى تحت سلطة ابن سعود في نهاية عام ١٩٢٥م . وبانضمام منطقة عسير في الجنوب الغربي إلى سلطة ابن سعود ، ثم انضم من منطقة نجران في عام ١٩٣٤م ، استقرت حدود الدولة السعودية على

وفي نوفمبر من عام ١٩١٤م ، دخلت كل من تركيا وبريطانيا الحرب ما هي عليه الآن . بعضهما ، وحاول الإنجليز ، أن يستغلوا فرصة غضب العرب على حكامهم الأتراك وفي يناير من عام ١٩٢٦م أعلن ابن سعود نفسه ملكاً على الحجاز ونجد ، وفي وكان هناك جدل محظوظ في دوائر الحكومة البريطانية حول من هو الخليفة المناسب لعام ١٩٣٢م سُمي ملكاً للمملكة العربية السعودية . وتعتبر فترة الملك عبدالعزيز خارج ابن سعود أم شريف مكة حسين . وأخيراً وقع الخليفة على شريف مكة ، وقطع نطاق هذا الكتاب ، ولكننا قد نطرق إليها من خلال دراستنا للمرحلة الذين عاصروه ، الحكومة البريطانية اتصالها مع ابن سعود ، وفي الحقيقة أن وزارة الخارجية البريطانية التي ستكون موضوع الفصول الأخيرة .



الاستكشافات الأورية في الشرق الأوسط



الليدي ماري وورتلي مونتيجو (١٦٨٩ - ١٧٦٢م) اشتهرت بكتابه الرسائل التي وصفت فيها الشرق وجده، وقد أبدت تعاطفاً غريباً مع الإسلام، وهي التي جلبت فكرة التقى ضد الحدري إلى إنجلترا، وكانت لها شخصية عاصفة، فيبادرت الإهانات مع [الأدباء] سويفت وبوب، ودخلت في سلسلة من العلاقات الغرامية الشيرة.

وقد اتسم النصف الأول من القرن السادس عشر بنزاعات قوية ، حيث اندفع البرتغاليون بأساطيلهم إلى بحار المسلمين . ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً . وقبل عام ١٦٠٠م ، كان لكل من فرنسا وبريطانيا سفراء في القسطنطينية ، وشركات تجارية تتعامل مع مصر وسوريا ، كما كانت هناك جالية بريطانية كبيرة تسكن في مدينة حلب ، وقد أظهر بعض أفرادها اهتماماً خاصاً بالأمور الدائرة حولهم . وكتب بعض المثقفين من أمثال جورج سانديز George Sandys عن حياة البلو والجمال ، إلى الناس المتعلمين في بلاده ، وفي عام ١٦٣٢م ، أنشئ كرسى الأستاذية للغة العربية في جامعة كمبردج وذلك بأعمال تخليص المسلمين .

وبعدها بعد ذلك عدد من الجامعات الأخرى ، فأول أستاد بجامعة إكسفورد ، بدأ بجمع المخطوطات الشرقية ثم صنفها ونشرها ، وكان ذلك قبل مائتي عام من إنشاء أول مطبعة عربية في مصر .

وفي عام ١٦٥٢م طُبع الكتاب المقدس بعدد من اللغات ، ومن ضمنها اللغة العربية ، وأهديت نسخة منه إلى كروموويل Cromwell^(١٦) . وفي بداية القرن الثامن عشر ترجم القرآن لأول مرة إلى اللغة الإنجليزية ، وربما ما زالت تعتبر أحسن ترجمة ظهرت حتى الآن ، وكذلك تُرجمت قصص ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية .

بعد ذلك أخذت الرحلات تزداد سهولة ، حيث بدأ عدد من النبلاء الشباب يسافرون في رحلات طويلة ، إلى إيطاليا ، ومنها إلى مصر وتركيا ، حيث أصبحت السيدة ماري وورتلي مونتيجو Lady Mary Wortley Montagu من عام ١٧١٧م سفيرة بلادها بريطانيا في تركيا^[١] . وفي عام ١٧٢١م أقيم لأول مرة ، معرض للفراعنة في جمعية الآثار القديمة [لندن] ، وفي عام ١٧٤٠م تأسست الجمعية المصرية التي التقى

(١٦) كروموويل أوليفر : رعيم سياسي عسكري إنجليزي ، هزم الملكين وأعلن الجمهورية عام ١٦٥٣م (المورد ، ص ٢١ من معجم الأعلام) - المترجم .

(١٧) دانتي اليعري (١٢٦٥ - ١٣٢١م) : كبير شعراء إيطاليا وصاحب ملحمة الكوميديا الإلهية (المورد ، ص ٢٣ من معجم الأعلام) - المترجم .

كانت العلاقات في القرون الوسطى المبكرة ، بين المسلم والنصراني ، ودية إلى حد ما ، فقد أهداه هارون الرشيد ، فيلاً إلى [الأميراطر الفرنسي] شارلمان Charlemagne ، كما أن أحد البابوات اعترف بأن فاس هي أحسن مركز تعليمي في العالم ، وعندما زار القديس الإنجليزي وليبولد Willibald ، مدينة القدس ، وقضى عليه بتهمة التهريب ، لم يكن عقابه سوى التوبخ البسيط . إن هذا التعايش السلمي ، انتهى في نهاية القرن الحادي عشر ؛ فلعله أسباب ، بعضها سياسية ، وبعضها اقتصادية وربما أخرى دينية ، بدأ قادة الدول المسيحية بما يسمى الحروب الصليبية . وحتى بعد انتهاء تلك الحروب ، فقد ظلت البغض والإحقدان تأكل القلوب ، وهكذا نجد الشاعر الإيطالي دانتي Dante^(١٨) قد وضع الرسول عليه في أدنى درجات جهنم . وبالرغم من بقاء بعض نقاط الصلة والصدقة ، إلا أنها اختفت بعد أن فرض الأتراك سيطرتهم على الشرق الأوسط .

أعضاءها بانتظام في شارع تشاندوز Chandoz تحت إشراف «شيخها» اللورد ساندوينش Sandwich .

ثلاثة رحالة إلى مكة

لودوفيكو دي فارثيمـا :

« ... إن سألي أي إنسان عن سبب رحلتي هذه ، فمن المؤكد أنه لا يوجد سبب أفضل من القول ، إن رغبتي المقددة في المعرفة ، التي دفعت الكثيـرين من الناس لرؤية العالم ومعجزات الخالق ، وبقدر ما هناك من الأماكن المعروفة التي تمت زيارتها ووصفت وصفاً كاملاً ، فإنني عزمت على زيارة ووصف الأماكن التي ليست معروفة معرفة كافية » .

مـكذا بدأت الترجمة الإنجـليـزـية ، للـرحلـات الـبـحرـية التي قـام بها لويس فـرمـانـوس أو لـودـوفـيكـو دـي فـارـثـيمـا Ludovico De Varthema « مواطن من مدينة رومـا ». وبـلاـشك فإنه نجـحـ في تحقيق رغـبـاته ، فهو من أوائل الأورـيـبيـن الذين استطاعـوا وصف الحـجـ إلى مـكـةـ ، وأـولـ من وصف جـزـيرـةـ التـوـابـلـ شـرقـ جـاـوهـ ، ومن الـعـتـمـلـ أـيـضاـ أنـ يكونـ أولـ شخصـ يـذـكـرـ استـرـالـياـ .

غادر فـارـثـيمـا مـديـنةـ الـبـنـدـقـيـةـ الإـيـطـالـيـةـ فيـ شـهـرـ دـيـسـمـبرـ منـ عـامـ ١٥٠٢ـ متـجـهـاـ إلىـ مصرـ ، وـبـعـدـ زـيـارـةـ قـصـرـةـ لهاـ ، غـادـرـهاـ إـلـىـ دـمـشـقـ النـيـ وـصـلـ إـلـىـ هـاـ فيـ الرـبـيعـ . وهـنـاكـ التقـىـ معـ رـجـلـ نـصـرـانـيـ كانـ قدـ تـرـكـ دـيـنـهـ ، وـعـمـلـ ضـابـطاـ فيـ القـوـاتـ العـثـانـيـةـ ، إـذـ وـاقـعـ علىـ أـخـذـ فـارـثـيمـاـ إـلـىـ مـكـةـ كـواـحـدـ مـنـ الـجـنـدـ الـمـارـافـقـينـ لـلـحـجـاجـ وـكانـ هـنـاكـ سـتوـنـ جـنـديـ يـقـومـونـ بـحـرـاسـةـ ٣٥٠٠ـ جـلـ وـ٤٠٠٠ـ نـفـسـ ، لـقـدـ كـانـ فـارـثـيمـاـ رـجـلـ مـلـيـاـ بـرـوحـ النـهـضـةـ الـأـورـيـيـةـ Renaissance ، وـحـبـ الـمـاغـمـرـةـ وـالـانـدـفـاعـ ، فـرـاهـ يـصـفـ مـعـرـكـةـ معـ الـبـلـوـ ، قـتـلـ فـيـهـ رـجـلـ وـإـمـرـأـةـ مـنـ مـوـكـبـ الـحـجـاجـ فـيـقـولـ : « ... اـنـتـ قـتـلـنـاـ مـنـ الـبـلـوـ أـلـفـاـ وـخـمـسـمـائـةـ نـفـسـ ، وـلـاـ تـعـجـبـ عـنـدـمـاـ تـعـلـمـ بـأـنـهـ لـمـ يـكـونـواـ مـسـلـحـينـ . وـلـاـ يـرـتـدـونـ مـنـ الـلـبـاسـ إـلـىـ ثـوـبـاـ خـفـيـاـ فـضـفـاضـاـ وـهـمـ إـلـىـ جـانـبـ ذـلـكـ شـبـهـ عـرـاءـ ... » . لـمـ يـكـنـ فـارـثـيمـاـ مـهـنـمـاـ بـوـصـفـ الـأـمـاـكـنـ إـلـيـاـ صـبـ اـهـتـامـهـ عـلـىـ الـأـشـيـاءـ الـغـرـيـبـةـ ، وـلـمـ يـعـطـنـاـ وـصـفـاـ دـقـيـقاـ .

وبـدـأـ بـعـضـ الـكـتـابـ أـمـثـالـ صـامـوـئـيلـ جـونـسـنـ Samuel Johnson وـفـولـتـيرـ Voltaire يـكـتـبـونـ قـصـصـاـ خـيـالـيةـ عنـ الشـرـقـ ، فـيـ حـينـ اـنـقـدـ مـونـتـسـكيـوـ Montesquieu بـلـادـهـ [ـفـرـنـسـاـ] بـصـورـةـ تـهـكمـيـةـ ، عـنـ طـرـيقـ جـدـالـ مـفـتـحـلـ معـ ضـيـفـ فـارـسـيـ ، وـوـجـدـ بـعـضـ الـفـلـاسـفـةـ أـمـثـالـ روـسوـ Swedenborg وـسوـيدـنـبـورـجـ Rousseau مـيزـاتـ حـسـنـةـ فـيـ الـقـرـآنـ .

وـفـيـ نـهـاـيـةـ الـقـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ أـصـبـحـ السـفـرـ بـرـأـ لـلـهـنـدـ عـنـ طـرـيقـ مـصـرـ وـسـوـرـيـاـ ، شـيـئـاـ يـكـادـ يـكـونـ اـعـيـادـيـاـ ، وـقـدـ فـتـنـ الشـبـابـ بـالـصـورـ الـرـوـمـانـسـيـةـ التـيـ حـكـاـهـاـ [ـالـشـاعـرـانـ] باـيـرـونـ Byron وـمـورـ Moor عـنـ الشـرـقـ الـمـالـيـ ، فـيـ حـينـ أـصـبـحـ النـاسـ أـكـثـرـ اـهـتـاماـ بـأـنـفـسـهـمـ ، وـانـطـبـاعـتـهـمـ ، وـأـنـدـهـرـتـ قـصـصـ الـرـحـالـ تـغـيـرـ مـنـ حـقـيـقـةـ وـاقـعـيـةـ ، إـلـىـ مـزـجـ مـنـ الـانـطـبـاعـ وـالـخـيـالـ .

وـبـمـرـورـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ ، أـصـبـحـ الـحـيـاةـ رـتـيـةـ وـهـادـةـ ، مـاـ دـعـاـ بـعـضـ النـاسـ إـلـىـ التـأـمـلـ فـيـ الصـحـراءـ ، وـأـفـقـهاـ الـوـاسـعـ ، وـحـيـاةـ الـبـلـوـ الـحـرـةـ ، لـقـدـ كـانـ صـورـهـمـ تـلـكـ طـوبـايـةـ [ـمـثـالـيـةـ] ، وـلـكـنـ بـتـقـدـمـ أـورـيـاـ الـمـالـيـ فـيـهـاـ أـصـبـحـ أـكـثـرـ بـرـجـواـزـيـةـ وـأـصـبـحـ التـابـيـنـ بـيـنـ أـورـيـاـ وـالـشـرـقـ الـأـوـسـطـ أـكـثـرـ بـرـوـزـاـ . وـقـدـ اـمـسـىـ التـرـحالـ لـبـعـضـ الـأـفـرـادـ غـيـرـ الـمـأـكـدـيـنـ مـنـ مـكـانـهـمـ فـيـ الـجـمـعـ ضـالـةـ مـنـشـوـدـةـ لـلـبـحـثـ عـنـ الـجـدـيـدـ وـلـبـلـوغـ قـيمـ أـفـضلـ ، وـكـانـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ ، الـمـكـانـ الـذـيـ ذـهـبـ بـعـضـهـمـ إـلـيـهـ ، لـيـكـتـشـفـ نـفـسـهـ ، وـقـدـ رـجـعـ الـكـثـيرـ مـنـهـمـ مـتـغـرـاـ .

خروفًا سينياً بالدخول في الإسلام ، وقتل حماراً لرفضه الصلاة على النبي . وأخيراً جيء برجلين عالمين ليقررا فيما إذا كان فارثيما رجلاً مجنوناً أم صالحاً . وقد أختلف الرجال في قرارها ، وبينها هنا ينافقان أمره ، والذي استمر لمدة ساعة ، بال فارثيما في يديه ورش البول على وجه الرجلين ، بعد ذلك اتفقا على إنه ليس رجلاً صالحًا بل هو رجل مجنون .

أحس فارثيما بالفرج ، وليركذ جنونه فقد اعتاد على الوقوف عند النافذة وهو شبه عاري ، على حد قوله - وربما تكون القصة كلها مختلفة - وعندما رأته السلطانة ضحكت من حركاته الغريبة ، وبعثت له بطعم وزارتة عدة مرات وندبت حظها لكونها وعائلتها سود البشرة بينما هو أبيض مثل الشمس . وقد بدأ فارثيما في التفكير لتحليل نفسيه من المأزق الحرج ونحوه آخرًا في إقناع السلطانة بالسماح له بالذهاب إلى عدن للعلاج عند شخص اشتهر هناك بعمل العجزات .

وصل فارثيما إلى عدن في شهر مارس من عام ١٥٠٤ وعلى الفور أخذ سفينه وغادر الجزيرة العربية بعد أن مكث فيها عشرة أشهر ، وهنا سترك فارثيما ، ويأخذنا لو استطعنا متابعته في رحلته إلى الهند التي وصل إليها بعد وصول فاسكو دا جاما بست سنوات . وفيها وصف الملك الذي كان يربط شاربيه بقوس فوق رأسه . وكذلك وصفه للعادة القبيحة التي يبيح فيها الناس آباءهم وأمهاتهم لأكلة لحوم البشر وكان بودنا أن نمعن النظر في الفصل الذي أفرده في كتابه عن الفيلة وتواطدها ، فقد وجد أنها حيوانات ذات أربعة أطراف وطبعها لا تختلف كثيراً عن تلك التي عند الإنسان في تتميز بالذكاء والفهم وسهولة الانقياد . وعلى أية حال ، فإن تلك الأمور خارج نطاق هذا الكتاب ، وكل ما نستطيع قوله هنا ، هو أنه بعد مغامراته في فارس وجزر الهند الشرقية والحبشة وموزمبيق ، رجع فارثيما إلى روما في شتاء ١٥٠٨/٩ وظهر كتابه هناك وقد أهداه إلى دوقة إيطالية ، وبعد ذلك لم نسمع شيئاً عنه وربما أنه قتل بسبب طموحاته إلى مستوى أرفع من مستواه .

لمدينتي مكة والمدينة ، قبل أن يتعقل بسرعة للنظر في موضوع آخر .
ومثال ذلك ما ذكره في الفصل المعنون «وحيد القرن في حرم مكة غير المألف في الأماكن الأخرى» ، وفيه يقول عن ذلك الحيوان : «لونه كلون حصان أدهم ، ورأسه كرأس الأيل ، ولكن رقبته لم تكن طويلة ، أما العرف وهو شعر العنق فهو رقيق وملق على جانب واحد فقط ، وأما أطرافه فكانت ضعيفة هزيلة ، وله أظلاف كاظلاف الماعز مغطاة بالشعر ، إن هذا الحيوان لابد أن يكون حيواناً برياً شرساً ، ومع هذا فإنه كان ذا طبيعة هادئة». ولقد قيل له بأن هذا الحيوان قد أهدي من قبل ملك الحبشة .

عزم فارثيما على الاستمرار في رحلته وعدم الرجوع مع القافلة إلى دمشق ، واستطاع أن يهرب من القافلة بعد أن انفق مع رئيس الركب ، مقابل التعاون معه في عملية تهريب . وهكذا فقد اختفى حتى غادرت القافلة ، ومن جهة ركب فارثيما سفينة كانت متوجهة إلى عدن . وفي أثناء الرحلة ، وعندما علم ملاحوا السفينة أن زادهم على وشك النفاد ، هاجموا قرية جيزان ونهبوا . وبالرغم من أن فارثيما استطاع الهرب من الحجارة ، إلا أن متابعيه لم تنته بعد ، بل إنها قد بدأت لتوها ، فبعد يوم من وصوله إلى عدن يقول : «أخذني المسلمون ووضعوا القيد في قدمي ، وكان يأتيني رجل يصيح على : يا نصرياني ، يا كلب بن كلب ، وعندما يسمع المسلمون اسم نصرياني ، فإنهما يغضبون ويقومون بضربي». وقد طالب الناس بإعدامه ، باعتباره جاسوساً ، غير أنه لم تكن لحاكم عدن القدرة على اتخاذ قرار كهذا ، فبعث به ، مكبلاً بالسلسل ، إلى سلطان اليمن .

ولقد عزم فارثيما على الفرار ، وذلك عن طريق النظاهر بالجنون ولكن هذا الأسلوب أزعجه كثيراً كما يقول ، فقد أصبح أحياناً عرضة للرمي بالحجارة ، بدون انقطاع تقريباً ، من قبل الصبية والأوغاد ، الذين يصل عددهم إلىأربعين أو خمسين . [ومن أغرب ما عمل ليتظاهر بالجنون] وفي شخصية المتخمس للدين ، حاول أن يقنع

ليُسْكِتَ صَرْبِيَّ» ، وبالرغم أن بتس كان يستلم خطابات في أوقات متباينة من والده ينهاه ، من مقاطعة ديفون الآمنة ، عن ترك دياته الحقيقة . ومن الصعب أن يلوم الإنسان بتس لاعتقاده الإسلام ، وقد كان يكره ، خفية ، دينه الجديد وأكل برغبته التامة ، لحم الخنزير دون أن يره أحد . وقد كان هناك امتحان صعب للكشف عن حقيقة إسلامه ، حيث واجه في مدينة الإسكندرية عموداً حجرياً حشناً ، يشبه جذع شجرة ميتة ، وفيه عدد من العقد ، يحكي أنه هو نفس شجرة التي لعنها المسيح فصارت عجفاء ، وإذا استطاع أي شخص أن يسرر يانجاهه وهو معصوب العينين ، من مسافة عشر ياردات ، فإن ذلك برهان على أنه مسلم حقاً ، ومن حسن حظ بتس ، أنه نجح في هذا الامتحان .

وبعد أن لقى سيده الثاني مصرعه ، إثر تأمره على حاكم الجزائر ، بيع بتس لرجل أعزب وطاعن في السن ، عامله معاملة حسنة ، ومن المحتمل أنها ذهبا معاً في عام ١٦٨٥ لأداء فريضة الحج وخلال هذه الرحلة حدثت القصة المذكورة آنفاً . لقد أعطى بتس وصفاً مهماً عن القاهرة ، ولاحظ أن المصريين سلطوا اللسان ، ولكنهم نادراً ما يميلون إلى العنف ، ويحبون خداع الناس القليلة معرفتهم بالعملة النقدية وقد واصل الرجال سفرهما إلى السويس وركبا سفينته إلى جدة حيث وصلا إليها بعد شهر تقريباً . وبعد أن لبسوا ملابس الإحرام ، تحملاً لمرات كثيرة ، حرارة الشمس المحرقة ، حتى إنها أحرقت جلودهم التي تغطي ظهورهم وأذرعتهم وقد ورمت رءوسهم لدرجة كبيرة . وقد وصلا إلى مكة ، وكان بتس كأي شخص إنجليزي خارج بلاده لا يظهر استحسانه لما يراه ، فقد ظن أن مكة مدينة صغيرة وقديمة ، ومع إنه دخل إلى الكعبة مرتين ، فإنه - على حد قوله - لم يجد شيئاً يستحق الذكر ، والناس فيها لا يستحقون الذكر لفقرهم ، فأجسامهم نحيلة وبنائهم ضعيفة وبشرتهم داكنة .

قام بتس بأداء مناسك الحج ، وعلى كره منه ، كتب يقول : «لم يكن في وسعي إلا التعبير عن إعجابي لرؤية أولئك الناس الفقراء ، في خشوع شديد وهياق عميق

لقد كان وصف فارثما لرحلته عبارة عن قصة ممتعة لغامرات رجل ، فلم يكن لديه اهتمام كبير بالوصف الجغرافي للأماكن ولا بمارسة الشعائر الدينية في مكة ، وربما يعود سبب ذلك إلى جهله بهذه الأمور ، وعلى أية حال فإن وصفه هذا بقى الوحيد من نوعه المكتوب بلغة أوربية لمدة مائة عام تقريباً حتى نشر جوزيف بتس في عام ١٧٠٤ كتابه : «الوصف الصحيح لأخلاق المسلمين ودينهم» ، مع شرح لما حدث للمؤلف عندما أسر من قبل الأتراك ، وعن ما لاقاه من قسوة ، وعن هروبه ، ونجد في ذلك الكتاب أول مخطط للمسجد في مكة (إنه يذكر المؤلف بالمخزن التجاري الملكي) مع أول شرح واف عن مناسك الحج .

جوزيف بتس :

ولد جوزيف بتس Joseph Pitts في أكستر Exeter ، حوالي عام ١٦٦٣ لأب منشق على الكنيسة الانجليكانية وبعد أن ذهب إلى البحر وأثناء قيامه برحلته الأولى ، أسره القراءنة وسيق إلى الجزائر ، وبعد أربعين عاماً من تلك الحادثة كتب بتس مسترجعاً الرابع الذي أصابه آنذاك : « .. كنت صبياً في ذلك الوقت وظهر لي الأعداء ، كأنهم مخلوقات مرعبة وجائعة الأمر الذي جعلني أصرخ : سيدتي .. إنني خائف .. إنهم سيقتلوننا ، فرد قائلاً : كلا يا غلام إنهم سيأخذوننا إلى الجزائر ثم يبيعوننا هناك» ، وهذا ما حدث ؛ إذ اشتري بتس من قبل رجل كان يضره بصفة منتظمة على أحخص قدميه ، وكان بين الحين والحين يتوقف عن الجلد ليسترد قواه ويأخذ نفسها من نارجيله .

وبعد فترة من الزمن ، بيع بتس إلى سيد آخر والذي قرر أن يدخله في الدين الإسلامي حتى لو اضطر الأمر إلى ضربه ، ويقول بتس : «كنت أصرخ من الألم لشدة الجلد ، ولكن كلما صرخت اشتد في ضربي لدرجة انه كان يطاً بقدمه على فمي

بدينهم ، فقد كانوا يرتجفون من الخشية والرعبه ملوكهم ، حتى إنني لم أملك نفسي من البكاء ، فذررت عيناي بالدموع ، وأنا أراهم بهذه الحماسة العمياء» ، وكذلك فقد تأثر بنس بالشعائر الدينية على جبل عرفات (لم يتأثر بالجبل نفسه بالطبع ، فالجبل له أهمية ضئيلة) ، وقال : «لقد كان حقاً منظراً يهز القلوب ، فترى الآلاف من الناس في لباس الدولة والزهد بالحياة ، برعوسم العارية ، وقد سالت الدموع على خدودهم ، فتسعم نديهم ونشيجمهم المحن وهم ي يكون ، يتسلون ويتضرعون بكل إخلاص من أجل مغفرة ربهم» .

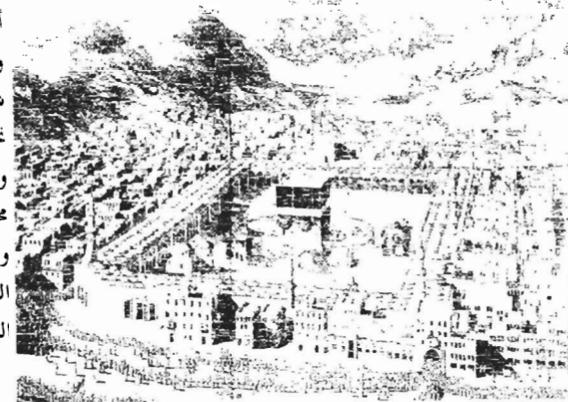
رجع بنس وسيده إلى الجزائر ، وهناك نال حرفيته ، فقد أعتقه سيده عندما كان في مكة ، على شرط أن يبقى مسلماً ؛ وأنى محاولة منه لنبذ الإسلام سيكون عقابه الموت . وبعد أن قضى سبع سنوات في الجزائر ، استطاع بنس أن يهرب وذلك عن طريق المخراطه في البحرية التركية . ومن مبناء أزمير استطاع الفرار من الخدمة ثم وصل إلى إنجلترا . وفي ليلته الأولى على أرض وطنه ألقى كتبية التجنيد القبض عليه وسحق للخدمة في البحرية البريطانية ، ولكنها استطاع أن يخلص نفسه فوصل إلى بلده في عام ١٦٩٣ ورَّاكَ مع أخيه شاكرًا ، من أجل عودته ، وعاش بنس بعد ذلك فيما يعتقد ، حياة هادئة في أكستر لمدة أربعين سنة أخرى .

لقد قضى بنس ، ما يقارب خمس عشرة سنة في البلاد العربية ، ولكونه مسلماً في الظاهر ، فقد كان على معرفة لا يأس بها بالدين الإسلامي وقد كانت القصة التي سردها ما هي إلا نموذج لانطباعات رجل إنجلزي صريح ، فهو مليء بالتحامل وعدم الثقة في الآجانب ، ولكنه دقيق وصادق ، ويبدو أن كتابه بقي غالباً ، غير مقروء كلية .

علي بك العباسى :

لقد ورد في بداية هذا الفصل أن الرحالة فارثيميا ذهب إلى مكة كأحد حراس القافلة ، والرحالة الثاني بنس ، ذهب بصفته عبداً مع سيده ، أما الرحالة الثالث علي بك العباسى ، فقد ذهب كأمير من سلالة الخلفاء العباسين ، الذين من ضمنهم هارون الرشيد ، ونادرًا ما يكون وصف رحلة ما ، مبدوعاً بمعلومات ضئيلة عن المؤلف ، [غير أن هذا الرحالة لم يعطانا شيئاً عن ماضيه] فقط هناك دعاء قصير بالعربية ، تلته هذه الجملة : «بعدقضاء سنوات عديدة في الدول النصرانية ، دارساً هناك العلوم الطبيعية والأداب ذات الفائدة الكبيرة للإنسان في المجتمع ... عقدت العزم أخيراً ، على زيارة البلاد الإسلامية ، فمن طريق أداء الحج إلى مكة ، يمكن التعرف عن قرب على أخلاق وعادات وطبيعة البلدان التي أمر بها ، فطلع قيامي بهذه الرحلة الجادة يكون فيه بعض الفائدة للبلاد التي ساختارها لي مقرأً» .

أحدى الصور الأخيرة لمكة
وقد رسمت حسب وصف
شفوي قبل أن توصف على
نحو مضبوط من قبل علي بك
وبوركهارت وهذه الصورة
محفورة في عام ١٧٩٠
وتوضح مدى نجاح المهدود
الكبيرة التي بذلك في
لسابق لوصف مكة .



وقد رجع بنس مع سيده إلى القاهرة عن طريق البر مارين بالمدينة التي لم يتوقع أنها صغيرة وفقيرة ، وقد زاد مكانتها سوءاً ، في نظره كما يبدو ، سرقة منديل حرير من سيده حينما كان يصلى عند قبر الرسول عليه السلام . وقد وصلا إلى مصر بعد سفر دام ثلاثين يوماً لم يشاهدا خلاله حضرة أو حيواناً برياً أو طيراً ، وبعد وصولهما وجداً البلاد وقد اجتاحها الطاعون . وفي مدينة الإسكندرية أصيب بنس بالطاعون إلا أنه استطاع أن يمرض نفسه ، على حد قوله ، وذلك أنه كان يشوي بصلة على النار ثم يغمضها في الزيت ويضعها على جروحه . وفي الإسكندرية التقى بنس بزميل قديم له في المدرسة وبعث معه هدايا إلى والديه في إنجلترا .

عدد المفقودين وقد بكى الجميع من العزلة واليأس ، ووسط هذا الضجيج ميزت صوت رجل أحش يبكي وينشح كالطفل ، وسألت عنه فوجدت أنه الملاح». استطاع على بك أن يحصل قسراً على قارب صغير ، وقام بتنظيم عملية التجديف بالغاء للمجدفين ، وبعد ثلث ساعات وصلوا إلى ساحل الجزيرة العربية ، حيث لحت بهم بعد بعض ساعات ، سفيتهم نفسها التي أسعفهم فركبوا فيها كلهم بعد أن تعانقوا مع بعضهم البعض .

وفي ٢٣ يناير عام ١٨٠٧ وصل علي بك إلى مكة وسكن في بيت بجانب قصر الشريف ، كان قد أعد له قبلًا ، وفي الحال استقبله شريف مكة ، وأخبره علي بك أنه من حلب ، وتشاورا في الشعون العالمية ، ولكونه شخصية مميزة ، فقد عين له الشريف رجلاً ذا مركز عالٍ يصاحبه في تنقلاته في المدينة وهو المسؤول الرسمي عن بشر زرم والذى يحمل لقباً إضافياً ، هو «المسم» ، وقد أصبحا صديقين حميمين ، إلا أن علي بك دائمًا ما يحمل في جيبيه جرعة من دواء قوي مضاد للسموم .

يعتبر علي بك ، أول من أعطى الغرب وصفاً منظماً عن مكة وهو أول من وصف تجاراتها ، ووصف أزهارها ونباتاتها وحتى إنه أول من حدد موقعها بدقة ، وقد وجد أن أجزاءً كبيرةً من المدينة قد تحولت إلى خرائب وأن سكانها قد تضاءل عددهم من مائة ألف ، على الأقل إلى ستة عشر ألف فقط ، وكان يعتقد أنه لا توجد مدينة ينقصها حرفيون : فلم يكن هناك من يصنع أو يصلح البنادق ولا من يصنع الأقفال ولا يوجد أحد من الأساقفة ومن المستحيل [على حد قوله] ، أن تشتري مصحفًا مكتوبًا بخط جيد أو حتى خالياً من الأخطاء ، ومن ناحية أخرى ، لم ير بنياناً ، مثل تلك الفنار الورقة التي ترقص وتقفز عليه في كل ليلة وتلحس المرهم من أصحابه . قضى علي بك أيامه في مكة بحرية واستقبل عدداً من الشخصيات البارزة ، وكثيراً ما رافقه شريف مكة في أداء مناسك الحج ودعاه للاشتراك معه في غسل الكعبة كـ أهداه قطعة كبيرة من كسوتها .

علي بك كما يمثل نفسه ، من صورة محفورة نشرت عام ١٨١٤ م.



وعندئذ تبدأ قصة علي بك مباشرة بعد ما نزل من السفينة في طنجة في يونيو ١٨٠٣ ، وتعتبر الصورة التي أعطاها عن المغرب خارج نطاق هذا الكتاب ، ولكنها

مهمة حيث إنها تعطي فكرة عن الانطباع الذي تركه هذا البلد عند صاحبنا . لقد أصبح علي بك صديقاً شخصياً للسلطان الذي قدم له علي بك هدايا من ضمنها عشرون بندقية مع الحراب وبرميل من البارود ومظلة أنيقة . ومقابل هذا تسلم رغيفين من الخبر الأسرى من فرن السلطان الخاص ، دلالة على الأخوة ، وبالإضافة إلى ذلك يذكر لنا أن السلطان قد استقطع له بعض الأراضي الكبيرة التي درت عليه أموالاً مكتنته من العيش حسياً يليق بمنزلته ، كذلك بعث له بسيدين ثيبيتين من جواريه .

بعد مرور عامين [على إقامته في المغرب] ، بدأ علي بك رحلته إلى الحج ، وفي طريقه مر بطرابلس حيث توسل حاكمها إليه بالبقاء معه وفي قبرص ت سابق البطارقة لملاقاته والترحيب به ، وفي القاهرة توقف قليلاً حيث استقبله ، طبعاً ، محمد علي بن نفسه ، وفي ١٥ ديسمبر عام ١٨٠٦ م ، سافر علي بك مع القافلة المتوجه إلى السويس ويذكر لنا أن موكه ضمن القافلة كان يتألف من أربعة عشر جملًا وثلاثة حصن فقط وذلك لأنه ترك معظم متاعه وعدها من خدمه في مصر ، وقد اعتاد اثنان من رجاله أن يسافرا قبله فيسبقانه إلى مكان الاستراحة في الطريق ، لإعداد الطعام .

[ومن مدينة السويس] ركب علي بك سفينة ، ذكرته سفن طرواده القديمة ، وبعد أسبوعين جنحت السفينة خلال الليل ويقول علي بك : «لقد ظننا كلنا بأننا في

إجراء بعض الاكتشافات في القارة ، بالذهب جنوباً عبر [جبال] الأطلس ، وبعد سنة من ذلك مجده كما مر بنا ، قد بدأ رحلته متذكرة تماماً في الزي العربي ، ومزوداً بمال وافر ، وكان يُظن أنه كان يعمل لحساب الحكومة الإسبانية ولكن من المرجح أنه كان يعمل لحساب نابليون الذي كان اهتمامه بالعالم الإسلامي معروفاً جيداً .

وبعد ، لم يمض وقت طويلاً ، حتى كان نابليون يفكّر في إنتزاع عسكري على الساحل الجزائري ، كذلك هناك دلائل تشير إلى أنه كان يفكّر في إنشاء مستعمرات سكنية أوربية على الساحل الشمالي لأفريقيا للاستفادة من الحبوب فيها لسد حاجة جيشه .

وفي عام ١٨٠٥ م ، وجدت فرنسا نفسها مرة أخرى في حرب مع روسيا [القبيصرية] فانتاشرت سياسة نابليون نحو الشرق الأوسط مرة ثانية فأرسل بعثة إلى إيران وأخرى إلى تركيا وكانت هناك محاولة للحصول على قاعدة في مسقط ، وفي خلال هذا الوقت تقريباً ، غادر علي بك المغرب متوجهاً نحو الشرق ، وكما يتضح تماماً من خلال حديثه عن رحلته ، أنه عمل دراسة مفصلة لموانئ البحر الأحمر ، وإن كان ذلك لا يبرر بالقدر الكافي بذاته وصرفه للأموال التي لابد أنها قد كلفت الجهة التي موّلته كثيراً . إن ذلك يقودنا إلى الاعتقاد بأن علي بك ، كان عميلاً لجهة ما في لعبة كبيرة ، ولكن مازال أمر ذلك كله مجهولاً .

عند رجوعه [إلى أوروبا] قابل علي بك الأمبراطور نابليون عدة مرات وبعد ذلك انتقل إلى خدمة [أخيه] جوزيف بونابرت ، وعندما طرد ويلنجتون Wellington الفرنسيين^(١٨) ، غادر علي بك إسبانيا ليستقر في باريس تحت اسم الجنرال باديا .

وفي عام ١٨١٨ م وبعد مفاوضات طويلة مع الحكومة الفرنسية لضمان مستقبل

(١٨) تم طرد الفرنسيين من إسبانيا بعد ما احتاجتها حيوش الخلفاء بقيادة (المترجم)

ترك علي بك مكة في ٢ مارس عام ١٨٠٧ ، ومن جهة ركب البحر إلى بناء ميناء المدينة ، وقرر هناك أن يترك معظم خدمته ، وارتحل إلى المدينة المقدسة الثانية مصطحبًا معه ثلاثة فقط من خدمته ، ولكنه مثل بيرتون الذي جاء من بعده ، فوجيء في الطريق بهجوم من بعض الجماعات الذين نبهوه وأرغموه على الرجوع ، وخوفاً من اتهامه بالسحر ، فقد تخلى من كل العينات التي كان يحملها معه من حشرات وأزهار وما جمعه من نباتات أو حيوانات متحجرة .

لقد رجع علي بك إلى بناء وركب السفينة إلى مصر ، ولكن بعد سيرها ، جنحت هي الأخرى ، عن الطريق ولكنه وصل إلى البر ، فتركها وشق طريقه خلال صحراء سيناء ، ونظرًا لخطورة هذه الرحلة ، فقد أخذ معه عشرة حراس من الجنود الأتراك يساندهم خمسون آخرًا وعدد من البدو المسلمين . ولم يمكث علي بك طويلاً في القاهرة بل غادرها برأى إلى أوروبا ، وزار في طريقه مسجد عمر في القدس ، ثالث المباني المقدسة في الإسلام ، ولذلك فهو محروم على النصارى مثل مكة^(١٧) . وقد انتهى علي بك من وصف رحلته ، وهو في رومانيا ، في ديسمبر عام ١٨٠٧ ، وبصورة مفاجئة كما بدأها .

من هو علي بك العباس؟

لم يشر علي بك في كتابه مطلقاً إلى أنه لم يكن غير تلك الشخصية التي ادعاه ، ولكن من هو علي بك؟ إنه شخص من مقاطعة قطلونيا [إسبانيا] ، وإسمه دمنجو باديا لا بلخ Domingo Badia y Leblich ولتكن تبقى أشياء كثيرة غامضة ، فهو يدل على أنه ولد في مدينة برشلونة عام ١٧٦٦ تقريباً ودرس اللغة العربية والعلوم في مدينة بلنسية . وفي عام ١٨٠٢ م ، زار لندن والتقي بأعضاء الجمعية الأفريقية وبحث معهم إمكانية

(١٧) تشير التراسات إلى أن مسجد عمر رضي الله عنه يقع في الموضع المعروف بمغارب عمر بصدر المسجد الأقصى الحالي (يوسف : ص ١٠٣ - ١٠٤) أما عن مسألة تحريره على النصارى ، فقد ورد في تاريhi ابن تيمية (ص ١٤ - ١٥) بعدم ما يدل على أنه حرم مثل مكة (المترجم) .

نيور وأصحابه

في عام ١٧٤٦م اعتلى عرش الدنمارك فريديريك الخامس ، وكان محباً للعلم والأدب والفنون ، وقد زين عاصمتها بساحة أمالينبورج الجميلة ، وأنشأ الكنيسة الرخامية وأسس الأكاديمية الملكية للفنون ، والحدائق التجريبية للنباتات ، والمصنع الملكي للخزف . إن هذه الاهتمامات الحضارية وسط قارة كانت قد مزقتها الحروب والمشاحنات ، دفعت العلماء والباحثين للاتصال به على أمل الحصول على مساعدة مالية لمشاريعهم ، حيث إنه كان يتوجب على الباحثين آنذاك أن يقضوا جل وقتهم في جمع المال للقيام ببحوثهم ومن بين هؤلاء العلماء أستاذ مشهور في أوروبا إسمه جوهان ميخائيليس J. Michaelis من [جامعة] جوت ingen ، وهو رجل عالمة ولكن الدراسات السامية تأتي في مقدمة اهتماماته ، وهو من الأوائل الذين اعتقدوا بأن فهم الكتاب المقدس وإدراكه لا يتم كلياً إلا بعد دراسة وفهم البيئة التي نشأ فيها . لهذا فمن الواجب دراسة القبائل الساكنة في تلك المنطقة والتي لا زالت تختلف بالعادات والتقاليد القديمة الموروثة عن شعوب وقبائل ذُكرت في الكتاب المقدس .

وقد كشفت الخرائط المنشورة في ذلك الوقت ، خاصة خريطة دي أندل (نشرت عام ١٧٥٥م) عن جهل الأوربيين بجغرافية الجزيرة العربية ، فيما وراء المناطق الساحلية ، ولذلك اقترح ميخائيليس في عام ١٧٥٦م على الملك فريديريك إرسالبعثة استكشافية للمناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية ، وبذلك سيحصل على شهرة واسعة . ولكن المشكلة هي أنه لم يكن هناك آنذاك أي شخص مؤهل مثل هذه المهمة ، فما كان منهم إلا أن اختاروا فريقاً من الرجال وبدأوا في تدريبهم على المهمة . ولم تكتمل تلك التحضيرات إلا في يناير من عام ١٧٦١ حيث وقع اختيار على ستة رجال بدأوا رحلتهم بحراً من مدينة كوبنهاغن وكان كل أعضاء البعثة من الشباب ، فأكبرهم لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وأصغرهم كان في الثامنة والعشرين وكانت على معرفة بسيطة جداً بعضهم .

عائلته ، قام صاحبنا برحلة أخرى . وكانت خطته أن يذهب إلى مكة ، ويرجع منها مع قافلة الحجاج المتوجهة إلى أفريقيا مروراً بالحبشة ودارفور ، وكان أمله أن يكتشف بحر نجريشيا الواقع شرق مدينة تمبكتو ويتنبئ في السنغال . غير أنه توفي في أغسطس من عام ١٨١٨م في مدينة دمشق بعد إصابته بالزحار فيما يعتقد وهو مرض الديزنتنطريا . هنا مع العلم أن المصادر الفرنسية قد اهتمت دوائر التجسس البريطانية بتسميمه ، وقد قيل إنه وجد عليه صليب كان قد أخفاه تحت قميصه .

إنه من غير المحتمل معرفة كل شيء عن هذا الرجل الغامض ، غير أنه لا يمكن تجاهل أهميته كرحلة ، فقد كانت مساهمته كبيرة في تقديم المعرفة عن جزءين كبيرين منفصلين من العالم العربي ، مع أنه كان من الصعب على رحلة في مثل حالته من التذكر ، أن يتمكن من ملاحظة أشياء كثيرة .

إن من الصعوبة يمكن أن يتصور إنسان ما ، ثلاثة من الرجال يتباينون فيما بينهم أكثر مما يتباين هؤلاء الذين حاولنا وصف مغامراتهم في هذا الفصل إلا أن هناك شيئاً واحداً يجمع بينهم : وهو أن كل واحد منهم ، مثل عصره . فنجد عند فارثاما روح الفضول وحب التعرف على العالم الذي كان معظمها جديداً ومشوّقاً . بينما نجد بتس يؤمن باعتقاد راسخ بأن الأنجلiz وحدهم هم ذوو الأخلاق النبيلة ، أما على يد فراسلوه المنظم وبمعرفته العلمية واللغوية يقف وحده كرجل يُمثل العالم الحديث .

الندر نيبور من عائلة فقيرة تمنه الفلاح بمقاطعة فريسلاند ، ولم يحصل على أي تعليم منتظم حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره . وها هو الآن في الثامنة والعشرين من عمره ومؤهل كمساح ، ولقد تولع بحب الرياضيات والهندسة ، وتعلم قليلاً من العربية تحت إشراف ميخائيليس . وعين برتبة ملازم في الجيش الدنماركي . وكان نيبور أقل أعضاء البعثة تأهيلاً في المجال العلمي ، ولكن الظروف أثبتت أنه أكثرهم عقلانية وأكثرهم تحمساً لعمله ، وأقدرهم على تحمل المصاعب .

لقد مضت ثمانية عشر شهراً قبل أن تطا أقدامهم التراب العربي وقد كانت هناك عواصف مخيفة في الشهرين الأولين من حملتهم وقطعت سيفتهم مخللها ٢٨٠٠ ميل ، مع أنها كثيراً ما مارجعت إلى الوراء . إن المجال هنا لا يتسع لذكر كل تفاصيل الرحلة التي تخللتها حوادث كبيرة كالرعب الذي لم يهم عندما ألقوا أول نظرة على أحد الأتراك ، وكالمشاحنات العنيفة بين أعضاء البعثة حتى إنهم اتهموا فون هافن بأنه حاول دس السم لهم ، وعن السنة التي قضوها في مصر وقاموا خاللها بمختلف المهام الملقاة عليهم ، وقد اكتشف فورسكال أنواعاً جديدة من النباتات وتعرض لهب وسلب من البدو والذين - على غير ما عرف عنهم من اللطافة - تركوا له سراوه الداخلي ، وقام نيبور بنسخ فرع الرشيد من نهر النيل ، ورسم خريطة صحيحة للموقع التي مسحها وتوصل لمعرفة ارتفاع الأهرامات . وقام كل من هافن ونيبور بزيارة سيناء وكان هذا الأخير من أوائل من نسخ التقوش المصرية الهiroغليفية .

ومن ميناء السويس استقلوا البحر ، وكانت الملاحة في البحر الأحمر دائماً صعبة ، بسبب الصخور المرجانية ، وتقلب التيارات ، وقد تم التغلب على الأخطار بصعوبة ، لأن ربان سفينتهم اليوناني ادعى أنه لا يستطيع تمييز العالم حتى يشحد بصره بتناول كأس من البراندي بين حين وآخر ، وأخيراً وصلوا إلى جدة دون حدوث كارثة

وحملت البعثة معها تعليمات من الملك كان قد نسخها ميخائيليس ، ومن هذه التعليمات ، أن يجلسوا مع بعضهم ، وأن يحتفظ كل واحد منهم بدفتر لندوين اليوميات ، وحدروا بصفة خاصة من إقامة علاقات عاطفية مع نساء البلد ، ولفت نظرهم إلى أن حرية الممارسة مع الجنس اللطيف ، أمر مألوف في أوروبا ، غير أنها في الجزيرة العربية ، قد تؤدي إلى انتقام عنيف ، ويجب عليهم أن يكونوا سواسية ، وأن يساند بعضهم بعضاً ، وأن لا يحاول أي منهم التأمر على الآخرين ، وأن يسود التعاون فيما بينهم ، وللأسف كان هذا من باب التقني .

وقد أخذت البعثة معها عدداً كبيراً من الأسئلة كتبها ميخائيليس في ٢٣٥ صفحة ، كانت معظمها أسئلة لغوية تتعلق بالكتاب المقدس ، وقد طلب منهم بصفة خاصة بحث حركة المد والجزر في البحر الأحمر ودراساتها (أعطي لهذا السؤال أهمية كبيرة لصلة بحملة هروببني إسرائيل من مصر) ، وهناك أسئلة تتعلق بعلم الحيوان ، عن الأسماك الطائرة والزحاف الحنفي والجراد والقرآن الصحراوية ، مع أسئلة طيبة عن مرض الفيال^(١٩) وعن الجنادم وعن أهمية الحنف ، وكانت هناك أسئلة تتعلق بعلم الاجتماع : عن البصاق وعن إثبات البكارية ، كما طلب منهم كتابة تقرير عن حورية الماء^(٢٠) وعن العسل البري وعن شكل الحيام ، ولا بد أن ميخائيليس انتظر بشوق للحصول على الكمية الهائلة من المعلومات والتي ستشتت نجاح البعثة .

لقد اختير أعضاء البعثة على أساس خبراتهم المتعددة التي يحتاجها هذا المشروع الكبير فكان اثنان منهم من الدنمارك : فون هافن Von Haven وهو لفوي ، وكرستيان كرامر Kramer وهو طبيب ، وإثنان من السويد : بيتر فورسكال Forsskal وهو عالم في الطبيعة والأحياء وتلميذ لعالم النبات الشهير لينابوس ، وبيرجرن Berggren وهو جندي قوي البنية ليكون خادماً للبعثة ، وإثنان مولودان في ألمانيا وهما : جورج باورنفابند

(١٩) الفيال : تضخم هائل في عضو ما من الجسد (المترجم) .

(٢٠) حلقة بحرية خرافية لها جسد امرأة وذيل سمكة (المترجم) .

ومكثوا فيها ستة أشهر ، وكالعادة فقد انبرى نبيور لتسجيل الأشياء التي تهمه ، وقد قائلًا : إنه ليس من عادته أن يحمل مثل هذه الكائنات وكلف أحد الموظفين ليتعامل معه لاحظ أن الناس يصيدون البط بوضع باقة من نباتات بحرية على رؤوسهم ثم يسبحون في وحسن الحظ تمكّن المسؤول من احتواء الموقف . لقد وجد فورسكال نفسه غير قادر اتجاه تجمع تلك الطيور . كذلك فإنه شاهد سارقاً قبض عليه بطريقة سحرية ، حيث على دراسة النباتات واللصوص في آن واحد وقال بأنه يستطيع جمع النباتات ودراستها أعطى لكل المتهمن قطعة من الورق ليضعوها في أفواههم ، وأخبروا أنه باستطاعتهم بحرية مثل أوربا . وقد تحول نبيور في القرى اليمنية ، وببدأ برسم خارطة اليمن ، والتي ابتلاعها بسهولة ، إلا السارق فإنه سيجد صعوبة في ذلك ، وقد ثبت صحة ذلك . بقيت لمدة قرن من الزمن ، أفضل خارطة موجودة لليمن .

قررت البعنة ، كما ذكر نبيور في مذكراته أن تعجب ما أمكن ، التعرض للخطر

في رحلتها في اليمن مثل أي بلد آخر في العالم ، لذا فقد تخلىت عن زيارة مدينة مخا ، عن طريق البحر ، كما كان مقرراً في الخطة ولكنهم فقط بعثوا بكل أمتعتهم الثقيلة ومنها العينات التي جمعوها ، بينما هم سلكوا الطريق البري على ظهور الحمير ، ووصلوا مدينة بيت الفقيه في مارس عام ١٧٦٣ م حيث اخنوها مركزاً لهم ، وبقوا فيها حتى شهر أبريل .

إستمر نبيور في عمله لإعداد الخارطة ، فقد استأجر حماراً وارتحل مع صاحب الحمار الذي اتخذه خادماً له « ... [وفي رحلتي هذه أخذت] مقطعاً كبيراً يعطي ذراعي ، وقمصياً وسروالاً من الكتان ونعلًا ، هذه كل ملابسي وقد حملت معه سيفاً ومسدسين علقهما في حزامي على عادة أهل هذه البلاد ، الذين يحملون السلاح أثناء سفرهم ، وأخذت معه قطعة سجادة قديمة ، استعملها كسرج على الحمار ، وأجلس عليها عند خلوهي للراحة ، وطاولة وأغراضًا أخرى متنوعة ، ولكي التحف في الليل أخذت معه قطعة من القماش ، يلفها الناس هنا حول أكتافهم وقاية لهم من المطر وحر الشمس ، وسطلاً للماء علقته على السرج وهو ضروري لكل مسافر في تلك المناطق الجافة» . وقد عاش نبيور مثل أي مواطن هناك حيث عود نفسه على أكل الخبز الخشن ، وهو الطعام الوحيد المتوفر تقريباً على طول الطريق ، وخلال بعض تلك الجولات كان باورنفايد يقوم برسم المناطق الواقعة على الطريق وكذلك السكان القاطنين بها .

لقد تغير الأهالي من النشاطات التي يقوم بها هؤلاء الغرباء ، فالرغم من أن بيت الفقيه مركز لتجارة اليمن ، وسيق أن شهدت الأوربيين من قبل إلا أن هذه الجماعة تختلف عن غيرها ، فلا ييلو عليها أنها من التجار ، واعتتقد بعض الناس أنهم من السحرة

لم تستطع البعثة السفر إلى داخل الجزيرة العربية لأن ذلك سيؤدي إلى اقتراحهم من مكة ، فأخذوا سفينة عمانية تُستعمل عادة لنقل البُلْن ، وقد ذكر نبيور أن تلك السفينة هي أشبه بالبرميل منها بالسفينة ، وأن ربّانها لم يرتد سوى إزار بسيط ، وأن بقية الملحقين يلبسون أقل من ذلك ، وهكذا بعد عامين من مغادرتهم الدنمارك خطوا راحلهم في اللحية ، وفي ٢٩ ديسمبر عام ١٧٦٢ م بدأوا رحلتهم في أرض اليمن السعيد .

لقد أعجبتهم اليمن كثيراً وأيدوا تسميتها بالأرض السعيدة . ومنذ اللحظة الأولى من وصولهم قوبلوا بالترحيب ووجدوا أن حاكم المدينة كان عبداً ملوكاً في السابق إلا أنهم وجدوه رجلاً ذو أخلاق نبيلة حقاً وأنه إنسان صادق ، شهم ، مخلص في صداقته ، وإذا كان هذا الحاكم يشعر بعدم الارتياب للوصول المفاجيء ، وبدون دعوة ، بهذه المجموعة من الأساتذة الأكاديميين ، فإنه لم يظهر أبداً علامات للدهشة ، بل على العكس ، فقد بعث لهم طعاماً وشراباً ، واستبعد بدفع كل مصاريفهم ، وكانت علاقة البعثة مع الحاكم علاقة اجتماعية طيبة . فعندما تركوا اللحية أهدوه ساعةً يقوم بتعقبها له يومياً رجل كان قد سافر إلى مصر .

ولاحظ نبيور أن طبائع الناس تختلف عما هي عليه في مصر ، وقال عن أهل اللحية إنهم أناس أذكياء ، كرماء وذوق أخلاق عالية . بقيت العلاقات طبيعية بين البعثة والأهالي حتى بعد الحادثة التي سببها فورسكال ، والذي كان يفتقر إلى اللباقة ، فلقد سأل فورسكال مسؤول الجمارك أن يزوده بمقملة كي يجرِب مجهره ، فأجابه المسئول

كان الوالي يحاول إعادتهم إلى مخا .

وفي خلال تلك الفترة ، أخذت صحة فورسكال في التدهور وحينها أصبح نبور المسؤول الأول عن البعثة ، وبينما كانوا متوجهين نحو الشمال توفي فورسكال في الحادي عشر من شهر يوليو في مدينة يريم ، وبعد خمسة أيام من ذلك وصلت البعثة إلى صنعاء ، حيث إن استقبالهم نادراً ما كان كريماً ، وبعد فترة وجيزة من وصولهم استقبلهم الإمام في ديوانه العام^(٢١) ويقول نبور إنه وجد الأمير جالساً بين الوسائل ، واضعاً رجلاً على رجل ، حسب الطريقة الشرقية وعلى جانبيه جلس اخوته وأولاده وكان مرتدياً لباساً أحضر خيوطه من الذهب ، وعامة كبيرة بيضاء ، وعندما دخل الضيوف ، صاح الحاضرون : «حفظ الله الإمام» ، ومد الإمام يده بلباقة ، لقيتها . وقد رحب الإمام بهم وبعث لهم فيما بعد بمال وغنم وكسوة دليلاً على الحفاوة والتكريم .

وقد وصف نبور صناعة وكأنها فردوس ، بأسوقها التجارية الغنية بالبضائع الأوروبية والهنديّة ، وبمبانيها الجميلة حقاً سواء العامة منها أو الخاصة . وقد رحب الإمام ببقائهم فيها لمدة سنة ، وعلى نفقة الخاصة ، ولكنهم كانوا خائفين ، فقد توفي إثنان من رفاقهم ويبعدوا أنهم أحسوا بنفس المرض ، وإذا ماتوا في اليمن ، فلن يعرف أحد في أوروبا عن نتائج مجدهم وسيعد ذلك فشلاً ذريعاً للبعثة .

مكث أفراد البعثة في صنعاء مدة عشرة أيام فقط ثم غادروها إلى مخا آملين أن يلحقوا بسفينة بريطانية كانت في طريقها إلى الهند وكانت رحلتهم إلى مخا شاقة جداً ، فقد شعر جميعهم بالمرض وكان عليهم أن يهدوا جزءاً من الطريق الذي سلكوه ، وعند وصولهم إلى مخا وجدوا السفن قد غادرت ، ولكن لحسن حظهم رست سفينة أخرى بعد أسبوعين ، وحينها استقلوها كان نبور الوحيد الذي كان قادرًا على الصعود إليها بنفسه ، أما الباقون ، فقد حملوا إليها ، وقبل وصولهم إلى الهند توفي كل من باورنفايند

(٢١) هو الإمام العباس بن الحسين بن القاسم ولقبه الم Heidi ، ولد عام ١١٣١هـ وتوفي عام ١١٨٩هـ (الواسعى ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥) - المترجم .

أو ربما من الذين يعملون لكسب المال ، لأن فورسكال يبحث عن الأعشاب ، ويعمل نبور عدداً من التجارب في علم الفلك ، وقد ظن مرة أنها من رجال الدين الأتراك ، وقصدهما النساء للتبرك بهما وكانت المشكّلة الوحيدة التي يعاني منها أغليهم ، في هذه الفترة السعيدة ، هي البرد أو الحمى ، حتى إن الطبيب كرامر لم يكن يعرف حينذاك أن اليمن السعيد واحد من أكثر الأماكن التي تنتشر بها الملاريا ، في العالم .

وفي نهاية شهر أبريل تحركت البعثة إلى مدينة مخا ، وهناك حصلت لهم أول حادثة عكّرت صفو رحلتهم في اليمن ، بسبب مكيدة دبرها لهم صديق منافق ، ففي دائرة الجمارك أصر الموظفون على فتح قنبلة كانت تحتوي على بعض العينات وكانت العينة ، عبارة عن سمكة لم يحفظها فورسكال بطريقة حسنة ، فاخترجت رائحة كريهة ، اضطررت الموظفين إلى الهرب وعندما عادوا بعد أصبح ذلك ممكناً وجدوا في تحفتهم مواد أخرى وهي ثعابين حفظت بمادة الكحول بداخل توابير ، فأصبح الأمر واضحاً بأن هؤلاء النصارى قد جاءوا لتسبيح الأهالي المسلمين ، وثار الغضب ضدهم ، فرميت أمتعتهم خارج البيت الذي استأجروه وأمرروا بمعادرة المدينة فوراً ، ولكن بوساطة تقديم رشوة للوالى التركى وبمساعدة بعض التجار الانجليز المقيمين هناك ، سمح لهم بالبقاء ، وفي الخامس والعشرين من مايو ، توفي فون هافن في مدينة مخا ، متاثراً بمرض الملاريا .

وبعد أيام من دفنه ، اتجهت البعثة إلى مدينة تعز ، أكبر مدينة في جنوب اليمن ، ولحسن الحظ أن الوالي كان قد سجن مؤخراً تاجراً معروفاً ، فأصبحت الفرصة مهيئة للوالى لإإنزال هؤلاء الضيوف ، الذين فاجأوه بزيارتهم ، في بيت هذا التاجر . وقد بقوا في تعز لمدة أسبوعين ، وواصلوا كالعادة جولتهم ، ومن خلال استفساراتهم عن الاشياء الغربية هناك ، سمع نبور حكاية طريفة مفادها ، أن رجلاً صالحًا اسمه إسماعيل ملك كان قد اشتهر بكرمه ، وبعد وفاته زار شحاذ قبره ، واتسّ منه هبة سخية ، فخرجت يد من القبر بخطاب إلى الوالي تطلب منه أن يدفع لحامليها مائة كراون [٥٠٠ شلن] ، فأخذها الرجل ، وذهب بها إلى الوالي الذي نفذ الأمر ، ولكنه بنى سوراً حول القبر يمنع تكرار ذلك ، وقد أبدى الوالي ، فيما بعد ، نفس اللوم في تعامله مع البعثة ، واشتدت المشاحنات بين الطرفين ، وذلك لأنهم أغربوا عن رغبتهم في الذهاب إلى صنعاء ، بينما

Description of Arabia كل مكتشفاتهم ، وكتب مجهوداته التي قام بها هو تحت عنوان «Arabia» وصف الجزيرة العربية» وقد أبرز نبيور في هذا الكتاب الجهد العلمي الذي قام به فورسكال متضمناً الرسومات التي رسمها باورنفايند . وقد تحتاج إلى جهد ، وسعة خيال لتدبر الجهود التي حققها نبيور ، وذلك لأن كثيراً منها أصبح الآن شيئاً مأولاً ، فكلنا نعرف اليوم كيف يلبس البدوي وكيف يأكل ، وكلنا نتفق معه في رأيه : أنه إذا كان هناك شعب في العالم له أمجاد تاريخية قديمة وعلى قدر كبير من البساطة ، فالعرب هم الذين يتصفون بذلك . وبالعيش معهم ، فإن الواحد منا لا يستطيع أن يتخيّل نفسه أنه انتقل فجأة من مجتمع متقدم إلى مجتمعات العصور القديمة التي أعقبت الطرفان . إننا هنا نجد أنفسنا نسجدين نحو تخيل أنفسنا بين أولئك الشيوخ الذين استمتعنا بمعمارتهم ونحن صغار ، فاللغة التي استخدمت منذ غابر العصور والتي تشبه تقريباً تلك التي تعودنا أن نعتبرها عريقة في القدم تكمل الصورة التي نتخيلها ، ومرة أخرى عندما نقرأ كتاب نبيور ، نكاد لا نجد شيئاً لا نعرفه اليوم ، ولكننا يجب أن نتذكر أن المعلومات التي جاء بها [قبل مائتي عام] ، كانت الأولى من نوعها في أوروبا . وكل الرحالة الذين جاءوا بعده اعترفوا بحقه عليهم ، وقلما وجدهو مخططاً .

كان وصف نبيور حالياً تقريباً من الأهواء الشخصية ، فهو عبارة عن تقرير رسمي التزم فيه الجانب العلمي والفلسفـي ، إضافة إلى توخيه الدقة والخبرـ، كما أنه لم يتحـلـ شخصيات أخرى مثل أولئك الذين دخلوا مكة أو الذين تجولوا مع البدو وهم متـكـرون ، ولكن مع هذا فإن من ساهم منهم في دراسة الجزيرة العربية ، عدد قليل .

ليس هناك ما يستحق ذكره عن حياة نبيور ، بعد رجوعه إلى الدنمارك ، فقد تزوج واشتغل كاتباً للمجلس البلدي في مدينة نائية ، بعد ذلك اشتري حفلاً زراعياً ، واستقر به حتى جاءته المنية في عام ١٨١٥ م ، وكان عمره آنذاك في الثانية والثمانين .

وبирجن ، وبعده ببضعة أشهر توفي الطبيب كارمر في بومباي ، أما نبيور فالبالغ من إصابته بالملاريا إلا أنه بقي حياً .

وفي ديسمبر ١٧٦٤ غادر نبيور إلى وطنه ، وفي طريقه زار مدينة برسبيولس Persepolis في إيران ، فكان أول من أعطى وصفاً مفصلاً لآثارها ، التي يظن أنها مثيرة للإعجاب أكثر من الأهرامات ، كما أصبح أول من نسخ نقشاً مسمارياً طويلاً ، وأصبحت نصوص نبيور ، أول نصوص أشورية قديمة ، يتم فك رموزها ، وبوصوله إلى البصرة في أواخر صيف ١٧٦٥ م ، كان قد عمل خارطة قيمة للخليج .

واستمر نبيور في سفره ، وفي الطريق إلى الموصل أصبح أول أوربي يزور مدينة النجف ، حيث يوجد ضريح علي [رضي الله عنه] ، زوج ابنة الرسول عليهما السلام ؛ وأجرى نبيور تغييرات بسيطة على معداته التي كانت معه في اليمن وكان الجديد فيها هو فقط قربة فيها بعض الخمر من البراندي ليخلطه مع الماء الكريه في أغلب الأحيان ، وغليوناً حصل عليه حينها كان في إيران . وفي الحادي عشر من أبريل ١٧٦٦ م [إنضم نبيور إلى] قافلة كبيرة تجمعت خارج مدينة الموصل ، مؤلفة من أكثر من ألف وخمسمائة بعير وأربعمائة مسافر ومائة وخمسين جندياً لحراستها ، وكانت القافلة محملة بالحرير والجوز ، الذي تستورده أوروبا عن طريق مدينة حلب . وفي السادس من شهر يونيو وصل نبيور إلى حلب ، وعلى نحو مميز بدأ أبحاثه هناك ، في مواضع مختلفة وأقام في سوريا بعض الوقت رسم خلاها أول خارطة صحيحة للقدس . وبعد سنة من ذلك غادر القسطنطينية ، وهي المرحلة الأخيرة من رحلته حيث وصل إلى كوبنهاجن في شهر نوفمبر ١٧٦٧ م ، فوجـدـ أنـ الملكـ فـرـديـركـ قدـ مـاتـ ، وأنـ المـلـكـ الجـدـيدـ لمـ تـكنـ عـنـهـ الرـغـبةـ فيـ مـتـابـعـةـ أـعـمـالـ الـبـعـثـةـ ، وـقـدـ شـارـكـهـ فيـ مـثـلـ ذـلـكـ مـنـ عـدـمـ الـاـهـتمـامـ ؛ـ النـاسـ الـعـامـةـ وـالـمـعـلـمـينـ عـلـىـ سـوـاءـ .

وقد اعتبر نبيور نفسه الوريث الوحيد لزملاه من أعضاء البعثة فبذل جهده لنشر

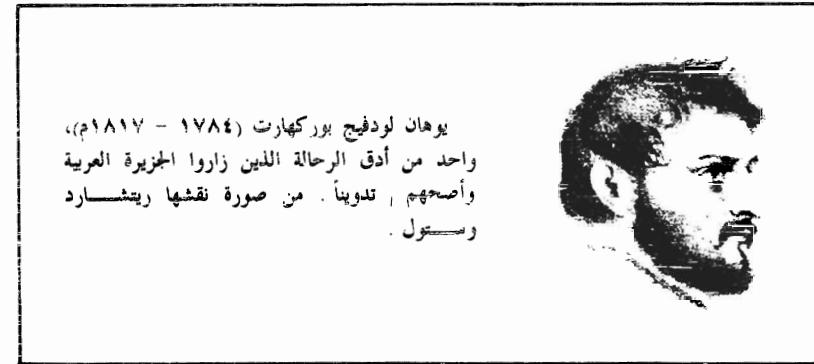
١٧٨٤ م من أب سويسري كان يعمل ضابطاً برتبة عقيد ، وقد اضطر إلى الهرب من بلدته عندما اجتاحتها الجيوش الفرنسية . درس بوركهارت في ألمانيا قبل مجده إلى بريطانيا ، حيث التقى بالسير جوزيف بانكس Joseph Banks عضو الجمعية الأفريقية التي مؤلت عدداً من العثاث الاستكشافية إلى منطقة النيجر ، والتي انتهت كلها بهلاك المكتشفين ، وعرض بوركهارت خدماته على الجمعية الأفريقية ، على أن يحاول الوصول إلى تمبكتو ، مع فافلة الحجج كانت في طريق عودتها من مكة ، وتم الاتفاق بينه وبين الجمعية ، وكانت أجترته جنحياً في اليوم .

بدأ بوركهارت يهبأ للمرحلة ، فذهب إلى جامعة كمبردج وهناك درس اللغة العربية والطب والفلك وعلوماً أخرى ، وبدأ يطلق لحيته وقام بممارسة الأمور القاسية ، كالنوم على الأرض ، والمشي لمسافات طويلة ، واعتماده في طعامه على أكل الخضار . وبعد ستة واحدة سافر إلى مالطة متذمراً في زي طبيب هندي . وعندما طلب منه مرة أن يقول شيئاً باللغة الهندستانية ، قال بعض الكلام بلغته الألمانية - السويسرية ، فصدقه السائلون على أنه تكلم بلسان بربيري .

لقد قضى بوركهارت ستين في حلب حسن خلاها معرفته باللغة العربية ، ميرهناً على قدرته بترجمة قصة روبنسون كروزو Robinson Crusoe إلى اللغة العربية . بالإضافة إلى ذلك ، فقد درس العلوم الإسلامية بنفس المستوى ، وبدأ يتعاطف مع هذه العقيدة حتى إنه أسلم رسبياً . إن معرفته بالعلوم الإسلامية ، كانت واسعة جداً وكثيراً ما استشاره علماء البلد هناك ، حتى إن قاضي مكة ذكر عنه أنه ليس مسلماً فحسب وإنما هو عالم حقاً وعن طريق الصدفة اكتشف بوركهارت أول نقش حيي معروف .

وفي خلال هذه الفترة كان بوركهارت كثيراً ما يتجول مع البدو ، وخصوصاً مع قبيلة عنزة ، واستطاع أن يصل إلى تدمر وإلى نهر الفرات ، وقد نشر نتائج أحاجيه التي تضمنت دراسة عن البدو الرحل تكاد تكون الأولى من نوعها في علم

بوركهارت



يوهان لودفيج بوركهارت (١٧٨٤ - ١٨١٧)
واحد من أدق الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية وأصحهم ، تدويناً . من صورة نقشها ريتشارد رسنول .

إننا لا نستطيع القول إن يوهان لودفيج بوركهارت Burkhardt كان حقاً رحالة في الجزيرة العربية ، إذ كان أمله الوحيد ، هو الوصول إلى تمبكتو ، ومنابع نهر النيجر . وفي أثناء رحلته تلك ، اكتشف شيئاً مهماً في الشرق الأوسط ما زالا محظوظاً أنظار السائحين : مدينة البتراء ، ومعبد أبو سنبل ، بالإضافة إلى أنه عاش ستة أشهر في مكة . ولكنه لم يخرج مطلقاً عن نطاق الألفي ميل التي كانت ضمن خطبه الأصلية .

إنه من الصعب الكتابة عن بوركهارت في كتاب كهذا ، فقد كان الرجل مهتماً بحرفة الاستكشاف إذ عمل مخططاً ومنهاجاً كاملاً لكل رحلاته ، لذلك نجد ما ذكره في كتابه خالياً من روح المغامرة ، حيث لم يجد صعوبات كبيرة في رحلته ، ماعدا سوء صحته . وبالرغم من أن كتاباته تكاد تكون مُمولةً وخالية من التشويق (هذا مع العلم أنه كتب كتابه بلغة تعتبر أجنبية بالنسبة له) إلا أنها مع ذلك تعتبر معلومات أساسية عن المناطق التي زارها .

كان بوركهارت رجلاً سمحاً ، حكيناً ، جاداً في عمله وفاناً بارعاً . ولد في عام

وفي فبراير من عام ١٨١٢م شعر بور كهارت أنه قد آن الأوان لأن يبدأ في القيام بالمرحلة الثانية من رحلته إلى النيجر ، فسافر على ملهه إلى جنوب سوريا في طريقه إلى القاهرة التي وصلها في سبتمبر ولكنه على أية حال لم يجد قافلة تستعد للسفر إلى غرب أفريقيا ، قبل حلول شهر يونيو ، لذلك فقد قرر أن ينحدر مع النيل حتى منطقة التوبة ، ومن هناك كان يأمل أن يجد طريقاً إلى غرب القارة ، وإذا فشل في محاولته هذه فباستطاعته الرجوع إلى القاهرة في الوقت المناسب [لإنضمام إلى القافلة الآتية الذكر] .

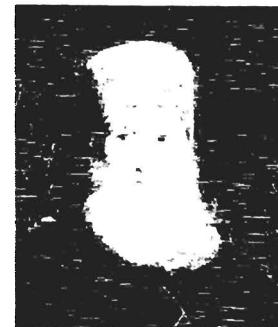
وعلى كل حال ، فإن رحلة كهذه ستتمكنه من أن يصل إلى مناطق جديدة لم تُكتشف من قبل ، إذ لم يصل أي شخص أوربي إلى المناطق الجنوبية لأسوان ، وقد استطاع بور كهارت أن يصل إلى مسافة مائتي ميل جنوب أسوان ، وأن يكتشف معبد أبو سنبل ، وقد واجه مشاكل من الحكام المحليين المستبددين عادة والسكارى في بعض الأحيان ، والظاهر أنه لم يستطع الاستمرار في سيره نحو الجنوب ولا نحو الغرب ، فعبر النيل على ظهر مركب متقلقل وقرر أن يعود أدراجه ، وفي أسيوط علم أنه ليس هناك أي أمل قريب في الذهاب إلى غرب أفريقيا لذلك قرر أن يزيد من فرص نجاحه لتحقيق هذا المهدف ، بالحصول على لقب « حاج » والذي سيخدمه خلال تنقله في البلدان الإسلامية الشاسعة ، فانضم إلى قافلة حجج تألفت من نوبين وسودانيين وجهتها مكة ، ويقول إنه ارتدى في تلك الرحلة ثوباً وعباءة وسر والأ وقلنسوة ملفوفاً حولها بكماش ، واحتذى نعالاً وأخذ معه دفترين للملاحظات وقلم رصاص وسكنية جيب وبوصلة وكيساً من التبغ وحجر قداحه من الصوان وخمسين دولاراً إسبانياً وقطعتين نقديتين من الذهب ، خيطاً عليهما في حجاب ، أما بالنسبة إلى السلاح ، فقد أخذ معه بندقية ومسدساً وعصا ذات رأس حديدي ، ولتحمي نفسه أكثر ، فقد أخذ معه خطاباً من باشا مصر ؛ محمد علي على أنه الشيخ إبراهيم بن عبدالله الشامي .

واستعداداً لرحلته عبر الصحراء ، والتي سيقطع فيها مسافة ١٢٠٠ ميل وتذوم لمدة أربعة أشهر ، فقد أخذ معه أربعين رطلاً من الطحين ، وعشرين رطلاً من البسكويت ، وخمسة عشر رطلاً من التمر ، وعشرة أرطال من العدس ، وستة أرطال من

الأنثروبولوجيا ، وعن هذه الفترة كتب يقول : لقد قضيت بين البدو بعضاً من أسعد الأيام في حياتي ، ولكن قضيت بينهم أيضاً ، بعضاً من أضجر الأوقات وأكثرها ملا ، عندما يضيق صدري وأنا جالس طوال النهار ، أراقب قرص الشمس من شروقها إلى غروبها يخترق الخيمة حيث كنت أعرف أنه سيكون في المساء ، بعضاً من الغناء والرقص ، الذي يخلصني من رفاق لعبة الداما .

لقد ظهرت في تلك الفترة ، مشاهدات غريبة عن : «كيف تسرق جمل؟» وينصحك بور كهارت بمسك ذيل الجمل وعندئذ يعدو بسرعة ويسحبك وراءه ، كما يصف النعامة وتصرفاتها فيقول : « حينما تجلس النعامة على بيضها ، يذهب الذكر إلى أقرب مكان مرتفع لمراقبة موقع العرش ، غير أنه بذلك يثير الانتباه ، وعندما يقترب الصياد من العرش ، تطير النعامة تاركة بيضها وعندئذ يحفر البدوي حفرة ويضع بندقيته فيها ، معه بالذخيرة مع فيل احتراق طويل ويصوّبها نحو العرش وينذهب بعيداً ، وعندما يخلو المكان تعود الطيور وتطلق النار عليها بواسطة التحكم من بعد . ومن المشاهد الجادة التي رواها بور كهارت هي عن طريقة أخذ العهد ، وواجبات الضيافة ، ومفهوم الشرف ، وقد كتب آخرون بعده ولكن بور كهارت فاز عليهم بقصبة السبق .

محمد علي باشا والي مصر . كان أصله جندياً ألبانياً في الجيش العثماني ، ويسكب عصره السياسي وقوته الحالية من الرحمة جعل من نفسه حاكماً ملطاً تزيد على أربعين سنة واستغل سلطته في الإسراع بالتصنيع في الداخل والتوسيع في الخارج . وبناء على طلب السلطان التركي صاحب السلطة العليا عليه قام في عام ١٨١١م بغزو الجزيرة العربية لسعادة الأرضي المقدسة من الراهبين ، وقد كان لطيفاً مع علي بك وبور كهارت ومساعداً لهما . الصورة من متحف تيت جاليري بلندن .



الربدة ، وخمسة أرطال ملح ، وثلاثة أرطال من الأرز ، ورطلين من اللبن ، وأربعة أرطال بنيغ ، ورطلاً واحداً من الفلفل ، وبعضاً من البصل ، وثمانين رطلاً من الدخن لحماره ، كما أخذ معه أيضاً غلدية ماء نحاسية ، وصحناً نحاسياً ، ومحصنة للقهوة ، وهانوا لطحن القهوة ، وفنجانين للقهوة ، وسكيناً وملعقة ، وطاسة خشبية للشرب ولملوء القرب ، وفأساً ، وعشر ياردات من الجبال ، وإبراً وخيوطاً ومخيطاً ، وقيماً احتياطياً ، ومشطاً ، وقطعة ساط ، وقطعة قماش تستخدم كبطانية ، وبعضاً من الأدوية ، وثلاث قرب احتياطية للماء ، كما أخذ معه بعض المواد للمتاجرة بها ، إذ حمل معه عشرين رطلاً من السكر ، وخمسة عشر رطلاً من الصابون ، ورطلين من جوز الطيب ، وإثنى عشر أداة حلاقة ، وفلسوتين حراوتين ، وبضعة درازن من المسابع الخشبية . وقد زادت أمنتنه في مدينة شندي^(٢٢) ، فقد اشتري عبداً بستة عشر دولاراً وقد كان كثير من رفقاء تجارة رفيق .

وقد تقمص بوركهارت شخصية ثري مصرى ضاقت به الحال ، وكتب إلى القاهرة لتزويده بالمال . بالإضافة إلى ذلك ، فإنه كتب إلى محمد علي والذي كان موجوداً في الطائف حينذاك لزيارة حلاته ضد الوهابيين . وبعد فترة قصيرة استلم بوركهارت إذناً للحصول على بعض المال ، وبذلة ملابس ، ودعاة لزيارة محمد علي باشا . لقد مر على بوركهارت أكثر من شهر في مدينة جدة بما فيها أيام مرضه ، كتب خلالها مائة صفحة من الملاحظات الدقيقة ، مع وصف مفصل عن عادات أهلها وتجارتها ، حتى إنه كتب عن العلامات التجارية للتبغ المتوفر في السوق .

وفي الطائف سكن بوركهارت في البيت الذي يسكن فيه الطبيب الأرمني محمد علي باشا واسميه : بصري Bosari ، والذي كان يعرفه في القاهرة ، وفي المساء من يوم وصوله ، استقبله محمد علي وتبادلاً أطراف الحديث عن الشؤون العالمية ، وقد أبدى أمام النساء . وكان بإمكان بوركهارت أن يستقر في شندي مدى الحياة ، إذ عرض عليه الحاكم المحلي ؛ عبداً وجاريتين إذا هو قبل العمل في صناعة الأسلحة أو صيانتها ، وفي السابع من تموز عام ١٨١٤ استقل بوركهارت وعبدة البحر من سواكن ، على البحر الأحمر ، وبعد رحلة دامت لمدة أسبوعين تقريباً بسبب قلة خبرة الملاح ، ووصل إلى جدة سالماً .

وحال وصوله إلى جدة ، وقع بوركهارت مريضاً ، وربما كان مصاباً بالملاريا ، وقد ظن أنه سيموت لو لا أنه تلقى علاجاً بالحجامة على يد حلاق من أهل البلد ، كما وجد نفسه بلا نقود مطلقاً بعد أن رفض التاجر ، أن يدفع له نقوداً موجبة الاعتماد المالي الذي قدمه ، فاضطر آسفاً إلى بيع عبده ، الذي أصبح محباً له للغاية ، بسعر ٤٨

وكان قاضي مكة دائمًا ما يتتردد على مجلس محمد علي باشا ، فتناقش مع بوركهارت في العلوم الدينية وأثبتت بوركهارت معرفة لا يأس بها . وفي بعض الأحيان كانوا يقيمان الصلاة سوية ، ويخبرنا بوركهارت أنه كان يحاول قراءة السور الطويلة التي يحفظها من القرآن ، ولم يستطع بوركهارت أن يتأكد فيما إذا كان محمد علي باشا قد

بقى بوركهارت شهراً واحداً في شندي ، والتي وصفها وصفاً مسهاً وعلى نفط الكاتب جيبيون فإنه ينتقل إلى الكتابة باللاتينية فيما يختص بالمسائل التي يجب أن لا تذكر أمام النساء . وكان بإمكان بوركهارت أن يستقر في شندي مدى الحياة ، إذ عرض عليه الحاكم المحلي ؛ عبداً وجاريتين إذا هو قبل العمل في صناعة الأسلحة أو صيانتها ، وفي السابع من تموز عام ١٨١٤ استقل بوركهارت وعبدة البحر من سواكن ، على البحر الأحمر ، وبعد رحلة دامت لمدة أسبوعين تقريباً بسبب قلة خبرة الملاح ، ووصل إلى جدة سالماً .

(٢٢) تقع شندي على بعد حوالي ١٥٥ كم شمالي خرطوم على الضفة الشرقية لنهر النيل وهي قرية من مدينة مروي الأثرية التي بلغت قمة ازدهارها في تفتوح ما بين القرن الخامس ق.م. - القرن الرابع قبل الميلاد (عن مروي أنظر عبد الله . ص ١٩ . ٢) مترجم

لقد ترك لنا بوركهارت ، وصفاً مسماها لا يضاهى ، عن المسجد الحرام الذي كان يضاء بالآلاف الفوانيس ، التي بدت على نحو باهر على أعمدة المسجد ، في ليالي شهر رمضان الجميلة ، وعن النسم البارد (سيبه ، كـ يعتقد الناس ، رفقة أجنحة سبعين ألف ملك) الذي كان مريحاً للنفس ؛ بعد صيام يوم حار . وقد استأنس بوركهارت بضوضاء تلاميذ المدرسة ، وهم يتلقون دروسهم في المسجد واسترعى انتباذه أن عصا المدرس لا تفتر من الاستعمال .

قام بوركهارت بأداء كل مناسك الحج ، وقد حضر الوقف على جبل عرفات مع كل الحجاج وكتب قائلاً : «خلال هذه الشعيرة التي دامت ثلاثة ساعات شوهد القاضي يمسح باستمرار دموعه بالمنديل ، أما الخطيب والواعظ ومن في منزلتهم فكانوا في موقف الشاعر بالندم وأضاف قائلاً : إنه متى ماجرى الدموع على وجهه فهو دلة على أن الله قد أنار بصيرته وإنه [تعالى] مستعد لسماع دعواته ، وكان بعض الحجاج ومعظمهم من الأجانب يجهشون بالبكاء أو يضربون صدورهم ، معتبرين بعظم ذنوبهم والبعض الآخر ، وهم قلة ، قد وقفوا في ذلة وخشوع وعيونهم تملأها الدموع ، وجموعة من أهل الحجاز ومثلهم من الجنود الأتراك يتحدثون ويضحكون ، بل ويؤمنون بانتقادتهم وكأنهم يسخرون من الشعيرة نفسها ، وخلفنا على التل شاهدت عدداً من العرب والجنود في جلسة هدوء يدخنون التارجيمه ، وفي كهف قريب كانت إمرأة فاجرة تبيع القهوة ، وكان زوارها يفهمون العالية وصخيم ، كثيراً ما أزعجوا الحجاج القريبين منهم ، المنهمكين في تعبدهم وتضرعهم .

واضطر بوركهارت أن يبقى في مكة مدة شهر بعد انتهاء موسم الحج بسبب عدم استقرار الأوضاع في البلاد حيث كان محمد علي ، ما يزال منهكًا في إجراء الاستعدادات لمزيد الوهابيين مما اضطره إلى مصادرة كل بغير لحمل تجهيزاته ، وفي إحدى المرات دارت إشاعة ، مفادها أن محمد علي قد هزم ، وأن جماعة من البدو اللصوص في طريقهم لنهب مكة ، فما كان من بوركهارت إلا أن يأخذ خادمه وبختمي بالمسجد الحرام ، ومهما يكن من أمر ، فإن محمد علي باشا قاد جيشه في حملة عسكرية

شك في إسلامه أم لا ، وعلى كل حال فإن الباشا لم تكن تهمه تلك الأمور ، طالما أن أمره لم يكتشف وحتى لو انكشف فإن بإمكان البasha أن يضع المسئولية على القاضي ، ومع أنه بوركهارت لم ينكر أنه أولئك إلا أنه شعر أنه مشكوك في كونه جاسوساً بريطانياً ، وأنه تحت المراقبة لهذا قرر ترك الطائف فعمد إلى تصرفات تبغضه إلى مضيقه بالرغم من أنه كان يقول ، إنه في وضع مريح وأنه ينوي الإقامة لعدة أشهر .

وبطلب عاجل من بصرى ، أعطى محمد علي موافقته على مغادرة بوركهارت وفي الثاني من ديسمبر عام ١٨١٤م ، دخل بوركهارت مكة وكان عليه أن يبقى فيها حتى يناير ١٨١٥م ، وإن كان قد ذهب إلى جدة في زيارة قصيرة لإحضار بعض الأدوات ولشراء عبد . وقد كتب يقول : «خلال كل رحلاتي في الشرق ، لم استمتع براحة كاملة مثلما استمتعت بها في مكة ، وسأحتفظ دائمًا بذكرى جليلة عن إقامتي بها ، وبالتالي ، فإن بوركهارت قد استغل وقته في مكة كاملاً حتى بلغ وصفه لها ، نحو ٣٥ صفحة ولم يترك للرحلة الذي جاء بعده مثل الناقد بيرون شيئاً ليضيفه أو ليصححه . لقد أعجب بوركهارت بأهل مكة ، فقد وجدتهم كرماء ، طرفاء ومرحين ، وكان متعجباً من شعورهم التمثيل في قوله : «الله جعلنا مذنبين بذنب كبيرة ولكنه أعطانا فضيلة التوبة» ، وهذه العناية الآلهية جعلتهم يعيشون في مكة لاستلام الصدقات لا لإعطائهما والفتة الوحيدة التي كآل بوركهارت لها الذم ، هي ففة المطوفين التي تجهز نفسها لانتظار الحاج ولا تدعهم يعودون قبل أن يفرغوا ما في جعبتهم من ثروة ، ويخص بالذكر ، صاحبه الذي كان شهاداً دون خجل وسرق منه ملابسه دائمًا ما كان يزوره ويشاركه طعامه بدون دعوه سابقة ويحضر معه كيساً ليأخذ به كل ما تبقى كما أنه دعي مرة كل أصدقائه لوليمة أقامها على شرف بوركهارت في مسكن بوركهارت نفسه ثم أرسل لضيفه فاتورة بالحساب . وكان هناك تصرف غريب من قبل المطوفين : فالمرأة غير المصحوبة بزوج قد لا يمكنها أداء الحج ، فيقوم المطوفون بتبيئة زواج مؤقت للثريات من الأرماء الزائرات ، وعادة ما يفترق الزوجان بالطلاق في نهاية الموسم ولكن لو رفض الزوجطلاق فإن رباط الزوجية يظل قائماً .

في بداية شهر يناير من عام ١٨١٥م وقضى على مقاومة القبائل مما أدى إلى استعادة كان الناس يموتون يومياً ، وكان هناك جمل وضع على ظهره غطاء مزركش وقد خالل جزئية للأمن في المنطقة (لقد ذهبوا إلى المعركة وأرجلهم مربوطة بالسلسل لنعهم من شوارع المدينة ليقطع كل الجرائم ثم ذبح وترك لحمه فريسة للطيور الجارحة والكلاب ، رقد زادت خاوفه عندما علم أن عيده قد تطوع لغسل الموتى ، وبعد حوالي ثلاثة أسابيع استقل بوركهارت «سموكاً» فوجد أن الوباء قد انتشر بين ركابه ، وفي ٢٤ يونيو دخل بوركهارت القاهرة بعد غياب دام ستين ونصف .

لا يليو على بوركهارت أنه قد استرد كل عافيته بعد الجهد المضني التي بذلها ، ومع هذا فإنه لم يفقد أمله بالانضمام إلى القافلة وجهتها تمبكتو ، غير أنه وجد أنه لا يليو في الأفق احتلال تحرك مثل هذه القافلة في المستقبل ، فبدأ بكتابه وصف لرحلاته وقضى شهرين في صحراء سيناء تعرض خلالها لحادث لم يتعرض له في شبه الجزيرة حيث أشرف على الهلاك على يد البدو ، وبعد رجوعه إلى القاهرة ، توفي فيها في ١٥ أكتوبر ١٨١٧م ودفن في مقابر المسلمين ، وبعد شهرين من وفاته ، غادرت القاهرة قافلة متوجهة إلى تمبكتو وهي الأولى بعد انقطاع دام أربع سنوات .

وقد غادر بوركهارت مكة إلى المدينة وقد استغرقت عدة السفر على ظهر الجمل قرابة أسبوعين ، وقد كانت رحلته كالعادة بدون آية حادثة تذكر ولكنها كانت مثل باقي رحلاته ، متبعة وغير مريحة حيث لم يكن هناك مكان للاستراحة على طول الطريق البالغ ٣٠٠ ميل . مكث بوركهارت ثلاثة أشهر في المدينة ، كان خلالها طريح الفراش لمدة ثمانية أسابيع لدرجة أنه أيقن بالموت ، وكان الرجل حي الضمير ، فلم يكن قلقاً على نفسه بقدر ما كان قلقاً على احتلال ضياع المعلومات التي جمعها أثناء رحلاته وعلم وصولها إلى من أرسلوه ، وكانت سلوته الوحيدة في تلك الفترة ، قراءة كتاب [ديوان الشاعر الإنجليزي] ملتون Milton والتحدث مع العجوز اللطيفة سيدة المنزل الذي سكن فيه .

لم يكن وصفه للمدينة شاملًا بنفس الصورة التي وصف بها مكة ، فقد فوجيء بأن وجدتها في حالة لا تليق ، حيث إن قبر الرسول ﷺ كان بسيطاً جداً ، في الوقت الذي كان فيه ضريح قديس كاثوليكي صغير القدر قد بني على أحسن ما يكون وعلق على ذلك بقوله إنه مهما كانت قوة إيمان المسلم وتعصبه ، فإنه مع ذلك غير مستعد للضحية المالية في سبيل عقيدته ، أما الحرف والصناعات فإنها أقل مما هي عليه في مكة ، واقترح أنه في حالة إجراء ترميمات ولو بسيطة للمسجد فإنه يتوجب جلب الحرفيين من مصر للقيام بذلك ، وقد لاحظ أن أساليب الوراعة فيها متقدمة .

- وبالرغم من مرض بوركهارت فإنه غادر المدينة قاصداً ينبع ، فوجد الطاعون - أخطر وباء في المنطقة - قد اجتاحها ، وقد وُيُخ بوركهارت ، على تفوهه بهذا لأن المعروف [عند العامة] أن الله ، قد استثنى الحاجز المبارك من هذا الوباء ، ومما يكن فقد

فرنسا وإيطاليا ، ولم يلق ولديه سوى قليل من التعليم المنتظم باستثناء التدريب على استعمال السيف ، وتعلم نصف درزن من اللغات المحلية .

بيرتون

كان العقيد بيرتون بعد ولده للكنيسة ، فأرسله إلى جامعة أكسفورد ، ولكن ريتشارد افتتح الأسباب لطربه منها ، وهكذا تخلص من العمل في الكنيسة ، وحتى قبل طربه ، حدث مرة أن ثار دهشة الآخرين ، عندما طلب من أحد زملائه أن ينازله في مبارزة لأنه سخر من شاربه . وصل ريتشارد بيرتون إلى بومباي في أكتوبر ١٨٤٢ م كملازم ثان في القوات المسلحة لشركة الهند الشرقية وقد برع بيرتون بشكل لا يصدق في إتقانه للغات الأجنبية ، ففي كل بضعة أشهر كان يتعلم لغة ، حتى إنه في أواخر حياته كان باستطاعته أن يتكلم تسعًا وعشرين لغة ، وما لا يقل عن إثنى عشرة لهجة مختلفة ، ولم يقنع أبدًا بتكلم اللغة ، بل يطمح لأن يتمكّن في زيارته واحد من أهلها ويود أن يستأجر دكاناً ويجلس به ويتعامل مع التجار كأنه واحد منهم ، وقد أقفت هذه المواهب رئيس الجنرال ليطلب منه ، أن يعد له تقريراً عن أماكن الرذيلة ، وقد وجد بيرتون هذه المهمة ممتعة ، فقام بها على أكمل وجه ، إلا أن التقرير وقع في أيدي أناس آخرين فأستغلوه ضده وشوهو سمعته حتى إنه لقب «دك الشرير»^(٢٣) وقد كانت محاولته لاختطاف راهبة وما بدر منه من تصرفات غريبة ، كهوايته تربية القردة التي كان يدعوها إلى مائدة الطعام والتي سمى إحداها زوجة له ، فهذه التصرفات وغيرها أدت إلى عدم تحسين سمعته السيئة وإلى كره المسؤولين له ، حتى إنه منع من الاشتراك في حرب السيخ الثانية عام ١٨٤٨ م ، بالرغم من أنه كان الضابط الوحيد الذي كان يتكلم لغة السيخ ، وبعد أن وجد كل الطرق قد أغلقت في وجهه في الهند ، قرر أن يأخذ إجازة مرضية طويلة الأمد ، ورجع إلى أوروبا لمدة أربع سنوات قضتها في البحث والكتابة .

كان اهتمام الناس بالاكتشافات الجغرافية في منتصف القرن التاسع عشر ، كاهتمامهم اليوم باكتشاف الفضاء ، وكان بالإمكان لأي شخص أن يحصل على

^(٢٣) دك اسم تصغير لاسم ريتشارد (المترجم) .

ريتشارد بيرتون ، كان متخصصاً بارعاً لفن التشكير ، ولديه مهارة لا تصدق في تعلم اللغات وهاتان الخصائص ساعداه جداً في الجزيرة العربية عندما وصل إليها في عام ١٨٥٣ م .



لو نظرنا إلى كل الشخصيات المذكورة على صفحات هذا الكتاب ، لوجدنا أن ريتشارد فرانسيس بيرتون Burton من أكثرهم نشاطاً وحيوية وأكثرهم إنتاجاً ، لذلك

نجده من بين الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية ، باستثناء لورانس ، ينفرد بجذب كتاب السيرة ، وأول سيرة حياته نشرت قبل عشر سنوات من وفاته ، وإن قائمة مؤلفاته لتفطري أكثر من ٣٠٠ صفحة . لقد كتب بيرتون عن : الطعن بالسلاح الأبيض ، والصيد بواسطة الصقر ، وهندسة الملاجم ، وعلم الآثار ، والشعابين ، والطب ، والهندسة ، وتسلق الجبال ، والدين ، والجنس . وقد وصف بيرتون رحلات قام بها في كل قارات العالم ما عدا إستراليا ، وعن أفريقيا وحدها كتب ثلاثة عشر جزءاً ، تعداد صفحاتها أكثر من ٤٦٠٠ صفحة ، أما الجزيرة العربية ، فقد ظلت ، كما يقول بيرتون : «الأرض التي تولع بها قلبي» ، وهذا الفصل من الكتاب يختص فقط تلك الفترة من حياته التي قضتها على هذه الأرض .

لقد ادعت أمها منحدرة من سلالة أحد الأولاد غير الشرعيين للملك لويس الرابع عشر ، ومع أن أبوه كان ضابطاً في الجيش ، لكنه كثيراً ما قيل إن أصله غجري ، وبعد فترة قصيرة من ولادة أخيه ريتشارد ، ترك الأب مهنته في الجيش وأخذ يترحل في

الكرسي والطاولة وللصلة فوقها إلى جانب كونها بساطاً، وقماشاً قطنياً مع وسادة ملائمة، وخنجراً، ومحبرة نحاسية وحاملة الريشة؛ مثبتة في حزامه، ومسبحة طويلة مع عدد من الأبر وأكمل معداته بصناديق أخضر فاتح اللون؛ مزينة بأزهار حمراء صفراء ويتحمل السقوط من ظهر الجمل مرتين في اليوم، أما ما حمله من المال في رحلته هذه، فكان خمسة وعشرين جنحاً ذهباً، وضعها في حزام تحت رداءه.

وقد استمتع بيرون بجو الاسكندرية، حيث وجد فيها ما يسميه العرب بالكيف، فالرجل الشرقي يحب الخلود إلى الراحة والاستماع بالملذات الحيوانية، وبناء القصور في الهواء، وقد تجده جالساً تحت شجرة تفوح بالعطر مستمتعاً باحتساء القهوة أو تدخين التارجيله أو شرب الشريبت غير مكثث بما يدور حوله في الأمور التي تعكر صفو الحياة، بينما الحياة الباردة في أوروبا تميل على الرجل الغربي أن يكون مفعماً بالنشاط والحيوية.

ومن الاسكندرية أخذ بيرون مركباً بخارياً [عبر النيل] إلى القاهرة وسكن في القاهرة في فندق شعبي يعرف «بالوكلة»^(٤) وبasher عمله كطبيب، ونجح في علاج فتاتين جاريتين حبشيتين من الشخير مما زاد كثيراً في قيمتها، والأهم من ذلك أنه أصبح يحضر دروساً دينية في الأزهر، لأن أي خطأ ديني يرتكبه بعد وصوله إلى مكة أو أي تصرف قد يسيء للمعتقدات الدينية، سيؤدي إلى كشف أمره أكثر بكثير من ارتكابه خطأ لغويًا، قد يهد له ما يبرره ولكنه قد لا يهد أي مبرر لتصرف لا يفعله مسلم، وفعلاً حدث فيما بعد، كما قيل، أن بيرون قد أرتكب خطأً من هذا القبيل أثناء رحلته ما بين المدينة ومكة، وقد شاهده أحد الحاج، فما كان من بيرون إلا أن يقطع حنجرته وقضى عليه في الحال، حتى لا ينتشر الخبر ويفشى سره.

(٤) الوكلة: كانت معروفة في مصر منذ عهد المماليك وهي عبارة عن بنى يسترخ في المسافرون، ويشتمل على فناء تربط فيه دوابهم (المترجم).

مساعدات مالية ومعنوية إذا جاء بخطبة معقولة للقيام برحلة. وفي خريف عام ١٨٥٢ عرض بيرون خدماته على الجمعية الجغرافية في لندن، لغرض إجراء بعض الاكتشافات في المناطق الوسطى والشرقية للجزيرة العربية. وكانت خطبة بيرون هي السفر إلى مسقط، ومن هناك يبدأ رحلته إلى كل من مكة والمدينة، ماراً بالربع الخالي. وقد أيدت الجمعية الجغرافية تلك الخطبة. إلا أن شركة الهند الشرقية، وهي المولدة للمشروع، رأت أن الخطبة مليئة بالأخطار، ولكنها وافقت بدلاً من ذلك، على أن تسانده في دراسة اللغة العربية في بلاد يتم فيها تعلم اللغة على أحسن وجه. وعلى كل حال فإن خطبة بيرون الأولى، كانت تحتاج إلى وقت طويل [ولا تسمح له إجازته بذلك]، وهكذا فقد عكس الخطبة على أن يبدأ رحلته من مكة إلى مسقط، ماراً بالربع الخالي، ومن مسقط يركب إلى الهند، قبل انتهاء إجازته، وقد وجد بيرون أن مثل هذه الخطبة لها فوائد عديدة، فبالإضافة إلى اكتشافه مناطق في الجزيرة العربية، لم تكن معروفة للأوربيين من قبل، فإنه كان يأمل مثل بوركهارت، أن يحصل على لقب حاج الذي سوف يسهل له الحركة في البلاد الإسلامية. وكذلك فإنه خلال وجوده في الجزيرة العربية، سيحاول الحصول على الخدوم العربية للجيش البريطاني في الهند، وفي أبريل من عام ١٨٥٣ م غادر بيرون ميناء ساو�هامتون متذمراً في زي سيد إيراني، وأنباء الرحلة البحرية حاول أن يتقن تذكره كمسلم، فعندما شرب الماء أمسك بالقدح وكأنه يمسك بخنجرة عدو له، ثم تجشأ عندما إنتهى، وبعد شهر من وصوله إلى مصر، قرر أن يغير شخصيته من تلك التي تذكر فيها كسيد إيراني إلى درويش متوجل، لاعتقاده بأن الآيرانيين يعتقدون مذهبًا غير مقبول في الجزيرة العربية، ثم فيما بعد اختار التذكر في زي رجل أفريقي الأصل، يحمل الجنسية البريطانية، وأنه قد درس الطب في رانجون Rangoon. وقد اشتري عدداً من الملابس الجديدة، لكي يظهر بمظهر لائق يضفي عليه الاحترام، في الأماكن التي يتعبر فيها ذو الملابس الرثة، من القراء المعوزين، وبالتالي فإنه يعتبر من الأوغاد، إلا إذا كان يتنمي إلى جماعة دينية معينة له الحق فيها أن يكون فقيراً، وبالإضافة إلى ذلك فإنه اشتري أغراضًا أخرى: مظلة صفراء كبيرة تشبه الزهرة، ومشطاً خشبياً، وقربة ماء، وقطعة سجادة إيرانية خشنة تقوم بوظيفة

عند داوني وأقرب ما وصل إليه في تصوير شخصية حية هو وصفه لهذا الولد محمد ، وهو يقلد ساخراً ، ذلك التاجر الرزين والبدوي الرصين .

وفي السويس استقلت المجموعة «سيبوكا» ، حمولته محسون طناً واسمها «سلك الذهب» ، ولما كانت السفينة تتسع لحمل ستين راكباً إلا أنه كان على ظهرها مائة وثلاثون مسافراً وقد شعروا أنهم في وضع غير مرغوب ، وبينما كان بيروتون ورفاقه يجلسون في مقاعد الدرجة الأولى المريحة إذا بجماعة من شمال أفريقيا من ركاب مؤخرة السفينة ، يندفعون فجأة ليشاركون بيروتون ورفاقه بالجلوس معهم في مكانهم ، فاندلعت معركة شرسة استعملت فيها السكاكن والعصى والأسنان وازداد الأمر خطورة بعد أن دفع بيروتون بزير كبير مملوء بالماء على رؤوس المهاجرين أدى إلى كبح جماحهم فتوسلوا إلى طلب الصلح واندفعوا بكل إحترام يقبلون أيادي وأكتاف ورؤوس المتصرين ، واستمرت الرحلة وبصرف النظر عن جنوح السفينة عن الطريق ، فقد حدثت مشاجرات مع ربانها وأخيراً وصلت السفينة إلى بناء ميناء المدينة دون حادثة أخرى .

وبينما كان بيروتون ، يسر على الساحل حافي القدمين ، عضه قنفذ بحري فيما يعتقد ، أدى إلى تسمم أصعب رجله مما سبب له متاعب في بقية الرحلة ، ولكن ذلك لم يكن كارثة عليه ، بل أدى به إلى شراء شقائق بسعر دولارين ، مما ساعده على كتابة ملاحظاته بيسر وفي ستر أكثر مما لو كتبها وهو على سمام الجمل ، وقد استأجرت الجماعة مجموعة من الجمال بسعر ثلاثة دولارات للجمل الواحد ، وبدأوا رحلتهم إلى المدينة التي تبعد ١٣٠ ميلاً ، وبما أن معدل سرعة الجمل ميلان في الساعة الواحدة ، فإن الرحلة تستغرق ثمانية أيام . وبينما هم في الطريق ، مررت القافلة بمصر ضيق ، يقال له «مر الحجاج» وهناك تعرض لمجوم من السراق ، فقد اندفع البدو مثل الدبابير ، وصدوا وابل نيرانهم ، وكانت الجماعة المسافرة في موقف صعب جداً وذلك لأن البدو كانوا يطلقون نيرانهم من خلف الصخور التي أعلوها مسبقاً ، ولو قتل واحد من البيلو ، فإن كل السكان القاطنين هناك سوف يتضمنون إلى المعركة ويغلبون على

[وفي أثناء وجوده في مصر] ، حصل بيروتون على ثمانين جنيهاً إسترلينياً آخر قبل سفره للحج ، وببدأ يبحث عن جواز سفر ، وقد انزعج عندما تقدم للقنصل الإيراني بطلبه وكان القنصل أول جهة يتقدم إليها ، فرفض القنصل طلبه إلا إذا دفع أربعة جنيهات إسترلينية وكان بيروتون قد عرض عليه جنيهاً واحداً وعلى آية حال فإن أصدقاءه قدموه إلى عميد المدرسة الأفغانية في الأزهر الذي تعهد له - لاعتبارات بسيطة - بتسهيل سفره إلى مكة ، ورافقه إلى القلعة للحصول على الورقة الالزمة لذلك ، مقابل شلن واحد .

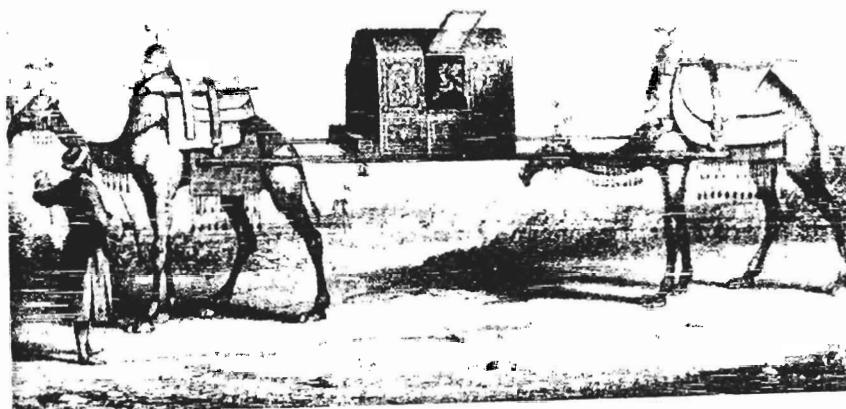
وعندما استعد بيروتون ، تقريراً للبيء في رحلته التقى في الفندق الشعبي بظباطط اللبناني ، كان في إجازة من عمله في الحجاز والذي دعاه إلى غرفه ، وبعد أن خلع الاندان خنجرهما انفصلا في شرب الخمر حتى ثلا وحاولا إقناع بعض المواطنين ، والذين كانوا يرتحفون من الخوف ، بمشاركتهم ، ولما رفضوا ، بللوعهم تبللاً تماماً بنوع رخيص من خمر البراندي ، ثم دعوا برقصات ودلعوا إلى أحد الغرف ، فانتهت بهم أصوات عجوزين ، أدت بهم إلى الفرار ، واهالوا بالشتائم على المصريين ، ولما شرع اللبناني بهدد الباب بأنه سيشرب من دمه ، تمكّن خادمه من أخذنه إلى فراشه ، وكتب بيروتون [عن نفسه] : «لم يحدث أن أرتكب طالب ويلزي من جامعة أكسفورد ، مشاكل أكثر مما فعل» .

لم يكن يستغرب أن يرى بيروتون أنه من الأفضل مغادرة القاهرة ، بأسرع وقت ممكن ، وبعد أن وجد بدويًا من سيناء مسافراً في نفس الاتجاه استأجر جملين بسعر جنيه إسترليني واحد ، ومن ثم غادر مع خادم هندي إلى السويس وفي الطريق تقابل مع بعض التجار المحترمين من المدينة ، وهم في طريق عودتهم إلى بلدتهم كما التقى مع صبي كان قد تعرف عليه في القاهرة واسمه محمد البسيوني من أهل مكة ، والتحق الجميع بقافلة واحدة ، وتولى محمد الاهتمام بأمور بيروتون وأمتعته ولزم الجلوس معه بقية الرحلة ، ولم يكن بيروتون مهتماً بالأشخاص ، فكتابه ينحصر التصوير الحي للشخصيات الذي نجده

وصفتها ، ووصف الشعائر الدينية التي شارك في أدائها ، ولم يعجبه مسجد الرسول عليه السلام وكان في نظره «دون المستوى المتوقع .. يشبه متحفاً للفنون من الدرجة الثانية أو دكان متحف مليئاً بالبيانات غير المناسبة ومزخرفاً بطريقة تنم عن عظمة بائسه» إلا أنه أعجب بمقدمة البقيع التي سوف تشهد يوم القيمة قيام مائة ألف من الصالحين بوجوه متأللة كالبلور .

وفي طريقه وهو قادم من ينبع ، كان يرثون قد التقى بيلوي شرير كان يود مساعدته في السفر من المدينة إلى مسقط ، ولكن حدث أن دارت مشاجرة بين الثنين من البنو بسبب جمل ، وسرعان ما تطورت المشاجرة إلى حرب شاملة بين القبيلتين ، سمعت فيها طلقات الرصاص من داخل المدينة ، وخلال الشوارع شوهدت جماعات من البنو تحمل السيف والبنادق في أيديها أو تحمل فقط المراوات على أكتافها ، وهي ترکض مسرعة للمشاركة في القتال ، أما سكان المدينة فما كان بمقدروشم إلا إزالة اللعنة على هؤلاء المقاتلين ، متمنين لكل أفراد هذا العنصر المؤذن أن يفني بعضه ببعض ، وهذا القتال يعني شيئاً واحداً فقط ؛ هو أن الطريق إلى مكة سيكون مفتوحاً ، هذا وقد أدرك يرثون ، أنه لا يوجد هناك ما يمكن إضافته إلى ما ذكره بوركهارت في وصفه ، إلا القليل ، ولكنه اعتبر نفسه ، عوضاً عن ذلك ، أول أولئي يسلك الطريق الشرقي في سفره بين المدينتين المقدستين .

كانت هناك حركة دائمة في سبيل الاعداد للسفر ، فقد أصلح يرثون ، قرب الماء التي أحدثت الفشان ثقوباً بها ، وأدحر ما يسد حاجته وحاجة صديقه محمد من المؤون لمدة أسبوعين ثم أتفق مع بنوي على استئجار جملين بعشرين دولاراً ، ونصحه أصدقاؤه بأن يأكل مع مرافقيه ، مرة على الأقل في كل يوم ، حتى يكون ملحة في بطونهم ، وهذا بالطالي سوف يمنعهم من الطمع فيه وبهـ وقد كان معظم سير القافلة يتم خلال الليل ، وفي إحدى المراحل استمر سيرها من الساعة الثالثة مساءً حتى الخامسة عشر من صباح اليوم التالي ، ومع ذلك فقد تعرضت القافلة لهجوم ، قتل فيه بغير واحد ، لا يبعد عن



بحفة جل ، رسّها يرثون ، أما شقدونه هو فرعاً كان أقل فخامة ويحمل على بغير واحد

القافلة ، وبينما الأمر كذلك ، فقد تمكنت القافلة من المرب لحسن حظها بعد أن فقدت إثنى عشر رجلاً فقط .

وفي ٢٥ يوليو عام ١٨٥٣ م ، وصل يرثون إلى المدينة وكتب قائلاً : «عندما نظرنا إلى المشرق ، وجدنا الشمس قد برغت من الأفق ذي التلال المخفضة المكسوة بشجيرات صغيرة ، ولكن ضباب الصباح الباكر جعلها وكأنها أشجار شاغنة ، أما الأرض فكانت مغطاة بنباتات ظهرت وكأنها مزيج من لوني البنفسجي والذهب ، وأمتد أمامنا سهل رحب تحده هضبة نجد ، وإلى اليسار ارتفع جبل أحد المشهور ، واحتضن في سفحه مجموعة من الشجيرات الحضراء وقبة بيضاء أواثنين ، أما إلى اليمين ، فقد انتشرت خطوط عريضة بلون أرجواني فاتح من الضباب الكثيف مع طراوة منعشة ، ومن خلاله تسربت أشعة شمس الصباح لتنشر نورها الخافت على بساتين النخيل ، وحدائق قبا ، التي برزت بخضتها الزمردية فوق السهل الرمادي» .

كان على يرثون أن يبقى في المدينة لأكثر من شهر ، وقد كتب جزءاً كاماً في

بيerton سوى ياردات قليلة .

الوردية اللون ، تصيد الطيور بابطاحها على بطونها ، فتأنى الطيور إليها معتقدة إنها قطع لحم متروكة ، وفجأة يقفر عليها قرد آخر ، يكون مختلفاً في مكان قريب ، ويمسك برقباه .

وقد درس بيerton أسواق المدينة التجارية ، ووجد أنه بالامكان شراء بعض نعام طازج ، وأن سعر الجارية الحبسية قد يزيد قليلاً عن عشرين جنيهاً استرلينياً ، كما أهتم بيerton كثيراً بالبدو وأشار إلى أن رقصهم شبيه بقفزة الدب أكثر من كونه رقصًا مثيراً وممتعاً وكان أول من أشار إلى أن البدو يشبهون المندو الحمر ، فليس بمستغرب أن يكون أحد المؤسسين للمعهد الملكي الأنثروبولوجي . لقد كتب بيerton الكثير وفي مدة قصيرة جداً ، ولكن هناك كثيراً من المعلومات في كتاباته ، وقد اتضحت معرفته الشاملة بالشرق ، من خلال الستة عشر جزءاً ، التي اشتغلت على ترجمته لقصص «ألف ليلة وليلة» [إلى اللغة الانجليزية] ، وما أضافه عليها من ملاحظات غزيرة ، هذا ومن المعروف أن اهتمامات بيerton بالرذائل أكثر من اهتماماته بالفضائل .

لقد مضى ربع قرن من الزمان قبل أن يعود بيerton إلى الجزيرة العربية ويمكن أن نتعرف على نشاطاته خلال فترة ربع القرن هذه ، بالاطلاع على مختلف ما كتب عن سيرته حياته ، ويكتفي أن نذكر هنا أنه أول أوربي يصل إلى مدينة هرر في عام ١٨٥٥ م ، وكان ذلك إنجازاً بارعاً يعد أخطر من رحلته إلى مكة ، ففي فترة لاحقة من نفس العام ، تعرض خيمه قرب مدينة بربرة لهجوم من الصوماليين ، وقتلوا واحداً من رفقاء ، أما هو فقد أصبح بضرر رمح في وجهه تركت عليه علامات طوال حياته ، وفي عام ١٨٥٨ اكتشف بيerton وسيك Speke بحيرة نجاحيما ، حينها كانا يحاولان اكتشاف منابع نهر النيل ، [بعدها سافر إلى أمريكا] وزار مدينة بحيرة الملحق حيث تمركز جماعة المورميين^(٢٦) ، ودرس بشكل ميز الناحية التقنية لغزو الرأس .

في الحادي والعشرين من سبتمبر عام ١٨٥٣ م ، وصل بيerton إلى مكة وقام بأداء كل مناسك الحج ، وكان دليلاً هو الغلام محمد الذي أسكنه في بيت أمه وهيا له الدخول إلى الكعبة ، وبما أن مهداً هذا من أهل مكة وفي مكان بحري فيه حل السلاح فقد استطاع مقاومة إيرانيين ويدو وفسح الطريق لبيرتون لكي يقبل الحجر الأسود ، وقد قام بيerton بترجم الشيطان ، وحضر الوقفة على جبل عرفات حيث يجتمع كل الحجاج هناك ، ووصف الموقف بقوله : «لقد رأيت شعائر دينية في بلاد كثيرة ولكن لم أشاهد في حياتي بناة مثل تلك الشعيرة برهبتها وعظمتها» . وقد سافر بيerton إلى جدة واكتشف محمد في اللحظة الأخيرة أنه كان يرافق كا قال : «صاحبًا^(٢٧) من الهند ضحك على ذوقنا» .

ولو أن بيerton رجع مباشرة إلى إنجلترا ، لأصبح حديث الساعة ولكنه بدلاً من ذلك قرر التوجه إلى القاهرة والبقاء بها حتى تنتهي إجازته وقد استمتع بالحياة هناك بضيافة بعض أصدقائه المارين في الطريق ، واستمر متذكرة في زيه العربي .

إن ما كتبه بيerton عن الحج يعتبر مثل كل كتبه ، مليئاً بالمشاهدات الفضولية والمعلومات الهامشية ، و مليئاً كذلك بالتحامل المتطرف المزوج بالفكاهة المقوطة . ولم يضف بيerton كثيراً للمعرفة الإنسانية ولكنه نقل لنا الجو السائد هناك وروى لنا القصة بشكل أفضل وبأسلوب مشوق ، أكثر مما فعل سابقه ، وسنترك الحديث عن الوصف التفصيلي الذي ذكره بيerton عن الشعائر الدينية ، ونكتفي ببعض ما ذكره من الملاحظات الغربية ، فقد لاحظ أن علاج الماء الأبيض يتم بشوي أسنان البغل بالنار ثم تطحنه ويستخدم طحينها في علاج العين المصابة ، ولاحظ أن قردة الحجاج ذات المؤخرة

(٢٦) طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠ وقد أباحت تعدد الزوجات ثم حظرته (المورد ، الرسمية (المورد ، ص ٨٠٧) - المترجم .

قضت البعثة ثلاثة أسابيع في المنطقة وكان يرتون مفتئعاً بأنه من الممكن استخراج الذهب من المناطق الداخلية هناك ، وكل ما وجده هو مجموعة متحجرة من بعر الجمال العتيق وكتابات قديمة ، وبعض النباتات والحيشات الجديدة ، ولكنهم لم يعثروا على أي ذهب ، ولكن ذلك لم يمنع يرتون من ارسال برقة للخدبوبي يخبره فيها أن البعثة قد نجحت في مهمتها ، وهكذا فقد رجعوا إلى القاهرة مع عيناتهم من الحجر والرمل واللصى .

بقى يرتون مليئاً بروح التفاؤل ، فلم يجد صعوبة في تأليف كتاب عن مثل تلك الرحلة الاستكشافية الخبودة ، وكالعادة فقد كان كتابه هذا مليئاً بالمعلومات واللاحظات الخامشية والمراجع ، ولحسن الحظ فقد ظل الخدبوبي أيضاً ، مليئاً بروح الأمل والتفاؤل [في إمكانية حصوله على الذهب] ، فجهز بعثة كبيرة تألفت من أربعة أوّرين وستة من الضباط المصريين ، وأثنين وثلاثين جديداً مصرياً (معظمهم من الزنوج المعتوفين) ، وثلاثين عاملًا ، وطباخ يوناني ، مع خادم وبخار . وحطت البعثة رحالها في مدين في ١٩ ديسمبر ١٨٧٧م .

كانت البعثة نشطة للغاية ويخبرنا يرتون أنها غطت ألفين وخمسمائة ميل في غضون أربعة أشهر ، ورجعت بخمسة وعشرين طناً من العينات وقاموا بمسح ثمانية عشر موقعًا لمستوطنات قديمة ، ولكنهم مرة أخرى لم يحضرروا معهم قطعة واحدة من الذهب ، وعلى كل حال فإن عمليات المسح التي أجراها يرتون في المنطقة ، تعتبر في رأي الجغرافيين ، أكبر مساهمة له في زيادة المعرفة عن الجزيرة العربية ، وأهم بكثير من رحلته الأولى .

ويقال إن هناك اقتراحًا بأن يلتحق يرتون بالجنرال جوردون للعمل معه في السودان ، ولكنه أدرك بحكمته صعوبة التفاهم مع جوردون في مجال العمل الحكومي ، فقام بزيارة قصيرة إلى غرب أفريقيا لإجراء مسح هناك من أجل العثور على مناجم

وفي يناير من عام ١٨٦١م ، تزوج يرتون من سيدة متدينة تحدر من عائلة نبيلة ، اسمها إيزابيل آرونديل Isabel Arundell وكانت قد رأته قبل عشر سنوات ومنذ أن وقع بصرها عليه ، قالت لأنختها : «ذاك الرجل سيتزوجني» ، ومساعدة زوجته استطاع يرتون أن يحصل على وظيفة قنصل ، في غرب أفريقيا ، وفي البرازيل ، ثم في دمشق ، وأخيراً في تريستا^(٢٧) . وخلال معظم هذه الفترة ، تولت زوجته حزم الأمتعة ودفع النفقات ، ورفاقته في جولاته حول العالم ومع ذلك كله ، كانت من أخلص الزوجات ، وما كتبته عن سيرة حياته يعبر حقاً عن هيامها به . وحينما كان في تريستا ، ضجر يرتون من الحياة المسلة ثم تذكر ما أخبره به صديق قديم كان قد تعرف عليه في الفندق الشعبي «الوكالة» بالقاهرة ، وذلك أنه حينما كان صديقه هذا ، في طريق عودته من الحج ، وجد صخرة تحتوي على كمية من الذهب ، وكان ذلك في أقصى المناطق الشمالية من الجزيرة العربية وهي أرض مدين القديمة التي لا يفصلها عن سيناء سوى خليج العقبة ، والتي كان أهلها قد اجتذبهم «جدعون» قبل ثلاثة آلاف سنة^(٢٨) . وكان اهتمام يرتون بالذهب يعود إلى أيامه عندما كان في الهند ، كما أصبحت عنده فكرة عن الماجم من خلال رحلاته ، وفي ذلك الوقت ، كانت خزانة إسماعيل باشا ، خدبوبي مصر ؛ قد أفلست وأصبح في حاجة إلى مصدر مالي يساعد في محنته تلك ، وقد فكر أن يغامر على مثل هذه المغامرة وأن يمول البعثة حسب اقتراح يرتون ، فعل ذلك ينقذ وضعه المتدهور .

وبحث يرتون عن صديقه القديم ووجده في الثانية والثمانين من عمره وأقمه برفاقته البعثة بالرغم من أنه كان يتضرر ولادة طفله الخامس وأخذها مهماً مهندس مناجم فرنسيًا ، ومجموعة من الجنود ، وأبحرت البعثة من السويس في نهاية شهر مارس ١٨٧٧م ، وقد اعتبر يرتون هذه الرحلة مكملة لرحلته إلى الأرضي المقدسة .

(٢٧) تقع حالياً في إيطاليا (المترجم).

(٢٨) جدعون ويسمى أيضًا بربعل : قائد عربي وأحد قضاةبني إسرائيل قبل قيام الملكية ، وقد حارب الميديانين بالقرب من غزة ، (مزيد من المعلومات ، انظر فضاء ٦ ، ٧ في كتاب العهد القديم) - الترجم

للذهب في جبال الكونغ Kong ، ولكن نشاط بيروتون بدأ في الانحسار ، وأصبح يركز معظم جهده في الكتابة وخاصة قصص «ألف ليلة وليلة» ، وما يعتبر قيمة إبداعه وهي ترجمة كتاب «الروض العاطر» مع وضع شروحات لها تضمنت عصارة أفكاره وتجاربه ، وفي عام ١٨٨٦م اندهش عندما وجد نفسه ، قد منح لقب «فارس» تقديرًا لخدماته للإمبراطورية البريطانية . وفي أكتوبر من عام ١٨٩٠م توفي بيروتون ، واحياء لذكره قامت زوجته بخطوتين ؛ فقد بنت ضريحًا متميزاً على قبره في شكل خيمة البدو ، وذلك في مقبرة مورتلاك ، كما أنها أحرقت كل الخطوط التي بذل جهده لكتابتها في سنواته الأخيرة ، لأنها اعتبرتها من كتب الرذيلة .

كثيراً ما كتب عن بيروتون ، أنه بالرغم من كونه من أهل العصر الإيليزابيثي ، إلا أنه ولد قبل زمانه ، ولكن لعل من الأصح أن نقول ؛ إنه رجل لا يمكنه أن ينسجم مع أي عصر ، لكونه رجلاً ثائراً ، قوي العزم ومتعدداً بآرائه ، وكما قال هو عن نفسه : «... [إنني أملك] كل موهبة ما عدا [واحدة ألا وهي] استخدام هذه الموهبة». فكم كان بيروتون مصرياً في آرائه ، فهو من الأوائل الذين قالوا : إن مرض الملاريا ينتشر بواسطة البعوض ، ولكنه في نفس الوقت ، أخطأ في أمور أخرى ، كقوله : بأن الجنس النجبي ليس لديه الاستعداد للتقدّم والتطور ، وربما نستطيع القول ، إن المصر الفكتوري ، بكل إمكاناته ، كان مناسباً له ، وأخيراً لابد وأن نذكر ما قاله صديقه ، الأصغر منه ، سوينبورن Swinburn ، عنه : «إن بيروتون وجد على الأرض ولم يوجد له مثيل» .



William Jefferord Bligh (1826 - 1888)
جدي وراهب يسوعي وعميل سري [جاسوس]
وأخيراً دبلوماسي ، وما برح وصفه لرحلاته في الجزيرة العربية مثيراً للجدل .

ولد William Jefferord Bligh في Palgrave في عام ١٨٢٦م لأب عالم مشهور جداً ، لعب دوراً هاماً في تأسيس دائرة المعارف العامة [البريطانية] ، وقد ولد السير Francis Bligh و كان اسمه Francis كوهين ولكنه إثر زواجه اختى الاسم العائلي لزوجته قبل بليجريف و كان اسمه Francis كوهين ولكنه إثر زواجه اختى الاسم العائلي لزوجته قبل بليجريف . لقد حقق كل واحد من أبناء السير Francis ، تفوقاً ملحوظاً : Francis وكان زوجها . لقد حقق كل واحد من أبناء السير Francis ، تفوقاً ملحوظاً : Francis وكان أستاذًا للشعر في جامعة أكسفورد ومصنف الكتاب المشهور «خزينة الذهب Golden Treasury» الذي كان لا يخلو بيت منه في بريطانيا ، English و كان رئيس تحرير الأيكونومست ، Reginald Erskine May و كان كاتب التحرير في مجلس العموم البريطاني خلفاً لإيرسكاين ماي .

أما رحلة المستقبل ، وكان يعرف بين أفراد العائلة جهي فقد كان من الأوائل في [مدرسته] Charterhouse ثم في جامعة أكسفورد قبل أن يلتحق بالجيش البريطاني في بومباي ، وقد وقعت عينه على العرب لأول مرة ، أثناء مروره بمصر في يناير عام ١٨٤٨ عندما كان في طريقه إلى الهند ، ولم تكن مرحلة سفره حتى فاجأ عائلته بينما ترك السلك العسكري وانضممه إلى جماعة الآباء اليسوعيين المسيحية ، وقد أنصبح

لقد كان نابليون ، على التوام مهتماً جداً بالعالم الإسلامي ، وقام بمساعدة فرديناند دي ليسسيس De Lesseps أحد أقرباء زوجته بمحفر قناة السويس ، وقد زار الجزائر مرتين حيث أعلن نفسه ملكاً على العرب وأرسل قوات إلى سوريا لحماية الصواري هناك ، وكان يحلم بإنشاء أمبراطوريتين عريبتين تحت الوصاية الفرنسية ، تقع إحداهما غرب السويس والأخرى في شرقها ، وكانت الخطوة الأولى لتحقيق هذا المشروع هي محاولة إقناع خديوي مصر ليعلن الاستقلال عن تركيا والاحتفاء بفرنسا .

وقد وقع اختيار نابليون على بلجريف ليقوم بهذه المهمة نظراً لمؤهلاته الجيدة ، حيث يجمع بين المهارات اللغوية (وقد تعلم ، فيما بعد اليابانية في مدة شهرين) والخبرة العسكرية والدبلوماسية ، ولكن بلجريف فشل في مهمته في مصر إلا أن ذلك لم يمنعه من القيام بعملية أخرى ، ففي فبراير من عام 1862 م سافر بلجريف إلى الجزيرة العربية في مهمة يقيت غايتها سرية إلى يومنا هذا ، ولم يكن لدى الأوربيين في ذلك الوقت ، معلومات حديثة عن نجد ، وحقيقة أنه بعد زيارة سادлер السريعة ، منذ أربعين سنة خلت ، لم يصل أي رحلة غربي إلى هناك . وقد استطاع بلجريف إقناع رؤسائه الدينيين أنه ربما ينجح في تحويل الوهابيين إلى النصرانية .

كان بلجريف معروفاً في سوريا باسم الأب ميخائيل كوهين أو ميخائيل سهيل ، ولكنه في هذه المرحلة أصبح معروفاً باسم سليم أبو محمود العيسى ، وتذكر في ذي طبيب وتأجر متوجول ، واصطحب معه ، شاباً يونانياً يعمل مدير مدرسة بمدينة زحلة في لبنان ، ويتكلم اللغة العربية كواحد من أهلها ، بالإضافة إلى أن مظهره وملامحه تكاد تكون عربية وكان اسمه الحقيقي جرجوري Geraigeri وفي خلال الرحلة أخذ الاسم المستعار برّكات ، وادعى أنه نسيب الطبيب وأحياناً مساعدته ، وأحياناً أخرى شريكه في التجارة ، وقد أخذنا معهما كمية من الأدوية تكفي لعلاج أو قتل نصف المرضى من الرجال هناك ، مع كتب عربية تبحث في الطب ، لتزيد من ثقة الناس بهم وبعض الكتب الطبية الإنجليزية الحديثة التي أخفوها بخمر عن الناظرين ، أما للمتاجرة ، فقد

بلغريفي فيما بعد عن أنه كان يهدف من خلال انضمامه إلى هذه الجماعة للعمل كمبشر بالنصرانية بين العرب ، وقد بقى بلجريف في الهند ، يسكن ديراً للرهبان حتى منتصف عام 1852 م ، بعدها أرسل إلى روما ليتدرب في مجال الرهبنة . وعلى كل حال فإنه نُعيَنَ كراهب حتى شهر مارس من عام 1857 م ، وكان قد أمضى آنذاك فترة عامين تقريباً ، في البعثة التبشرية في بيروت .

وأول عمل قام به بلجريف عند وصوله ، هو تحسين معرفته باللغة العربية التي أحاد نطقها ، حتى إنه كان ياسكانه أن يدعى أنها لغته الأصلية ، وقد درس بها في المدارس التي ساهم في إنشائها فيما بعد ، وألقى بها خطب الوعظ والإرشاد إلى طريق النصرانية وكتب بها بعض الترانيم الدينية .

كان لبنان في ذلك الوقت يعيش سنوات مضطربة ، فالحروب الطائفية بين النصارى وال المسلمين والدروز جعلت الحكام الأتراك والقناصل الأوربيين ، وحتى البعثات التبشرية كلهم يحاولون الصيد في الماء العكر ، وقد قام بلجريف بعدد من المهمات السرية ، زار خلالها جماعات الدروز ، والطائفة الإسماعيلية ، ويقال إنه تذكر مرة في زي زعيم درزي ، ومن المؤكد أنه قام بنشاط تجسسى بين النصارى الأرثوذوكس .

وفي صيف عام 1860 م حدثت هناك مذبحة قام بها الدروز ضد جيرانهم النصارى ، وقد طلب من بلجريف لخبرته السابقة في الجيش ، أن يتولى القيادة العسكرية لمجموعته ولكنه رفض بكلأسف ، وكان في الحقيقة محظوظاً عندما هرب ونجا بنفسه من هجوم ضار على صيدا ، وقد استدعي بلجريف ، من قبل رؤسائه الرهبان ، إلى أوروبا ، ليقدم لهم تقاريره وليعمل على جمع الأموال لمساعدة أولئك [نصارى لبنان] ، الذين بقوا على قيد الحياة ليبدعوا في العيش مرة أخرى ، وقد ألقى سلسلة من المحاضرات واستقبله البابا والأهم من ذلك أنه استقبل من قبل نابليون الثالث .

واحدة على الأقل وأن يتوخى الحذر في أقواله وأفعاله ، وادعى بلجريف أن معظم السكان ، هناك ، يعتبرون النصرانية نعمة من النحل الإسلامية ، ولم يحاول بلجريف فيما يليه أن يصحح هذا المفهوم ، بل تظاهر بالإسلام ، حتى إنه في أكثر من مناسبة كان يؤدي الصلاة في المساجد .

ومع هذا الحذر فإنه يليه أن رحلة بلجريف لم تتعرض للخطر إلا نادراً والمشكلة التي ضايقته كثيراً هي بالطبع ، العواصف الرملية وحرارة الصيف التي قال عنها : إنها جهنم على الأرض ، مع فرق واحد إنها ليست أبدية ، وقد قضى بلجريف أوقاتاً سعيدة كما مرت عليه في واحة الجوف [دومة الجندل] ، حيث باع كثيراً من بضاعته ، ووجد الناس كرماء ، حتى إن بعضهم عرض عليه مشاركته في التجارة ، بل وحتى تزويجه إن رغب في البقاء عندهم .

وعلى أية حال فقد حمل نفسه وذهب إلى حائل حيث استقبله الأمير طلال بن رشيد بمفاواة ، وأخذنه في جولة وسط المدينة مشياً على الأقدام واصطحبه في يده . وقد بقيت علاقة ودية مع الأمير ، بالرغم من أنه من بلحظات حرجة [كاد فيها أن ينفعه أمره] وذلك بسبب وجود شخص من أهل دمشق كان يعرفه من قبل بأنه رجل أوري ، بل وربما يعرف كذلك أنه قسيس ، وقد عرفه شخص آخر أيضاً ، ولكن بلجريف استطاع مرة أخرى الخروج من ذلك المأزق المحرج بمحيلة ما .

ترك الأمير طلال بن رشيد أثراً حسناً عند بلجريف ، فكتب يقول :

«... خلال لقائي مع الأمراء والحكام من أوربيين وآسيوبيين ، الذين تشرفت بمعرفهم معرفة شخصية ، فإنني أعرف قليلاً من الحكومات ، التي تمثل حكومته في مبادئها» ، وقد رسم بلجريف صورة واضحة لحكومة ابن رشيد ، فوصفها بالكفاءة والتسامح وبتشجيعها للتجارة ، وتعتبر أن ذهاب الشخص إلى المسجد ، ما هو إلا لإظهار حسن كرامته ، على شرط أن يكون متفهماً للعادات والتقاليد الشرقية والإسلام بلغة شرقية

أخذ كميات من القهوة والقماش والخليل الزجاجية والفالبين ، وارتدياً ملابس مصرية وانتعل كل منها بحزاء جلدي على الساق .

يذكر بلجريف في مقدمة كتابه أن الغرض من رحلته ، هو الأمل في تأدية بعض الخدمات الاجتماعية لشعب تلك المنطقة الواسعة ورغبة الملحقة في توصيل مياه الحياة الشرقية الراكدة بمياه أوروبا الجارية ، وربما أن طبيعة حب الاستطلاع والولع بالمخاطر ليس بالشيء الغريب عند الإنجليز ، وقد أشار أيضاً إلى أن الحاجة تدعو للتعرف أكثر على المناطق التي لا بد وأن سيكون لها دور بخشية الله في التحكم بمصائرها .

بدأ الرجلان المتنكران رحلتهما من مدينة معان الأردنية في ١٦ يونيو ١٨٦٢م وكان يرافقهما ثلاثة رجال من البدو ، وقد وصف بلجريف اثنين منها بقوله : «الممجية التامة في مظهرها لا تقل عن همجية أخلاقهما .. متوجهان .. متقلبان .. متهران .. تفكيرهما ضحل كضحالة النبات على تلك الأرض» . إن رأي بلجريف في البدو ، يختلف عن رأي معظم الرحالة الآخرين ، فهو لم يشن عليهم إلا نادراً ، وأعتبرهم : «خائنين ، مشاغلين وقطاع طرق ، وليسوا من الجنس العربي الأصيل ، بل هم فرع منحط من تلك الشجرة العظيمة ، وليسوا من جنورها أو من جذعها أو من ساقها» ، بينما خذه يكيل النساء لأهالي المدن والقرى ، بنفس القدر الذي ذم به البدو .

وهنا نجد أن قصة كل من بلجريف وداوتي متضاريان ، وكأنهما يصفان شعيبين مختلفين ، فقد لاق داوي معاملة حشنة من الحضر ومعاملة حسنة من البدو ، وستنطرب إلى قصته في الفصل القادم . أما بلجريف فقد قال : أنه بإمكان أي نصراوي وأي إنجليزي أن ينتقل في الجزيرة العربية بما فيها منطقة نجد ، دون أن يضطر إلى المساومة على دينه أو كرامته ، على شرط أن يكون متفهماً للعادات والتقاليد الشرقية والإسلام بلغة شرقية

الأصغر سعود ، الذي وصفه بأنه يشبه ضابطاً في فصيل الموصار^(٢٩) ، وقد عزم عبدالله على أن يسبق الأحداث ويبارز بضربيته ، فلمح بلجريف عدة مرات وبطريق غير مباشر ، عن رغبته في الحصول على كمية من عقار «ستركين Strychnin» السام ثم عبر له عن تلك الرغبة صراحة ، قائلًا إنه يأمل أن لا يرد طلبه ، فهومن بلجريف في أذن الأمير : «لا مانع عندي من مشاركتك في جريمتك وأن تكون مسؤولاً مثلك أمام الله يوم الحساب ، ولكنك لن تحصل عليه أبداً فاسود وجه الأمير وانتفخت أوداجه من الغضب الذي لم أر مثله قبل ذلك ولا بعد وعرفت حينئذ أن الغضب من الشيطان ، ومررت برها من الصمت ، كان الأمير يراجع فيها نفسه ، كتم بعدها غيظه وسيطر على نفسه فانفرجت أسرير وجهه وغير لحظته وبدأ في الحديث عن مواضيع أخرى» ، وفي ليلة من ليالي نوفمبر ، وبينما كان بلجريف يعد العدة لمغادرة الرياض ، بعد أن عمل دراسة تاريخية وسياسية عن الحركة الوهابية ، استدعى في منتصف الليل للملوّل حالاً أميرالأمير عبدالله ، الذي أجلسه قريباً منه ، وبعد برها من الصمت الطويل ، أخبره الأمير فجأة بقوله : «الآن أعرف تماماً من أنت !! أنت لست أطباء .. أنت جواسيس نصاري وثوريون ، جئت هنا لتخريب أوضاعنا والنيل من عقيدتنا نيابة عن أولئك الذين أرسلوك .. إن عقاب من هو مثلكم ، كما تعرفون ؛ هو الموت والذي قد عزّمت على إنجاده بلا تردد». ونظر بلجريف - وروايته لهذه الحادثة ، هي المصدر الوحيد لدينا - في وجه المدعى عليه ببرود ، واعترف له بأنه نصراني حقيقة ولكنه نفى أن يكون جاسوساً ، وتحدى الأمير أن يقتله ، بعد أن أصبح ضيف الملك [والد عبدالله] لأكثر من شهر . فما كان من عبدالله إلا أن لعب ورقته الأخيرة ، فدخل خادمه حاملاً فنجاناً واحداً فقط من القهوة وقدمه بلجريف ، وكانت مسألة التحدى واضحة ، حيث إن الامتناع عن قبول القهوة ، سيؤدي في هذه الحالة إلى رفع الحصانة التي يتمتع بها الضيف ، ولكن بلجريف أخذ الفنجان وشربه وطلب آخر وعندما ظهرت ملامح الخرج على وجه عبدالله فتشاغل بلجريف بالتحدث ، مظهراً رباطة جائش ، عاكساً البرود

(٢٩) الموصار : فصيل في الجيش البريطاني معروف بشجاعته في القتال وفي المورد الموصار : جندي في وحدة من الوحدات العسكرية الأوروبية المنظمة على طريقة سلاح الفرسان المغاربي الخالق في القرن الخامس عشر (المورد ، ص ٤٤٠) - المترجم .

أخلاقه أمام جيرانه . لقد بعث الأمير بأولاده للعيادة عند طيبين دلالة على ثقته بهما ، مع أنه يعلم أن هذين الغربيين جاءوا إلى حائل بسبب خفي ، وقد اعتقاد بأنهما جاءا لشراء عدد من خيوله العربية الأصيلة ، غير أنه في أحد الأيام طلب من الأمير مقابلة شخصية ، وفي خلال تلك المقابلة أخبراه عن حقيقة أمرهما ، وبعد أن استمع إلى ما قالاه ، حذرها وأمرها بأن لا يفشا سرها لأحد ، وإنما فإن مصيرها ومصيره سيكون في خطير .

وفي الثامن من سبتمبر عام ١٨٦٢ م غادر بلجريف وصاحب مد .. حائل بجواز سفر من طلال ورسالة توصية من عمه ، معنونة إلى الأمير عبدالله بن فيصل بن سعود الابن الأكبر للإمام ونائب الحاكم في الدولة السعودية ، [ولم يطمئن بلجريف للرسالة ففتحها ووجد] أن ما كتب فيها ؛ إن حاملها من السحرة المشعوذين (جريمة ، عقابها الموت) وأضاف قائلًا : «أرجو من الله أن لا يصيبكم مكروه» وقد نوه بلجريف إلى أن الرسالة كانت معه عندما غادر الرياض مشيراً إلى أنه قد عرف محتواها وأدرك أنه يحمل رخصة موت .

دخل بلجريف وبركات مدينة الرياض ومعهما دليل اسمه أبو عيسى وهو من الأشخاص القلائل الذين برزت أسماؤهم في كتاب بلجريف ، وكان قد فشل في تجارتة كباقي للسجاد ، ويشتغل الآن في عمل غير مستقر وهو العناية بشئون الحجاج الإيرانيين . وفي الرياض عمل بلجريف ورفيقه صداقات مع كبار المسؤولين الذين جاءوا للعلاج عندهما والذين تمثل إكرامهم هما ، في المثل النجدي : «يا ضيفنا لو زرتنا ، لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل» ، وبعد فترة قصيرة [من وصوله إلى الرياض] ، استقبل بلجريف من قبل الأمير عبدالله ، الذي وصفه بأنه شبيه بهنري الثامن لاعتزازه بنفسه ، ولغاظته وشجاعته ، ومهاراته السياسية ، أما الأمام فيصل فكان رجلاً كبير السن وبدأ عليه التعب ، وقد وافق بلجريف الآخرين من أهل الرياض في توقيعاتهم ، أنه بعد موته ستقوم مشكلة ولاية العهد بين الأمير عبدالله وأخيه

من «السيقان» ، ولقد أشار بلجريف مرة إلى حشرة معينة من الحشرات التي تفتر و هي منتشرة في سوريا وجنوب أوروبا ، بقوله : «أربعة حروف تكون اسمها» و كان يعني بذلك «البرغوث Flea» ، وإذا جاز لكاتب هذا الكتاب أن يبدي رأيه الشخصي ، فإنه يعتقد أن كتاب بلجريف مزعج ومتسم بالغرور بالرغم من أن بعض فقراته مليئة بالحيوية .

وهناك على أية حال ، كثير من الاتهامات الجادة التي طرحت ضد بلجريف [خصوصاً ما كتبه عن الجزيرة العربية] . أول هذه الاتهامات ، حول تقريره عن مقابلته للأمير عبدالله ، فالنقرير تقصصه الدقة ، وتخلطه الكثير من الأخطاء . بالإضافة إلى ذلك فإن بعض مشاهداته في الجزيرة العربية كانت خالية من الصحة ، فمثلاً نجده يكتب عن سلسلة جبال لم يشاهدها الرحالة الذين جاءوا من بعده وسلكوا نفس طريقه ، والظاهر أنه لم يلاحظ البحرية الوحيدة في الجزيرة العربية في منطقة الأفلاج جنوب الرياض . وليس هناك أحد من الرحالة الذين زاروا كلّاً من قطر والبحرين ، ذكر أن تعداد سكان قطر يكاد يكون ضعيفاً تعداد سكان البحرين ، كذلك ، فإن من جاء بعده من الرحالة وجد أن خريطة لهنوف غير صحيحة ، وإذا كان ما قاله عن غرق السفينة في مسقط صحيحاً ، فلماذا لم يقم بزيارة المنصب السامي البريطاني هناك .

ومن أشد الناقدين للبلجريف فليبي ، الذي غطى بزياراته نفس الأرض التي زارها بلجريف ، ويشك فليبي أن صاحبنا قد زار مدينة حائل ، وهو على يقين أن بقية ما ذكره هو مجرد خيال ، وعلى العكس من ذلك فإن داوي وبلنت ، قد اعتبرا أن كل ما رواه بلجريف صحيح ، بينما يرى لورانس أن بلجريف يقف كرحلة في صف كل من فليبي وتوماس ، وكتب بطريقة ذكية قائلاً : «إننا لا نستطيع الجزم في القول حول ما ذكره بلجريف صدقًا كان أم لا ، ولكننا نستطيع أن نأخذ برأي هوجarth Hogarth الذي قال عنه ، لا شك أنه قام بمعظم الرحلة التي ذكرها في كتابه ، ولكن القصة كما رآها بلجريف «هي مجرد عمل فني لا يمكن إفساده بعض الحقائق» ، فلم

الإنجليزي المعروف في وجه الأعداء وعند المصابع ومع ذلك خرج بلجريف من المجلس وفي ذهنه شيء واحد : مغادرة الرياض بأسرع وقت ممكن ، وهكذا وبمساعدة من أبي عيسى وصلوا إلى المحفوف دون مصاعب تذكر ومن هناك اتجهوا إلى الخليج الذي وصفه بلجريف بدقة: «أرض كأنها صفيحة من رصاص ، نصفها مغطى بالسبخات ونصفها الآخر مغطى بنبات البردي» ، وفي الخليج ترك بركات صاحبه بلجريف ورجع إلى وطنه ليصبح فيما بعد قسيساً ثم بطريقاً للأرثوذوكس الشرقيين ، أما بلجريف فقد استمر في رحلته وزار خلالها كلّاً من البحرين وقطر ، وإمارات الساحل المتصالح بمصاحبة خادمه أبي عيسى . وفي إحدى رحلاته البحرية في الخليج قريباً من منطقة سيب ، تحطم السفينة العربية التي كانت تقله ، وقد تسلم بلجريف دفة القيادة بعد ما فقد الريان أعصابه فوصل إلى الشاطئ مع من نجا من البحارة ولكنه فقد كل ما كان يحمله من الملحوظات والمشاهدات وكل ما لديه من نقود وقد استقبله السلطان مع من نجا من هذه الحادثة وعرض لهم عما فقدوا من المال ، وأخيراً عاد بلجريف عن طريق بغداد وحلب ووصل إنجلترا سالماً .

وفي ربيع عام ١٨٦٥ ظهر كتابه بعنوان «مذكريات رحلة سنة كاملة في وسط الجزيرة العربية وشرقها» ، وقد أهداه إلى نببور الذي قال عنه : «إن شجاعته وذكاءه أول من فتح أبواب الجزيرة العربية للأوربيين» ، كما قد تأثر بها المؤلف ، وبعد وفاته بلجريف كتبت جريدة التايمز عموداً في تأييده وأشارت إلى أن كتابه يعتبر من أجمل ما كتب في مجال الرحلات التي استمتع بها الناس ولكن ذلك يصعب تصديقه اليوم ، فكتاب بلجريف ، يشتمل على كثير من المفهومات التي تعتبر من أرداً ما كتب في العهد الفكتوري ، فقد جاء باقتباسات وشواهد وتلميحات لا داعي لها سوى إظهار ثقافته الواسعة فمثلاً ماذا يستفيد القارئ من وصفه لمؤلفات محمد بن عبد الوهاب بأنها : «رسائل ربما يقرأها أولئك الذين زاغت قلوبهم عن الدين من أجل تنويرهم ، والانتوبيان الذي يخطاً غالباً بحق قوانين مجلس دورت Dort الكنسى» ، لقد كان الكتاب في العهد الفكتوري يتكلفون في كتاباتهم فيقولون مثلاً «الأطراف السفلية» بدلاً

يعطى بلجريف للحقائق أهمية كبيرة بقدر ما كانت تهمه تسطير إنطباعاته ، وغالباً ما نجح في هذا الموضوع ، سواءً أخطأ أم أصاب .

داوتي



داوتي في أواخر عمره ويبدو هادئاً ولكنه يقطن صورة رسماها إريك كينتختون عام ١٩٢١.
«المتحف الوطني للصور بشدن»

ولد تشارلز مونتيجو داوتي Doughty في مقاطعة سافولك Suffolk بإإنجلترا في أغسطس عام ١٨٤٣ من عائلة مالكة للأراضي وكان معظم أولادها قد اشتغلوا في خدمة البحرية البريطانية والكبسة [الإنجليكانية] ، وذهب داوتي إلى جامعة كمبردج ودرس الجيولوجيا ، وفي أثناء دراسته قام برحلة استكشافية إلى المناطق المتجمدة في النرويج وبينما كان في بداية العشرين من عمره ، قرر الانصراف لخدمة لغته الوطنية كما يفرض عليه واجبه الوطني في هذه الحياة ، فاللغة الإنجليزية القديمة قوية وتزخر باللب والمنانة واعتبر هذه الخدمة واجباً وشرفًا ، وقد كتب في أواخر أيامه : «انه من الواجب على كل من يحب وطنه أن يستعمل أداة التفكير عنده وهي لغته الأصلية بأدب وتميز وأن يحافظ على وقارها نقياً ولاماً وعليه أن يقى ذلك في ذهنه على الدوام ... ويترك كل ما يتعلق بالكلام الذي يدل بالتأكيد على تدهور الناس والخطاطفهم» .

وقد أمضى داوتي بعضاً من السنين يعد نفسه لهذا المهدف ، فدرس الهولندية

لقد كانت تلك الرحلة هي الأخيرة للبلجريف ، فلم يرجع إلى الجزيرة العربية بعدها ، [وحال وصوله إلى أوروبا] ، قدم تقريره إلى الإمبراطور نابليون الثالث ، والذي تضمن خطة لتوحيد مصر وسوريا ووضعهما تحت الحماية الفرنسية . حاول بلجريف بعد ذلك أن يعمل فيبعثات التبشيرية في البلاد العربية ، ولكنه فشل في ذلك ، وبعدها ترك الكنيسة الكاثوليكية ، وجاءه الآباء اليسوعيين ، وما حصل للبلجريف بعد ذلك هو خارج نطاق هذا الكتاب ، إلا أنه يمكننا أن نقول أنه قد عين في منصب قنصل بريطانيا في مقاطعة شرق أناضوليا من عام ١٨٦٦ م حتى عام ١٨٧٣ م ، وقد تزوج وأنجب ثلاثة أولاد ، ونقل عمله بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية ، ثم نقل إلى الفلبين ليشغل نفس المنصب حتى عام ١٨٧٨ م ، وكان هناك اقتراح بعودته إلى الشرق الأوسط ليتسلّم وظيفة مساعد للمجنral جوردون Gordon [في السودان] ، ولكنه ذهب إلى بانكوك ، ثم أخيراً نقل إلى «مونتفيديو Montevideo» كوزير بريطاني فيها ، حيث توفي هناك عام ١٨٨٨ م ، ونقل جثمانه إلى لندن ودفن في ضاحية فولهام .

وعلى أي حال فقد قال أصدقاؤه : إنه ليس هناك باشا يستطيع منعه من الانضمام إلى قافلة الحج المتجهة إلى مكة ، بشرط عدم الاقتراب من الأماكن المقدسة في الحجاز ، وهكذا تذكر داوي في زي رجل سوري متوجه الحال ، وانضم إلى جماعة الإيرانيين في القافلة معتقداً أن ذلك سيقلل من عوامل إثارة الشبهات حوله ، وقد أخذ معه في رحلته ، ١٣ جنباً ذهباً ، ودفعرين لتدوين ملاحظاته ، آلة السدس^(٣٠) ، وباروميتراً معدنياً ، وميزان حرارة ، وبندقية صغيرة ، ومسدساً أخفاه تحت قميصه ، وصندوقياً للأدوية ليتظاهر بأنه طبيب ، وليكتس بعض المال من عمل كهذا ، وقد حمل معه رسالتين في الطب العربي ، ونسخة من قصص كاتربرى لتشوسر^(٣١) . وبالرغم من أن الأغراض التي أخذها معه تعتبر قليلة ، إلا أنها كانت كبيرة إذا ما قورنت بما يأخذنه البدو الذين يستجولون عليهم في رحلاتهم . وقد تألفت القافلة من ٦٠٠ حاج و ٣٠٠ حارس ، مقتنان من الخيالة بالإضافة إلى مدفعين ومائة رجل من عقيل ، وهم جماعة من البدو من ذوي القوة والشकيمة . وفي أثناء الرحلة تسمى داوي باسم خليل وهو اسم يستعمله سكان بلاد الشام على مختلف دياناتهم ، وحضره أصدقاؤه من جماعة العقبلات ، والويل لم يسقط في أيديهم ! إنه ميت لا محال .

إن فكرة الانضمام إلى قافلة الحج أعجبت داوي كثيراً فقد ذكرته بقصص تشوسر . وفي تلك الرحلة ذكر لنا داوي كيف أن الكلاب التي رافقت القافلة سارت مسافة ألف ميل ما بين دمشق والمدينة ذهاباً وإياباً ، وكيف أن العبيد كانوا يجلبون الفحم للدخني التارجيلة ، وعن الديك الأبيض الذي رافق الحاج الإيرانيين . وذكر أيضاً أن سيدة إيرانية توفيت في الطريق ، فما كان من خادمتها إلا أن ذبح جملًا وخيط جثتها

(٣٥) جهاز لقياس ارتفاع الأجرام السماوية (المترجم) .

(٣٦) جفري تشوسر : شاعر الإنجليزي عاش تقريباً من عام ١٣٤٠ - ١٤٠٠ م وباعت أبو الأدب الإنجليزي وقد ألف «حكايات كاتربرى» التي جمعها من قصص القرون الوسطى وقبل ذلك كان قد كلف بمفهوم سلسي للقيام برحلات برحلات إلى عدد من الأقطار الأوروبية ، من فرنسا وإيطاليا ، حيث تحصل فيها على معرفة متقدمة تقريباً عن ذاتي ، كبير شعراء إيطاليا وبوكاتشيو ، أول النثر الإيطالي الكلاسيكي Who did What, P. 68 - المترجم.

والدنماركية ولغات أخرى في سبيل فهم لغته الإنجليزية ، وقضى سنة واحدة في جامعة أكسفورد ، درس خلالها الشعر في العصور الوسطى وفي العصر الأبيليزياني^(٣٢) . وفي مقدمة الذين اهتم بدراساتهم تشوسن Chaucer ، وسبنسر Spencer . كما أنه كثيراً ما فكر في موضوع يستطيع أن يكتب عنه كاتب الشعراء السابقون . بدأ داوي رحلاته في أسبانيا ، وإيطاليا ، وهناك شهد انطلاق الجمجم من بركان فيسوفيس Vesuvius عام ١٨٧٥ ، وبعد ذلك ذهب إلى اليونان ثم إلى مصر حيث وصل القاهرة في بداية عام ١٨٧٦ ، ثم عبر صحراء سيناء حتى وصل إلى مدينة البتراء^(٣٣) ، وهناك سمع عن مدينة أثرية أروع من البتراء يقال لها «مدنائن صالح» قرب الحدود الشمالية للحجاج^(٣٤) . وت تكون مدنائن صالح المشهورة في الكتب الإسلامية من سبع مدن كبيرة منحوتة في الجبال ، وقد اشتهرت تلك المدن وأصبحت مراكز تجارية غنية لوقوعها على الطريق الرئيسي لتجارة البخور بين جنوب الجزيرة العربية وكل من القدس وممفيس . ودعا النبي صالح «أهل هذه المدينة للهداية ولكنهم سخروا منه واستهزءوا به ، وطلبوا منه أن يربّهم علامه نبوته ، فأظهر لهم ناقة حيل من بين الجبال ، ولكنهم نحروها . فانفلق الجبل ليحتضن حدين الناقة ، ويقال : إن بُكاء ذلك الجنين لا يزال يسمع إلى اليوم !»^(٣٥) فغضب الله على فعلتهم وأرسل عليهم ريحًا صريراً عاتية فدمرت بيوتهم وجعلت عاليها سافلها^(٣٦) . ولم ينجح كل من بوركهارت وبرتون في الوصول إلى هذه الانفاس ، أما داوي فقد عزم على مشاهدتها بالرغم من رفض السلطات التركية ، التي كانت ما تزال تسيطر على معظم الشرق العربي ، السماح له بالسفر إليها .

(٣٠) الإمبراطورة الأولى ملكة إنجلترا وأيرلندا في الفترة من ١٥٥٨ - ١٥٥٣ م (المورد ، ص ٢٩ من معجم الأعلام) - المترجم .

(٣١) يعتبر السويسري يوهان بوركهارت أول رحالة غربي يصل إلى البتراء عاصمة الأنباط وذلك في عام ١٨١٢ (المترجم) .

(٣٢) تقع مدن صالح (الحجر) على بعد ٣٠٨,٢ ميل من معان جنوب الأردن و ٢٠٧,٧ ميل من المدينة المنورة (Western Arabia, P. 523) - المترجم .

(٣٣) صحيح أن الناس في تلك المنطقة يتناقلون هذا الادعاء ، ولكنه لا يزيد عن كونه خرافات ، وأما عن الناقة ، فاقرأ قوله تعالى في سورة الأعراف من الآية (٢٣) إلى الآية (٢٩) - المترجم .

(٣٤) الصحيح أن أهل الحجر قد أحذتهم الصيحة (سورة الحجر ، آية ٨٣) - المترجم .

زيد^(٣٨) وصفه داوي ، أن له خدين غائرين ، وعيين كالحتين ، بلاده لا تخضع لقانون ، ويعملها الفقر والجوع ، أهم عذاء عنده ، احتساء القهوة من الصباح وشرب الدخان ، فالصبر هو سيد الفضائل عند البدو ، وبالصبر والشجاعة والصمود يتحمل الجوع ، ودائماً ما يتشارج مع زوجته فيتوسط خليل للصلح بينهما ، وبالرغم من حالة الفقر التي يعيشونها ، فإن زيداً هذا قد وعد داوي بتزويجه من سيدة إذا رغب في العيش معهم ، ويبدو أن داوي قضى وقتاً ممتعاً في هذه الفترة بالرغم من أنه تخللتها بعض الخلافات مع زيد البخيل ، فقد استمتع بالاستماع إلى قصص البدو التي اعتبرها دروساً للمسافرين ومدرسة للحياة ، لكنه وجد أن موسيقاهم ليست جذابة مثل أحاديثهم ، فصوت الرابية مع صوت المغني مزعج ومثلي النهيق ، وقد شاهد داوي ، النساء يعلنن روث الحمير حيث يقدم مع الحليب للمربيض ، وكان حاضراً عندما أغار [على مضارب زيد]^(٣٩) ماء وستكون هذه القلعة مركزاً له ، حتى تعود القافلة من الحج ، وقد تحول جماعة من الغزاة وأخذنوا معهم عدداً من الإبل ، والغريب أن أحداً لم يحرك ساكناً ، وكل ما عمله الخامرون ، هو توزيع ما تبقى من الإبل فيما بينهم ، وخلال تجواله مع هذه الجماعة من مدينة «تيماء» التي ذكرت في سفر التكويرين^(٤٠) .

وما أن حل شهر أبريل حتى بدت القفار شاحبة تحت حرارة الشمس الحمراء «... وبدأ الطقس كألواناً نتنفس اللهب وقد بقيت الــثــيــرــ يوماً بكامله ولا أعرف كيف بقيت حياً ، مع أنني أعاني من صعوبة التنفس ولم أستطع الأكل» . وقد قرر داوي الرجوع إلى مداين صالح وهو عازم على السفر إلى الساحل ليركب الــبــرــكــ الــبــرــ الــبــرــ مصر ، وقد مر عليه يوم عصيب ، تعرض فيه للإهانة ، والحرمان من الماء ، وفي ليلة من الليالي سمع الناس يتحدثون ويفكرن في قتلــهــ ، وقد أيقـــنــ أنه لا يستطيع النجاة من حرارة الجو في السهول الساحلية ، فقرر العودة والتوجه إلى المناطق المرتفعة بحثاً عن الجو البارد .

(٣٨) تنتهي هذه الجماعة إلى فخذ القراء من قبيلة عزه (المترجم) .
(٣٩) سفر التكويرين . الاصحاح (٢٥) فقرة (١٥) ، ويلاحظ هنا أن تيماء لم تترك في نفسه إبطاعاً حسناً فنــمــ أهــلــها وتحارــهاــ بــكــلــمــاتــ دــاــيــةــ لــاــ دــاعــيــ لــتــرــجــمــهاــ (المترجم) .

داخل الجلد غير المدبوغ وذلك لكي يحمله إلى الأرضي المقدسة . وقد كانت المسيرة طويلة حيث يستمر سير القافلة أحياناً مدة ٦٤ ساعة كل ٦ ساعات ويكون التوقف عادة لمدة قصيرة ، «يعقبها حينئذ فترة قصيرة من الجهد والعناء يستعد فيها الركــبــ للــرــجــيلــ .. بعضــهــ يــنــادــيــ وبــعــضــهــ يــجــريــ بالمــصــايــعــ .. وجــلــبــةــ مــتــوــاــصــلــةــ ، يــخــتــاطــ فــيــهاــ أــصــواتــ النــاســ معــ هــدــيرــ الجــمــالــ ، أماــ الــحــيــاــمــ فــإــنــهاــ تــحــمــلــ فــوــقــ رــءــوــســنــاــ» .

وعند نهاية شهر نوفمبر عام ١٨٧٦ وصل خليل إلى مداين صالح وقد علم البشا الذي يقود القافلة - وهو شخص حقير ومتناقض يلعق الــدــهــنــ منــ كــلــ ذــقــنــ - أن دــيــاحــيــاــ نــصــرــاــيــ - شــرــكــهــ تــحــتــ إــشــرــاــتــ رــحــلــ مــغــرــبــيــ - كان مــســؤــلــاــ عــنــ قــلــعــةــ بــنــيــتــ حــوــلــ بــيــرــ^(٤١) مــاءــ وــســتــكــونــ هــذــهــ الــقــلــعــةــ مــرــكــزاــ لــهــ ، حتى تــعودــ القــافــلــةــ مــنــ الــحجــ ، وــقــدــ تــحــوــلــ دــاــوــيــ فــيــ الــمــنــطــقــةــ مــســتــســخــاــ الــكــتــابــاتــ الــقــدــيــمــةــ وــالــرــســوــمــ الــمــنــقــوــشــةــ فــيــ وــاجــهــاتــ الــمــقــابــرــ الــلــنــحــوــتــةــ فــيــ الــجــبــالــ . ولم يــعــرــضــ دــاــوــيــ لــأــيــ خــطــرــ ، مــاــ عــدــ الــغــضــبــ الــفــجــائــيــ مــنــ حــارــســهــ : «... مــاســكــاــ بــلــعــيــتــيــ كــالــكــلــبــ الــمــســعــورــ ، فــيــدــعــنــيــ هــذــاــ الــوــحــشــ بــعــنــفــ ، هــنــاــ وــهــنــاكــ ، وــهــوــ فــيــ مــنــتــهــيــ الــحــفــارــةــ مــنــ الــغــضــبــ» ، وعلى أية حال ، فقد كانت هذه فقط المرة الأولى فيما وقع له في خلال الثانية عشر شهراً التالية .

لم يذكر لنا داوي عن أهدافه ولا عن السبب الحقيقي في اتخاذ قراراً بعدم العودة مع الحجاج إلى دمشق ، ولم يبال بتحذير صديق ، أوضح له تماماً حياة الــبــدــوــ الــفــقــيرــةــ وغير الــوــدــيــةــ تــجــاهــ الــآــخــرــيــنــ ، فــهــيــ حــيــاــ جــاــفــةــ وــتــعــيــســةــ وــقــالــ لــهــ : أنــظــرــ بــأــيــ طــرــيــقــ يــأــمــلــونــ فــيــ الــعــيــشــ .. بافتراض بعضــهــ يــأــفــســدــ الــعــصــبــ ، وــلــيــســ مــنــ الصــعــبــ عــلــهــمــ أــنــ يــقــطــعــواــ الــمــســافــاتــ مــشــيــاــ عــلــ الــأــقــدــامــ دــوــنــ شــرــبــ ، وــيــأــكــلــوــنــ مــاــ يــجــدــوــنــ فــيــ الــطــرــيــقــ ، هــذــاــ فــقــطــ إــنــ وــجــدــوــنــ شــيــئــاــ يــؤــكــلــ ، وــقــدــ اــنــضــمــ دــاــوــيــ إــلــىــ جــمــاعــةــ صــغــرــةــ مــنــ الــبــدــوــ ، عــلــ رــأــســهــ شــخــصــ اــســمــهــ

(٤٢) هذه القلعة لــأــرــالتــ قــائــمــةــ بــجــانــبــ مــخــطــةــ ســكــةــ حــدــيدــ الــحــجــارــ وــقــدــ رــمــتــ مــؤــخــراــ مــنــ قــلــيــةــ الــادــارــةــ الــعــامــةــ لــلــأــثــارــ وــالــمــاــخــافــ بــالــمــلــكــةــ الــســعــوــدــيــةــ ، وــيــوــســطــهــاــ بــرــىــ يــعــتــقــدــ أــنــ هــيــ النــاقــهــ وــيــوــجــدــ إــلــىــ الــجــنــوــ بــمــنــهــ بــرــكــةــ كــبــيرــةــ ، وــقــدــ بــنــاــهــ أــســدــ بــاــشــاــ بــنــ الــعــظــمــ وــالــدــمــشــقــ (١١٥٦ــ ١١٧٠ــهــ) حــســبــ دــكــرــهــ اــبــنــ الــقــارــيــ فــيــ كــتــابــ الــوــرــاءــ (أنــظــرــ Ghabban, P. 264) - المــرــجــمــ .

والحمى ، ويقول داوي : «كم هي غريبة وديان خير الربطة في وسط الصحراء العربية الجافة ، لقد شعرت بشيء ثقيل كأنه شيطان يقع فوق قلبي ونحن نسير في الجو الحارق الميت» .

لقد كان داوي محظوظاً عندما وصل إلى واحة خير حياً ، فقد بعثه ابن رشيد مع ثلاثة من الرعاع الذين تخلصوا منه عندما حانت لهم الفرصة ، حيث تركوه [في وسط الصحراء] ، وعلى أيام حال فإن داوي في هذه المرة أصبح حذراً ، فلم يتبعج هناك بنصرانيته ، ووجد بعض البدو الذين عطفوا عليه وأخذه أحدهم إلى خير .

كانت خير حينذاك تحت سيطرة الأتراك ، واعتتقد داوي أنه سيعامل معاملة حسنة ، وربما كان توقعه صحيحاً لو أنه لم يخبر الحكم في الحال أنه نصراني وكالعادة رفض أية مساومة ، فهو مفتر بنفسه ، وغير مبال تقريباً بالمشاكل التي يخلقها لنفسه ، فما كان من الحكم التركي ، إلا أن أمره بترك خير ، ولكنه رفض ، وعندما لم يكن يوسع الحكم النجني المسكين ، أمام هذا الموقف الخرج له باعتباره مثل الدولة ، إلا أن أخذ ما عند داوي من نقود واحتفظ بها في مكان أمين وجمع بقية أوراقه وأرسلها إلى رئيسه باشا المدينة ، وكان على داوي أن يتضرر صدور الأمر بشأنه ، فبقى في خير ستة أسابيع لم تأس معاملته فيها إلا من الحكم الذي ضربه أكثر من مرة ولكن ليس بشدة خوفاً من الكلام الناس .

وفي خلال تلك الفترة تعرف داوي على أعز صديق له قابله في الجزيرة العربية ، وهو العم محمد النجومي ، وكان محمد هذا جندياً متყعاً ، وكانت يقضيان الوقت بالعمل في البساتين ويتحادثان سويةً وهما يستغلان ، وقد أخرجه النجومي ، أنه عقب إحدى المعارك قطعت أذني رجل ميت من الأعداء وبعث بهما إلى المدينة ، وروي داوي لمستمعه ، حكاية يشك في صحتها كثيراً ، فقال : «لقد أخبرت الرجل الطيب ، كيف أن الشيوخ [البناء] في بلادي ، كانوا يذهبون لصيد الثعلب ، حيث يمتطون حيوفهم

في نهاية شهر مايو ، قام داوي بجولة في منطقة الحرث^(٤٠) ، لمدة أربعة أشهر ، فوجدها أرضاً قاحلة لا حياة فيها .. نظمها الصخور البركانية السوداء . وقال بأنها طبيعة لا تبسم .. مقرفة .. محقة ، ومرعبة . وقد مر داوي بحادثة غير سارة عندما اتهمه بدوي مرة بأنه قد تركه في البرية وحيداً ، ولكن هيئة من الشيوخ برأت ساحتة ، كما أنه مر بلحظة خطيرة عندما ورد بها عن قرب وقوع غارة عليهم ولكنه وجد النساء يختنه على الهرب من وجه الغزاة حتى لا يصيبه أذى ، كما صاح الأطفال عليه : «أركب بسرعة وأهرب عنهم يا عم خليل» ، وهذا يوضح العلاقة الودية التي تتمتع بها داوي مع نساء البداية الالاتي يتداولن الحديث معه ويسأله ، وقد سأله مرة : هل هناك نساء نصرانيات يا حليل ؟ وهل يرى القمر في بلاد الغرب .

في شهر أكتوبر دخل داوي مدينة حائل في جبل شمر ، وكان حاكماً في ذلك الوقت محمد بن رشيد ، الذي قال عنه البدو : إنه ارتكب جرائم لم تُعرف من قبل . حتى إن داوي شبه وصوله إلى السلطة كإحدى بطولات القتل والسحر في القرون الوسطى ، ولكن هذا الحكم المرعب قد استقبل داوي بلطف ، وأكرمه حتى إنه وعده بمراكز عالي في حكومته ، إذا وافق على الدخول في الدين الإسلامي ، أما الأهلالي فكانت علاقتهم به سيئة جداً ، لأنهم يعتبرون وجود النصراني بينهم إهانة ، وكان داوي قد رفض الظاهر بالانباء لغير دينه ، وقد ضرب مرتين وسرق مرتين ، مما دعى الأمير للتدخل لحمايته ، مع أنه لم يكن ضيقاً لأنه جاء بغير دعوة ، وقد زوده الأمير ، بخطاب أمان وأمره بالmigration ، وفي ذلك اليوم كان داوي قد أنهى سنة كاملة في الجزيرة العربية .

كانت وجهة داوي واحة خير المعروفة وهي مدينة اشتهرت في التاريخ ، حيث كان فيها مجموعة من اليهود الذين حاربوا الرسول عليه السلام شخصياً كما اشتهرت بالتمر

(٤٠) يشير داوي بذلك إلى حرة عويرض التي دعاها في خريطته باسم حرة المواهيب نسبة ، كما يدوي ، إلى فخذ المواهيب من قبيلة بني الدين يقطنون في قرية تربة الواقعة في الحرث (أنظر المخارطة الملحقه في الجزء الثاني من كتابه (Arabia Deserta) - الترجم

وهم لا يسون معاطف حمراء ... ومعهم مائة كلب تجري أمامهم وهي تبع .. تغزو فوق الأسوار والجداول ، وكل ذلك في سيل المغامرة». وقد رفض النجمي أي مكافأة من داوي ، ولكنه طلب منه شيئاً واحداً وهو أن يقول : «الله يذكره بالخير» وذلك بعد أن تفرق بينهما الحياة والموت والجانب غير الإنساني في الديانة وهو شيء محزن انه عندما زار فليبي تلك المنطقة بعد مرور سبعين عاماً خلت ، سأله عن النجمي فأخبروه أنه قُتل غرداً ، بينما كان يلعب الداما^(٤١).

نظر حاكم المدينة التركى نظرة عطف في قضية داوي ، ولكنه كمسؤل رسمى لا يستطيع التسامح بوجوده في الأراضي المقدسة ، فأرسل أوراقه إلى خير ، وطلب من حاكمة أن يأمره بالرجوع إلى حائل ، رفض داوي مغادرة خير ، إلا بعد أن تعداد له كل نقوذه وعندما تم الأمر فإن رحلته إلى حائل لم تكن رحلة سهلة ، فقد تعرض مع رفقاء إلى ظمآن شديد ، فاضطروا ولحسن حظهم ، أن يشربوا ماءً مليئاً بالحشرات كما حدث مرة أن ثار شجار بينه وبين رفقاء .

دخل داوي مدينة حائل مرة ثانية في اليوم الأول من شهر أبريل ١٨٧٨ ووجدها شبه خالية ، فقد كان ابن رشيد خارجاً في حملة عسكرية مما حرم داوي من حماية الأمير وجعله عرضة لتهكم الناس المتucciبيين عليه ، وقد طلبوا منه عدة مرات أن يدخل في الدين الإسلامي حتى إن أحدهم جاء بسكن ، ليجري له عملية الختان بالقوة ، كما وأنهم عرضوا عليه بعض المال ، فأجاب : «لو انكم تعطوني هذه القلعة ... والخفر وأكياس الفضة التي تقولون أنها فيها ، فإني لن أغير ديني» ، «إحس .. إحس .. إحس .. إحس» صدرت من الحاجر الغفيرة ، فازدرت بنفس واحد الدين القيم والكتوز المكتوزة في هذه الدنيا !! وبصريات مرعبة لعنوا المسيح

(٤١) نفع الفترة التي كان داوي يزور فيها خير ، فيما بين عامي ١٨٧٧ و ١٨٧٨ وقد غادرها في منتصف مارس ١٨٧٨ ، بينما كانت زيارة هيلي لها في الشهر الأخير من عام ١٩٥٠ (أنظر: Freeth and Winstone: P. 243 - 8 and Phibby, P. 47) - المترجم

الدجال». لابد وأن داوي لم يتسرّع كثيراً عندما أمر بمعادرة البلدة في الحال . وهكذا غادر داوي مدينة حائل مع نفس الرجلين اللذين جاءا به من خير ، على كره منها ، وكان داوي يسير وراءها متعرضاً ، فقد كان يعاني من حر الرمضان ومن إصابة عينه بالرمد حتى إنه لا يصر رفيقه إلا بصعوبة ، كما كان أنفه ينزف دماً حتى إن أحس أن قلبه يكاد ينفطر ، وأخيراً تركه الرجال بعنابة جماعة أخرى كادت تقتلها لو لا تدخل سيدة لحماته ، ثم وجد من يأخذه إلى مدينة بريده ، ولكنه حذر من إشهار نصراناته ، لأنه لم يسبق لأحد من غير المسلميندخول هذه المدينة . وبينما هو داخل بريده أذن للصلوة ، وكان داوي لسوء حظه ، في محل عام ، وكان واضحاً للجميع أنه ، لم يذهب إلى المسجد ، وعندما واجه تحدياً ، رفض ، كما هي عادته دائمًا ، أن ينكر أنه نصراي .

وقد تجمع حوله بعض الناس ، وتعرض داوي للتوبيخ والضرب وسلبت كل أغراضه ، ولكن الأمير تدخل وأعاد إليه ما فقده ، غير أنه طلب من هذا الزائر المزعج مغادرة البلدة ، وسمح له أن يبقى فيها لمدة يوم واحد لرؤيه هذه المدينة المدهشة بأزدهارها ، ولكن ما أن دخل وقت العصر حتى تجمع الناس عليه مرة أخرى وطالعوا بقتله ، غير أن إمرأتين في البيت ، وفقتا بجرأة مع هذا الغريب وصاحتا عليهم : «من أنت يا هم .. يا قليلي الحياة حتى تقذفوا سكن الحريم بالحجارة» . وما أن عاد مضيفه حتى تفرق الجميع .

بعد ذلك عين له الأمير دليلاً يأخذه إلى مدينة عنيزه وهي على مسافة قصيرة إلى الجنوب فأخذنه الدليل ولكنه تركه خارج البلدة ، وهكذا أصبح داوي الآن وحيداً ولا يملك درهماً واحداً وليس هناك أحد يحميه ، ولكنه الآن قد تعلم طبائع العرب وعاداتهم ، فتوسل شربة ماء من بيستاني وبذلك ، فقد تأسست علاقة الضيافة بينهما ، وقد أرسله مضيفه هذا فيما بعد إلى زامل أمير عنizerة .

لقد كان زامل رجلاً لطيفاً وكريماً ، فلقى منه ومن كثير من أعيان البلد ، معاملة

وبعد عشر سنوات [من مغادرته الجزيرة العربية] ظهر كتابه «الصحراء العربية» – «Arabia Deserta» – « مشاهدة رجل جائع وقصته من أشد الناس حزناً » – ولقد أهتم داوي كثيراً بالصيغة اللغوية التي كتب فيها كتابه ، وكان اهتمامه بالأسلوب أكثر من اهتمامه بالمعلومات التي جاء بها ، ورفض رفضاً قاطعاً طلب الناشر بتغيير أسلوبه في التعبير ، وقال : ياماً أن تنشره كما هو دون تغير كلمة واحدة ، أو لا تنشره أبداً . وقال لورانس عن كتاب داوي هذا : « إنه كتاب ليس كالكتب الأخرى ، ولكنه شيء نادر ، إنه الخيل نوعه ». .

لم يضف داوي أية معلومات مهمة عن جغرافية الجزيرة العربية إلا أنه رسم لنا صورة فريدة من نوعها ، كما أنه لم يحاول أبداً أن يفعل كما فعل كثير من الكتاب الآخرين ، بالحكم على البدو من ظاهر حياتهم ، بأنهم يعيشون حياة مثالية في حريتها ورمانسيتها ولكنه ، وكمن ينظر من الداخل إلى الخارج ، وصف الشدة والمعاناة في حياتهم ، وشهد كرمهم ، وأوقات راحتهم وكيف يفرحون لأشياء بسيطة ، كوجبة طعام جيدة ، أو لظل يستريحون فيه ، كما أظهر لنا المفارقات في حياتهم الاجتماعية ، كالجشع والكرم ، الجبن والشجاعة المتهورة ، الغلطة واللطافة ، كما رأى داوي مقدار الخطورة في مبادرة الشخص في الكشف عن هويته ، وأعرب عن دهشته كيف كان مضيقه يسأله أين قضى الليلة السابقة وماذا أكل ، عاقداً العزم على أن يقدم له إذا كان ذلك ممكناً ، طعاماً أفضل . وبإثناء الجزيرة العربية ، أين هو المكان الذي يستطيع فيه المرء أن يعيش لمدة ١٨ شهراً وهو لا يملك شيئاً من المال ، دون أن يجده حقيقة؟ .

ومثل البدو ، فإن الجزيرة العربية نفسها موضوع رئيسي في الكتاب ، ولأن داوي كان جيولوجياً ، فقد أدرك الرتابة الفائقة لصحراء التية القاحلة ، الحيفة ، حيث أن يد كل واحد مستعدة لتطيش بالآخر ، فهي قفر قاحل ، رمال وغبار ، يابسة بفعل الجفاف المستمر ، تحت ظل سماء شبهاء على الدوام ، أكثر من كونها زرقاء ، وهي

طيبة وذلك لأن مجتمع المدينة كان عبارة عن مجتمع تجاري ، اعتاد أفراده على التعامل مع الغرباء غير أن عم الأمير ، قد أثار بعض الناس المتعصبين ضده فقد غروا منزل داوي بالحجارة وسرقوا ساعته وما يملكونه من مال ولم يتركوا له سوى أقل من جنيه واحد ، وقد وجد الأمير نفسه مضطراً لأن يأمره بالmigration ولكن الأمير وافق على اقتراح من أصدقائه ، أنه ربما يدعوه للعودة مرة أخرى ، وبما أن دخوله للبلدة غير مأمون العواقب ، فقد عاش داوي لمدة ستة أسابيع في بستان خارج المدينة ، استقبل خلالها كثيراً من الزوار . وفي الخامس من يوليو ١٨٧٨ غادر داوي في آخر رحلة له في الجزيرة العربية .

لقد هيأ له أصدقاؤه في عينية مرافقه قافلة محملة بأطنان من الزبدة^(٤٢) ، في طريقها إلى الحجاز وزودوه بجمل ، وكان داوي يسير خلف رفقاء ببطيء ، فقد كان يعاني من قرحة مؤلمة وقد عرضه كلب المسعور في أرض العدو وعلى كل حال فقد قارب داوي على الموت مرة لسبب آخر عندما عزم أحد الأشراف وكان مختل العقل على إدخاله في الدين الإسلامي وصاح عليه يطالبه بالشهادة وإلا فإن عقابه سيكون الموت ، وكانت معه سكين ثم تجمع أناس آخرؤن حوله ، فصاح بعضهم : «دعونا نقطع هذا الملعون لربا إربا» وسرقوا منه مسدسه الذي احتفظ به دون أن يستعمله مطلقاً خلال كل ما مر به من أحداث ، وكاد أن ينسدل الستار على مغامراته وتنتهي هناك لو لا أنه وصل لحسن حظه ، زنجي مسن وهو خادم شريف مكة الذي أصر على أخذنه إلى مقر سيده في الطائف وهناك استقبله الشريف استقبالاً حسناً ، وبقي في ضيافته حتى استرد صحته ، ثم بعثه إلى جدة ، وفي الثالث من أغسطس عام ١٨٧٨ دخل داوي إلى القنصلية البريطانية .

(٤٢) الصبح ، كما يينو لي ، أن هذه القافلة كانت محملة بأرطال من السمن وهو من المواد الرئيسية التي تبيعها البادية على الحاضرة (الترجم).

لقد حاولت قدر المستطاع أن أروي قصة داوي بنفس كلماته ، ولكن لكي نحصل على صورة صحيحة تطبع في الذهن عن أسلوبه الذي هو مزيج من كلمات سаксونية قديمة ، وإنجليزية من العصر الفكتوري المبكر ، وأخرى عربية ، فإنه لا بد لنا من الاستشهاد بما كتبه بالتفصيل ، وفيما يلي فقرة تمثل أسلوبه ، وليفهمها المرء فإنه لا بد أن يعرف أن كلمة «منزل» تعني مكان الخيم وكلمة «بيت» تعني دار ، و «غم» تعني قطبيع . ويقول داوي عن الكلاب التي ترافق القبيلة : «ما أن تخط الرحال ولا تكاد تنصب الخيام ، حتى ترحف الكلاب إلى الظل ، فتحممش الرمل الحار وتحفره بمخالبها لتهيء لها مكاناً بارداً في الطبقة السفلية . وإذا كان هناك كلب تائه عن أهله في «المنزل» ويجري بقرب خيام غريب عنه ، فإن أهله يصيحون عليه : «أهلك ... أهلك» . إن كلاب البدو العدونية ، التي تشمسم عراقيب الناس الغرباء ، تكون بمثابة الشرطة للخيام ، ويلاحظ أن بعضها منها خطيرة وخطافة بأسنانها ، وقد يمر رجل غريب ويناوش الكلاب بعصاه فينهره أصحابها أما إذا لم يكن هناك في البيت إلا النساء ، فإنهن لا يفعلن شيئاً سوى أن ينظرن نظرة خبث أنوثي ، فما على الرجل الغريب حينها إلا طرد الكلاب بالحجارة ، وقد تصريح عندئذ أحدي النساء : «أوه ... أوه ، لماذا ترمي كلينا بالحجارة» . فيجيبها الرجل : «هذا الملعون يكاد يفترسني» وتقول المرأة : «ولكن لا ترميه بالحجارة» فبرد عليها : «إذا أصرخني عليه ، ياغبية ، وإلا فأنتي سأقصي عليه بهذا الحجر» ، فترد عليه : «وبحك ، لا تفعل ، أنه يأكل الذئب ، ويراقب العدو ، ويحرس بيتك والغم» ، فأرجوك يا هذا أن لا ترميه بحجر آخر» ، فيصريح الرجل عليها : «أيتها المرأة المجنونة ، قبل أن يأكلني فأنتي ساكسن كل عظم في جسمه ، ملعون لسانك ، كان بإمكانك أن تهرب بأقل جهد من هذا» .

بالنسبة للمسافر كما يقول : « هنا أرض موات ، فإذا لم يمت فيها المرء ، فإنه لا يرجع إلى بلده بشيء سوى الفتور الدائم في عظامه .

ربما لم يعان أحد من المستكشفين من النزل والهوان وقساوة الحياة مثلما عاناه داوي ، وحقيقة كما يقول : « لقد عشت في الجزيرة العربية يوماً سعيداً واحداً ، أما بقية الأيام فكانت كلها سيئة بسبب نعصب الناس » ، وعلى أيام حال ، فقد كان هو نفسه لا يقل عنهم تعصباً ، وقد انتقده بيرتون بحدة ، وقال إنه هو نفسه الذي جلب الشدائدين التي وقعت فوق رأسه ، وذلك بسبب عناهه وعدم استعداده لإعطاء أي تنازل ، ولكن مع ذلك فقد بقى داوي بطلأ . يقول لورانس ، إنه حتى بعد أربعين سنة [من مغادرته الجزيرة العربية] ، فإن البدو يذكرون في حد ذاته وما زالوا يتناقلون أخباره في الأماكن التي تنقل فيها ، وهناك شيء غريب ، بل رائع ، وهو بقاء رجل إنجليزي نبيل ووقد ولقifulf وصادق ، في مخيمات البدو وسط صحراء الجزيرة العربية ، وعلى أيام حال ، فإن داوي نفسه ، يبرز في هذا الكتاب بدون قصد منه ، كموضوع رئيسي ثالث إلى جانب البدو والجزيرة العربية .

أما قصة بقية حياته ، فإنها رويت باختصار ، فقد تزوج داوي بعد رجوعه من الجزيرة العربية (كان البدو يظنون أنه قد أجر زوجته في خلال رحلته) ، وعاش تقريباً معزولاً عن الناس ، وكرس نفسه لكتابه القصائد التي أمل أن تكون استمراً لما كتبه كل من تشورنر وسبنسر ، متخلاً تماماً ، كما لو أنهما قد كتبوا في الوقت الحاضر [أي زمن داوي] . وكانت قصيدة «The Dawn in Britain» ، طويلة Paradise Lost «الفردوس المفقود»^(٤٣) ، بينما توقع في قصائده الأخرى مجيء الحرب العالمية ورحلات الفضاء . وقد كان داوي لطيفاً وكريراً مع أولئك الذين ساروا على خطاه ، رغم أن اهتماماته ، فيما يبدو ، بالجزيرة العربية قد تلاشت ، وقد توفي داوي في مدينة

(٤٣) هذه قصيدة نظمها الشاعر الانجليزي جون ملون في عام ١٦٦٧م (المترجم)

Montgomery^(٤٤) . وبالرغم من أن فليبي عرف عنه عدم انسجامه مع زملائه في العمل ، إلا أنه بلا شك كان لغويًا بارعًا وإدارياً من الدرجة الأولى (وقد أدعى أنه أول اشتراكي ينخرط في الخدمة) .

في نوفمبر من عام ١٩١٤ م ، بعد إعلان الحرب ضد تركيا تم إنزال قوات بريطانية - هندية في العراق وسرعان ما احتلوا منطقة البصرة ، وقد أخذ الأتراك معهم عند إنسحابهم من البصرة كل السجلات الحكومية ، وغيرها مما يتعلق بالتنظيم الإداري للبصرة ، فأصبحت الحاجة ماسة إلى إعادة بناء التنظيم الإداري في المنطقة ، وكان فليبي من بين الذين اختيروا للقيام بذلك المهمة ، وقد وصل إلى هناك ليمارس أول تجربة له في حياته في البلاد العربية وكان ذلك في عام ١٩١٥ م وأنيطت به مهام عديدة كجمع الضرائب ، والإشراف على إصدار جريدة لصالح الدعاية البريطانية .

في نوفمبر عام ١٩١٧ م حدث ما غير مجرى حياة فليبي كلها ، فقد اندلعت الثورة العربية في شهر يونيو من العام السابق ، وكانت السلطات البريطانية قلقة جداً بسبب المنافسة القديمة القائمة بين شريف مكة ، وبين ابن سعود حاكم نجد ، وحاولت قدر الإمكان منع تلك الخلافات من أن تبدد جهد الأشراف في الحرب ضد الأتراك ، وحاولت في نفس الوقت جلب حاكم نجد إلى جانب الحلفاء . لم يكن هناك أي اتصال رسمي بين ابن سعود وبين بريطانيا لمدة أكثر من سنتين ، فتلقي فليبي الأوامر للذهاب إلى نجد لمعرفة الوضع السياسي هناك ، وقد وصل فليبي إلى العقير قرب البحرين في أحسن الملابس التقليدية للأمبراطورية البريطانية في الهند ، إذ كان يرتدي بنطلوناً قصيراً وقبعة ، وفي أول توقف له أثناء رحلته طالبه مضيفوه بأن يقلل من مظهره الأوروبي الجلي ، بارتداء الزي المحلي لتسهيل عملية تنقله في تلك الأرض التي لا يرحب أهلها بوجود نصريين بينهم ، وبعد رحلة دامت سبعة أيام على جل ، وصل فليبي إلى الرياض ، وقابل هناك لأول مرة ابن سعود ، عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن سعود ، ونذكر اسمه الكامل لكونه

(٤٤) بطل معركة العلمين في الحرب العالمية الثانية (المترجم) .

فليبي

فليبي إبان سنوات نشاطه الجم ، في العقد الرابع من القرن العشرين .



يحمل قبر فليبي في بيروت النقش التالي : «أعظم رحالة في الجزيرة العربية» ، والواقع أن ما ادعاه ابنه هنا ، له ما يبرره ، فلا يوجد هناك أحد من الكتاب الذين تحدثنا عنهم من رأى الجزيرة العربية بقدر ما رأى ، أو أن أحداً قد زار أخاه كافعل هو الذي غطى بزياراته كل ركن فيها ، ولا يوجد أحد منهم قد اخترقها عدة مرات من مختلف الإتجاهات كافعل هو أيضاً وأخيراً ، ليس هناك من بقي منهم في الجزيرة العربية أكثر من عشرين شهراً كافعل فليبي الذي بقي فيها معظم الأربعين سنة [التي قضتها بالشرق] .

ولد هاري سانت جون فليبي ، المعروف بـ «جاك» أو الشيخ عبدالله في سيلان عام ١٨٨٥ م ، وكان دائمًا يمزح مع نفسه فيقول : «إنني لست أنا ... وإنما أنا طفل سيلاني التقطته مرضية بالخطأً وبدون مبالاة» . بعد أن أتم دراسته في كلية ويستمنستر Westminster ثم في كلية الثالوث القدس بجامعة كمبردج ، التحق بالخدمة المدنية في الهند ، ووصل إلى يومي في ديسمبر عام ١٩٠٨ م وعندما تزوج ، كان شاهد العريس [في مراسيم العقد] ابن عمه ، الذي أصبح يُعرف فيما بعد بالمارشال مونتجومري

عسكرية ضد ابن رشيد الذي يحكم منطقة تمتد بين ساحات المعرك في العراق وفلسطين . لقد كان ابن سعود في موقف حرج جداً ، فقد كانت المساعدات البريطانية تؤلف نسبة كبيرة من خزاناته (...) لهذا فإن فليبي لم يجد صعوبة في إقناع ابن سعود بالقيام بالحملة العسكرية ، ولكنه رفض أن يأخذ فليبي معه لأن ذلك سيثير الشعور الإسلامي عند الأهلية هناك ولكنه وافق على أن يجهزه بقافلة لزيارة منطقة وادي الدواسر التي تقع على بعد ٥٠٠ ميل جنوب الرياض وذلك لمدة خمسين يوماً حيث إن هذه المنطقة غير موضوعة على الخارطة ، وقد جلب فليبي معه معلومات قيمة علمية وجغرافية ، كما أنه عقد العزم على أن يكون أول من عبر الربع الخالي .

وعند رجوعه [إلى الرياض] وجد فليبي أن الحرب [العالمية] عملياً قد انتهت تقريباً ، وأن النظرة السياسية [البريطانية للمنطقة] قد تغيرت ، فقد اعتبروا وجود ابن



جهاز من الناس وقد تجمعوا خارج قصر ابن سعود في الرياض للاحتفال بالعيد

أعظم شخص ظهر على مسرح الأحداث في الجزيرة العربية منذ أكثر من ألف عام ، إنه بطل محارب شجاع وحاكم حريء وشاعر فصيح ، يقف شامخ البنية بين أصحابه ، وكان إنساناً ذكيًّا حنكيًّا كريم الحلق لطيف المعشر ، كريماً ومصيافاً عاش في قصره المبني من اللبين في الرياض مع جنوده وخدمه ، وفي الصحراء عاش في خيمة تحت ضوء نجوم السماء ، قد نغالي إذا قلنا إن فليبي كان صادقاً في حب الملك عبدالعزيز ولكن حقاً كان واقعاً تحت تأثير شخصية ابن سعود الجذابة وقد أثبتت على الدوام اخلاصه وجهه لهذا الملك واحترامه للقيم الحضارية التي نشأ عليها وبال مقابل فإن ابن سعود ، قدر ثليبي وقدر معرفته وعلمه ، ودائماً ما كان يدعوه إلى مجالسه العائلية مع أولاده ، ففراه يلعب ويمزح مع الأمراء الشباب ، وكان أحد جلسات الملك الذين يحضرون في مجلسه الخاص .

كانت الخطوة الأساسية إن يصادف وصول بعثة فليبي إلى الرياض وصول بعثة قادمة من القاهرة عن طريق جدة ، ولم تجد تلك الخطوة طريقها إلى النور ، حيث إن شريف مكة أدعى أنه ليس لابن سعود سوى سلطة ضعيفة جداً على القبائل التابعة له ، وأن قيام مثل هذه الرحلة من الأمور المستحيلة . ولكن فليبي ، وبتشجيع من ابن سعود ، قرر وبكل حماس أن يثبت بنفسه خطأ تلك الفكرة وذلك بالسفر [براً من الرياض] إلى جدة ، وبتوقيت مناسب ، أخبر فليبي روساه بالخطبة وبطريقة لم تترك لهم مجالاً للتفكير في رفضها ، وجهزه ابن سعود بالجمال ومجموعة من الحراس ، وقطع فليبي مسافة ٤٥٠ ميلاً إلى الطائف في مدة خمسة عشر يوماً ، ولم تكن رحلة سهلة ، فقد وجد الحراس صعوبة في حراسة رجل كافر ، حتى إن بعضهم تردد في الأكل معه لخلاف يلوث طعامهم ، بالإضافة إلى ذلك فإنهم لم يلاقوا ترحيباً من القرى التي مرروا بها في الطريق ، ويعتبر وصول فليبي إلى جدة ، هو العبور الثالث للجزيرة العربية في خلال قرن واحد .

وبعد أن قام فليبي ببعض المهام السياسية في كل من القاهرة وجدة والقدس ، رجع إلى ابن سعود في خريف عام ١٩١٨ في مهمة جديدة ، لإقناعه بالقيام بحملة

Northcliffe ، وقد عرض عليها ، هذا اللورد مبلغ خمسة آلاف جنيه إسترليني مقابل سفرها إلى مكة ، ولكنها حسب روايتها ، رفضت وذلك لأنها كما تقول ، قد شعرت في آخر لحظة بتأثير الضمير لقوتها فكرة الادعاء بالإسلام ، وفي كتابها الثاني وصفت كيف أنها ألمحت تمرداً حدث على ظهر قارب شراعي في البحر الأحمر عندما كانت في طريقها لاستكشاف جزء مجهول في الجزيرة العربية ، ثم بعد فترة قصيرة سافرت إلى المغرب لكتابية قصة أحد قطاع الطرق المشهورين ثم عرضت عليها جريدة «الدليلي تلغراف» ، أربعة آلاف جنيه إسترليني لترافق فلبي في رحلته التي يعبر فيها الربع الخالي ، حيث يتسم فلبي بمهمة البحث العلمي ، بينما تولي هي التغطية الإعلامية على أن لا تحاط السلطات الحكومية التي سيمران بأراضيها ، علمًا بهذه الرحلة سلفاً . وحتى لا تثار الشكوك من حولهما ، فقد قرر فلبي وروسيتا أن يسافرا إلى نجد ، كل منهما مستقل عن الآخر ، فسافرت هي مع مصور سينائي إلى الخليج بينما توجه فلبي إلى جدة .

إن الخلافات القديمة القائمة بين شريف مكة وابن سعود ، تطورت إلى حرب انتهت باستلام القوات السعودية لمكة ، ومن ثم محاصرة مدينة جدة ، وقد عرض فلبي خدماته للوساطة بين الجانبيين ، وهنا حذرته الحكومة البريطانية بأن يتبعه فقط لأموره الخاصة وهدفه بقطع معاشه التقاعدي وبالإضافة إلى ذلك فإنه منع من السفر إلى المناطق الداخلية [من الجزيرة العربية] ، وفي عدن ، تقابل فلبي مع روسينا ، ولكن مشروعهما فشل مرة أخرى ، وقد بكت روسينا على مكتب الممثل البريطاني ، ثم غادرت مع مصورها إلى الحبشة في رحلة استكشافية ، وهنا تختفي روسينا من قصتنا حيث لا يتسع المجال لسرد مغامراتها مع ملوك البلقان ، وفي أمريكا الجنوبية بالإضافة إلى علاقتها مع أتاتورك وستالين وهتلر وموسوليني ، أما فلبي فقد عاد يائساً إلى لندن .

وبعد سنة ، استطاع فلبي خلالها الحصول على بعض المساعدات المالية ، فأسس شركة تجارية صغيرة في جدة التي اتخذها مقراً له معظم أيام حياته . وقد استورد السيارات وخطط لسحبها فوق التلال الرملية بوساطة قافلة من الجمال ، كما أنه ساهم

الرشيد ، أمراً يجب المحافظة عليه ، ليكون حاجزاً بين العراق الواقع تحت حكمهم ، وبين الخطر المحتمل من التوسيع السعودي ، وهكذا فقد استدعى فلبي ليتسلم منصبه الرسمي في بغداد ، وانغمس فوراً في الخلافات الدائرة حول تقرير مصر الحكومة العراقية ، وبينما هو في إحدى الحفلات الرسمية في تلك الفترة ، سمعه شخص ما ، يقول لمسؤول آخر : «لم أسمع ما قلته لي .. ولكن على كل حال فأنا لا أوفق عليه» . إن هذه الحادثة وغيرها تدلنا على أن فلبي لم يكن على وفاق مع المسؤولين في العراق ، وخاصة مع رئيسه في العمل . وأخيراً في يوليو ١٩٢١ اتفق فلبي مع رؤسائه ، على أن يرحل من العراق ، فأخذ إجازة وذهب إلى إيران ، واغتنم فرصة سفره مع مراسل صحيفة التايمز ، ليكشف أهم الأسرار الخرجية [للحكومة البريطانية] فيما يتعلق بالإدارة [البريطانية] في العراق .

لقد كان فلبي محظوظاً لحصوله على عمل آخر مع الحكومة ، ففي نوفمبر عام ١٩٢١ ذهب إلى عمان ليحل محل لورنس كممثل لبريطانيا في إمارة شرق الأردن المكونة حديثاً وكانت الأوضاع مضطربة ، انعدم فيها القانون واضطرب الأمن ، وقد روى أحد الضباط البريطانيين ، أنه رأى شخصاً شاهراً سيفه ، يركض خلف رجل آخر ، وما أن لحق به وبقبض عليه حتى ضرب عنقه وسط السوق . لقد قضى فلبي أوقاتاً ممتعة في عمان ولكنه خلال السنتين اللتين قضاهما ، حصل بينه وبين كل من الحاكم المحلي ومرعيه هو شخصياً ، مشاجرات لا يمكن تفاديها ، وهكذا فقد أصبح فلبي منذ منتصف ١٩٢٤ م بلا وظيفة .

وخلال وجوده في الأردن ، التقى فلبي مع الكاتبة والرحالة المشهورة روسينا Forbes Rosita ، وكانت حينذاك لا تزال في العقد الثالث من عمرها ، وقد ذاعت شهرتها من خلال أعمالها الجريئة الرومانسية ، والتي وصفت في كتب ما زالت تعتبر هي الأخرى ، أكثر رومانسية من أعمالها ، فقد زارت هذه السيدة وهي متذكرة جداً ، واحة كفراً الليبية والتي لم يسبق للأوربيين زيارتها من قبل سوى اللورد نورثكليف

ببول البعير [وقد لاحظ أيضاً أنه] عندما يتشقق خف الجمل بسبب الحجارة ، يقوم نفر من الرجال الأقوية بطرحه أرضاً ثم تخيط الشقوق بثيوط مقطوعة من الأطار المطاطي لعجلة السيارة .

وكالعادة فإن فليبي كان دائم الشجار مع رفاته في السفر ، فيينا كان رفاته يفضلون السفر في الليل حسب عادة العرب لتجنب حر الشمس ، كان فليبي يصر بالطبع على السفر بالنهار لكي يصر الأماكن لمسحها ووضعها على الخارطة ، وكثيراً ما أراد رفاته الخروج عن الطريق من أجل صيد الماربة بينما هو يصر على الخروج عن الطريق ، لكي يطلع على أشياء ليست مهمة في نظرهم ، وعندما يجد صعوبة في تحقيق رغباته فإنه يخرجهم بامتناع عن الطعام أو الشراب ، فيصيرون عليه بغضبه : «إنا نجهد أنفسنا من أجلك ، ونجهد الجمال حتى تضنى ، وإنك لرجل دائم الشكوى ولا يرضيك شيء أبداً» . فرد عليهم : «لقد خلقني الله ووضع الجمرة في قلبي ولكن أعمالكم هذه تزريدها طباً واحتراقاً» . ولقد كان في نية فليبي أن يستمر في سيره جنوباً حتى يصل إلى المحيط الهندي ، ولكن رفاته أقسموا له أن ذلك مستحيل ، فهم لا يعرفون الطريق ، كما توجد قبائل معادية مما قد يعرض القافلة كلها للهلاك ، وقد علم فيما بعد أن رجال القافلة نقشوا فكرة قتلها حينما كان نائماً وذلك عقب مجادلة حادة معهم لا أنهم خافوا عدم الثبات على قول واحد أثناء المساءله .

وأخيراً وافق فليبي على الرجوع - «... لقد تغلب الربع الحالي علينا ... لقد حا التوم ، على الأقل ، أحلام النهار المزعجة ... إنها ربما تكونأسوء تجاري كلها» ، وليس يستغرب أن يكتب قائلاً : «إن الجهد في السفر في الصحراء ليس شيئاً بالمقارنة مع الإرهاق النفسي» ، [وفي طريق العودة] ، مالت القافلة في سيرها نحو الغرب لقطع ٣٧٥ ميلاً خلال عشرة أيام ، عبر صحراء لا يوجد فيها قطرة من الماء ، وكانوا يسقون جمامهم قليلاً من الماء ، يسكن من غلابة الشاي في مناخيرها ، حتى إن فليبي نفسه ، قطع ٢٥٠ ميلاً دون أن يشرب جرعة ماء ، وفي خلال الرحلة كلها قطعت القافلة

أيضاً في إدخال أجهزة الراديو والهاتف ، ولكن ذلك كان في حاجة لنفوذ ابن سعود الشخصي لإيقاع العناصر المحافظة بأن ذلك الصوت الذي يسمعونه من مكان بعيد ، ليس بصوت الشيطان نفسه ، وأكثر من هذا كله ، فقد كان فليبي سعيداً لأنكده بأن امتيازات التنقيب عن النفط لم يذهب لشركة بريطانية ، بل ذهب للأمريكيين الذين في اعتقاده ، غير ملوثين بالإمبريالية ، ولكن لسخرية الأقدار ، فإن فليبي لم يدرك إلا في وقت متاخر ، بأن هذه الإجراءات ستؤدي إلى تغيير جذري لوجه الجزيرة العربية القاسبي .

استأنف فليبي صداقته مع ابن سعود ، وقد قويت أواصرها بعد أن أصبح مسلماً في أغسطس عام ١٩٣٠ ، ولكنه على الأقل ، لا يبدو أنه كان ملتزماً جداً بتحريم الخمر ، عندما يكون في الخارج ، أما علاقاته بالسلطات البريطانية ، فكانت غالباً سيئة على الدوام ولعلنا نستشهد بتقرير عام ١٩٣٧م ، بعد رجوعه من حضرموت : «كان فليبي في حالة من أشد حالات بروميثيوس البطولية ، فإلى جانب رغبته في جلب نور العلم للبشرية ، فقد كان لديه عزم شديد لكشف المخادعات المتهمة بها حكومة صاحب الجلالة HMG [البريطانية] في تعاملها مع العرب في شبه الجزيرة» ، ومع هذا فإن الحكومة البريطانية لم يقلقها تأثير فليبي على ابن سعود ، لعلها بأن ابن سعود أقوى شخصية من فليبي ، أما الفرنسيين فما كان منهم إلا أن ينظروا بعين الحسد إلى نجاح البريطانيين في توسيع علاقاتهم مع الجزيرة العربية .

في نهاية عام ١٩٣١ استأنف فليبي رحلاته في الجزيرة العربية ، بالرغم من أنه أصيب بخيبة أمل حينما علم أن برتام توماس Thomas قد سبقه إلى الربع الحالي وحرمه الفوز بأولوية الاكتشاف . وببدأ فليبي رحلته من المفوف بعد أن زوده ابن سعود بقافلة تتالف من إثنين وتللين ناقة ، وحملها واحداً وأربعة عشر رجلاً ومؤناً تكفيه لمدة ثلاثة أشهر ، وخلال تلك الرحلة دخل شهر رمضان . وبالرغم من جواز الفطر للمسافرين إلا أن الرجال قرروا صيام رمضان حتى المساء وعندئذ يقوم البدو بمضضضة أفواههم

فليبي قد أرتكب أخطاء بسيطة ، حدثت فيما يليو بسبب تخوف مرافقيه من طبيعة أخلاقه الحادة ، مفضلين اختراع اسم ما ، على اعتراضهم بجهل اسم المكان ، تجنبًا للتقريع .

لقد كان استعمال فليبي لوسائل النقل الحديثة بالإضافة إلى الدعم المعنوي ، وأحياناً الدعم المادي ، من الملك [عبدالعزيز] ، عاملًا مكنه من زيارة مناطق كثيرة في الجزيرة العربية لم يستطع زيارتها أحد من الرحالة الذين سبقوه . وفي شهر مايو ١٩٣٦م ، طلب منه ابن سعود أن يقوم بتشييد حدود المملكة مع اليمن ، لذلك فقد وجد فليبي طريقه إلى مدينة نجران القديمة حيث قام بأهم مكتشفاته الأثرية من ضمنها كتابة لم تكتشف من قبل في جنوب الجزيرة العربية ، وكعادته في عدم إقامة أي وزن للأعراف الدبلوماسية ، قرر فليبي الاستمرار في رحلته إلى أراضي متنازع عليها ، متوجهًا نحو موقع كثarta عنه الخرافات ، وكان هدفه زيارة شبوة^(٤٥) ، أحد المدن التي يقال إنها عاصمة سبا القديمة ، وحسب معرفة فليبي ، أنه لم يزورها أي أوربي من قبل . وكانت سفرة شاقة فوق الكثبان الرملية ، عجز خلالها في أحد الليالي عن الحركة ، إثر عاصفة رملية ونتيجة لما عاناه من تعب جسدي فقد ذكر فليبي ؛ أنه لم يمر بتجربة مثل تلك التجربة في حياته كلها . وقد وصل إلى هدفه بالرغم من أنه عَرَفَ أخيراً ، أن هائز هلفرتز Helfritz قد سبقه إلى زيارتها ، وعند وصوله إلى مدينة شبوة وجد فليبي حرس الشرف في انتظاره ، وبعكس ما كان متوقعاً عليه ، فإن أفراد الحرس ساروا أمامه لتحيته^(٤٦) ، وقد مر مؤلف هذا الكتاب بهذه التجربة ، وقد تعجب من عدم إطلاق حرس الشرف للرصاص وهم ذاهبون ، وحسناً هو متبع في تلك المنطقة أنه كلما قربت الرصاصة من رأس الضيف ، كانت أهمية الضيف أكثر ، وبما أن عدداً من الجنود السعوديين كانوا مع فليبي ، فقد اعتقد أهل شبوة أن البعثة جاءت لضمهم إلى الدولة

(٤٥) شبوة : عاصمة مملكة حضرموت القديمة ذكرها سترايون في القرن الأول ق.م. وتحدث عنها كتاب الطواف حول البحر الارييري في حوالي الرابع الأول من القرن الثالث الميلادي (أنظر جبرا ، ص ٢٤٧ ، ونلسون ، ص ٢٧٥) - المترجم .

(٤٦) جرت العادة في أوروبا أن يسر الضيف أمام حرس الشرف الذي يقف مستعداً (المترجم) .

مسافة ١٧٠٠ ميل ، في مدة تسعين يوماً ، وفي النهاية ، بعد ثلاثة أشهر من الشغل الشاق ، استلم كل واحد منهم ما معدله عشرة جنيهات إسترليني .

كانت تلك الرحلة ، هي الأخيرة تقريباً التي استعمل فليبي فيها الجمال ، حيث تمت معظم رحلاته فيما بعد ، باستعمال السيارات ، وفي إحدى هذه الرحلات ، اصطحب زوجته معه ، وكانت أول سيدة أوروبية تقطع الجزيرة العربية من البحر إلى البحر ، ومن خلال وصف فليبي لرحلاته ، ومن خلال أولئك الناس الذين رافقوه في هذه الرحلات ؛ يمكن أن نشاهد الرحالة الحديث وهو في أثناء رحلته . كان فليبي يستخدم الحمام إذا كان الجو مطرياً ، ولا يغير ملابسه إلا إذا بلغت ، وكانت الأشياء الأساسية التي يحملها معه ؛ هي أدوات رسم الخرائط ، أما بقيتها فتشتمل على بعض السكاكيـن ، وشبكة لصيد الفراشـات ، ومصباح جذبـها ، وقارير لحفظ الحشرات المقوسة ، وصناديق لحفظ العينـات ، وكان يأخذ معه بصفة دائمة جهاز راديو يستمع من خلاله إلى التعليق على مسابقات لعبة الكريكت الجارية في أثناء التوقف للاستراحة ، وقد يستمع في المساء إن صادفـه الحظ ، إلى موسيقى جلبرـت وسلفـان & Sullivan ، وكان يحمل معه دائمـاً مجموعة من نسخ جريدة التـايمـز ولا يفتح أبداً أكثر من نسخـة واحدة في اليوم ، ويقضـي الاستراحة الأخـرـة قبل النـومـ في حلـ الغـازـ الكلـمات المتقطـعةـ التي يـدعـيـ أنه لم يـلـجـأـ في حلـهاـ لـلـفـشـ أـبـداـ .

لقد دون فليبي ملاحظات كثيرة عن كل رحلاته ، وكانت كتاباته كبيرة جداً وشاملة ودقيقة ، وقد صاغ مؤلفاته بإسلوب بسيط ، يكاد يخلو من الجمال الأدبي ، ولكـها تـرـخـرـ بالمـلـعـومـاتـ المـطـرـدـةـ . وقد ذـكـرـ مـرـةـ لأـحـدـ أـصـدـقـاءـ مـؤـلـفـ هـذاـ الكـتابـ ؛ـ أـنـ خطـتهـ فيـ الكـتابـ هـيـ أـنـ يـتـحدـثـ عنـ كـلـ شـيءـ ،ـ وـبـماـ كـانـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ بـلـعـمـ الطـيـورـ ،ـ وـالـحـيـوانـ ،ـ وـالـجـيـولـوـجـياـ ،ـ وـالـأـعـرـاقـ الـبـشـرـيـةـ ،ـ وـالـتـارـيخـ ،ـ وـالـآـثـارـ ،ـ وـالـوـصـفـ الـجـغـرـافـيـ فإنـ «ـكـلـ شـيءـ»ـ هـذـيـ ،ـ تـؤـخـدـ بـعـنـاهـ حـرـفـياـ ،ـ كـاـ تـضـمـنـ كـتـبـهـ بـعـضـ التـعـاـيـرـ الـلاتـينـيةـ التيـ جـاءـتـ بـسـبـبـ تـأـثـرـهـ بـالـتـعـلـيمـ الـكـلاـسـيـكـيـ ،ـ غـيـرـ أـنـاـ فـقـدـ خـبـدـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ ،ـ أـنـ

وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى رجع فليبي إلى الجزيرة العربية ليستأنف أعماله التجارية وليعيش في منزله في كل من جدة ومكة والرياض مع مجموعة من الفردة وحاربة عمرها ست عشرة سنة ، وقد استمر في رحلاته الاستكشافية ، وأصبح كثير الاهتمام بعلم الآثار ، ويعود الفضل إلى فليبي في اكتشاف عدد من التماثيل الشهوية في شمال الجزيرة العربية فزاد عدد المكتشف منها من ألفين إلى ثلاثة عشر ألف ، وقد ذكر فليبي أن هناك اعتقاداً ، مفاده أن الشموديين تركوا كهفها مليئاً بالكنوز العجيبة ، تحت حراسة عقارب حجمها مثل الثور ، كما نقرأ في كتابه ، أن هناك من البدو من يرى أن الجراد يأتي من حياشيم السمك ، وأن الرعد يحدث نتيجة ضرب الملائكة للأجراس ، بشارة بسقوط المطر على الأماكن التي اختارها الله .

وبالرغم من أن فليبي قد أغتنى نتيجة التطور الاقتصادي الذي طرأ على البلاد إلا أنه بدأ يشعر بالوحدة وعدم الانسجام ، فبعد وفاة صديقه القديم الملك عبدالعزيز ، في نوفمبر ١٩٥٣ م ، أحس فليبي أنه شخص غير مرغوب فيه فقرر أن يعيش في المنفى واختار لبنان مقراً له ، فتوجه إليها في أبريل ١٩٥٥ م ، وتهمة : «صهيوني وعميل أمريكي» تلاحقة . وبعد مضي أكثر من سنة بقليل ، رجع فليبي بواسطة سيارة مقدمة من الحكومة السعودية واستمر في أعماله التجارية ودراساته [الجغرافية والآثارية] وقام بعدة زيارات إلى أوروبا وبينها هو في طريق عودته من مؤتمر للاستشراق ، عقد في موسكو ، توفي فليبي في بيروت في سبتمبر ١٩٦٠ م .

كانت الجزيرة العربية التي رأها فليبي في أيامه الأولى هي تلك التي وصفها نبور وداوني ، أما في أيامه الأخيرة فقد تغيرت الأوضاع كلية نتيجة للتقدم [التقني] الذي طرأ على العالم مثل التلفزيون والخط الجوي والنمو السريع للاقتصاد العالمي ، وقد ولّى عهد الاستكشاف ، بواسطة الصور الجوية ، رسمت خرائط كاملة للجزيرة العربية واضحت المناطق التي زارها الرحالة الأوائل في طي النسيان .

ال سعودية وقد أثار ذلك أيضاً ، شكوك السلطات البريطانية في عدن ، وبما أن فليبي كان يردد القول أنه بحاجة لتبديل محور العجلة المكسورة في سيارته ، فقد سافر بسرعة بطبيعة إلى ساحل المكلا ، حيث وجد في انتظاره هناك ، برقة تطلب منه أن لا يتowan في تنفيذ الأمر بشأن ذهابه ، وقد أعتبر نفسه أول من قطع الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب ، كما اعتقد أنه بذلك قد مرغ أنف الإمبريالية «أنتي لا أنتي أكثر من أن يدب الوهن [في السلطات البريطانية] في عدن» ، ولكن كالعادة كانت النتائج على غير ما توقعه ، فقد انتبه البريطانيون إلى التهديد الآتي من الشمال ، فتبنيوا سياسة أدت إلى إخضاع مناطق جديدة في حضرموت تحت حكمهم ، وفي طريق عودته ، دخل فليبي إلى اليمن وزار مدينة مأرب القديمة ، وقد أدهشت تلك الزيارة الإمام ، بقدر ما أدهشت السلطات البريطانية .

في أوائل عام ١٩٣٩ م عاد فليبي إلى إنجلترا وانغمس في خضم الحياة السياسية على الصعيدين الداخلي والعالمي ، وحاول حل القضية الفلسطينية باقتراحاته [لا داعي لذكرها] ، ورشح نفسه لعضوية مجلس العموم البريطاني كنائب مستقل ومعارض للحرب ، إلا أنه خسر المعركة الانتخابية ، وفي شهر ديسمبر عام ١٩٣٩ م رجع فليبي إلى الجزيرة العربية ، وأعلن لكل من أراد الاستماع له ، أن بريطانيا ستخسر الحرب لوقوفها ضد هتلر الذي أعتبره شخصاً غامضاً له صفة دينية «Mystics» ، ومساوية للمسيح [عليه السلام] ومحمد عليهما السلام . وفي الصيف التالي ، أخبر ابن سعود عن عزمه على الذهاب إلى الهند وأمريكا للقيام بحملة دعائية ضد بريطانيا ، فاخترق الجزيرة العربية مرة أخرى وأبحر إلى كراتشي وهناك ألقى القبض عليه وسيق إلى إنجلترا حيث وضع تحت الإقامة الجبرية وفقاً لقانون حماية المملكة المتحدة ، ومع أنه أطلق سراحه بعد أشهر قليلة ، إلا أنه لم يكن هناك من رغب في خدماته حتى في أહل الظروف التي مرت أثناء الحرب .

لقد فاق هذا الرجل الإنجليزي دماً وحلاً ، غيره بمساهمته الفعالة في زيادة المعرفة عن الجزيرة العربية ، بالرغم من إسلامه وعارضته الدائمة للحكومة البريطانية . لقد وضع فليبي قوانينه بنفسه وسار في طريق رسمه بنفسه وكان دائماً وائقاً من صحة تصرفاته ، غير مبال بما يعتقد الآخرون ، فهو شخص غريب الأطوار حقاً ، ولعله من الممكن القول إنه يمثل تماماً شخصية رجل العصر الفكري .

رّحالة في الحجاز

الحجاز هي الأرض المقدسة في الإسلام ، فهي مهبط الوحي الإسلامي على الرسول ﷺ و معظم الرحالة الذين زاروها عن طريق ميناء جدة ، يتفقون مع لورنس في وصفه لها بقوله : «ترى المدينة البيضاء وكأنها معلقة بين السماء اللامعة وبين ضوئها المنعكس على السراب الذي انتشر فوق مياه البحر الضحلة ، وحينئذ ظهرت شمس الجزيرة العربية الحارة ، وكأنها سيف مسلول يضربنا ونحن صامتون» ، ومضي يقول : «لقد كان الجو قابضاً للصدر ، سأكنا يكاد يخلو من حياة ، ولم تكن حرارة الجو محمرة ، إنما تحس فيها برطوبة شديدة تشم فيها رائحة القدم الذي لا تجده في مكان آخر ، مما جعل المرء يقول : «إن جدة لم تشهد هبوب النسيم منذ سنين» ، وعلى أية حال ، لقد أعجب لورنس بفن العمارة وجمال البناءات في جدة والتي بدت وكأنها صممت لمسرحية رومانтика ، فواجهة البناءات نصفها خشبي ، على الطراز الإليزابي مع شرفات غريبة يتمكن النسوة من خلاها من شم نسيم الهواء ويرين ولا يُرِين ، غير أن لورنس لم يعطنا أي وصف لعلم المدينة الفريد وهو ضريح حواء أم البشر ، والذي هو عبارة عن بناء بيضاء ذات قبة تدل على وسطها ويبدو أن حواء [عليها السلام] ذات قوام غير عادي فيبلغ طولها حسبما ذكر يرتون ، ١٢٠ خطوة من رأسها إلى وسطها و ٨٠ خطوة من وسطها إلى قدمها ، ولكن عرضها لا يزيد عن ست خطوات .

وعلى مسافة أربعين ميلاً ، باتجاه الداخل ، إلى ما وراء نقطة التفتيش الممنوع تجاوزها لغير المسلمين ، تقع مدينة مكة وسط واد قاحل ، وتنتركز الحياة في مكة حول المسجد الحرام ، الذي يغطي مساحة تقدر بأكثر من ثمانية هكتارات وله سبع منارات وسبعين عشرة بوابة مفتوحة على النوم وتخترق الأسوار التي تتلصق فيها البيوت ، وفي وسط المسجد تحت عرش السماء مباشرة وفوق الأرضين السبع ، تقع الكعبة ، وهي البيت الذي أمر الله ملائكته ببنائه قبل أن يخلق آدم ، والذي قام إبراهيم ، بإعادة بنائه

[بل رفع قواعده] ، وفي الرواية الجنوبيّة الشرقيّة للّكعّبة ، يوجد الحجر الأسود ، حيث وضع في دائرة فضيّة ، وبدت عليه علامات التآكل بسبب تقبيل الحجاج له منذ أجيال مضت ، وقد أعطى هذا الحجر إلى إبراهيم من قبل جبريل [عليهمَا السلام] ، وبلغ ارتفاع الكعّبة أربعين قدماً وهي مكعب الشكل خالية من آية نافذة ، إلا من بابها الفضي الذي يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام^(٤٧) وتحطى الكعّبة بكسوة من الحرير ، كبّلت عليها آيات من القرآن بخطوط من الذهب ، وللّكعّبة مفتاح محفوظ عند عائلة توارثته منذ أن أُسند إليها مهمة حفظه من قبل الرسول ﷺ ، وتفتح الباب في مناسبات خاصة ، وبالقرب من الكعّبة توجد غرفتان فيها بئر زمزم ، الذي يمكن أن ينقد هاجر بعد أن كادت تموت هي وبنيها إسماعيل من العطش .

وبجوار مكة ، تقع قرية غير مسكونة وهي منى ، وفيها عزم إبراهيم على ذبح ابنه ابتعاداً لأمر الله ، وإحياء ذكرى هذه التضحية ، فإنّ المسلم يذبح شاه في يوم عيد المسلمين الأكبر ، وعلى بعد مسافة قصيرة توجد أعمدة صخرية تمثل الشيطان يرجمها الحجاج كعلامة لنبذه وطرد شروره ، أما جبل عرفات فلا يبعد كثيراً عنها وهو الجبل الذي يقال بأنّ آدم وحواء [عليهمَا السلام] ، قد تقابلا عليه مرة أخرى ، بعد طردّهما من الجنة ، كما أنّ الرسول ﷺ ألقى من عليه «خطبة الوداع» .

وعلى بعد ٣٠٠ ميل تقريباً شمال مكة ، تقع المدينة ، وفيها مسجد مماثل لمسجد مكة ، وقد بني على نفس المكان الذي توقفت فيه ناقة الرسول ﷺ بعد ما هاجر عن المشركين ، حيث أصبح بداية تاريخ جديد عند المسلمين ، وفي أحد زوايا المسجد توجد حجرة تشمل على قبر محمد ﷺ وقبره خليفيه ، ومكان مخصص لقبر النبي عيسى بن مرريم [عليه السلام] ، الذي كان قد بعث في وقت سابق ، والحجرة محاطة بشبكة من

(٤٧) باب الكعّبة الحالي مصنوع من الذهب الحالص بأمر من الملك خالد بن عبد العزيز رحمة الله ، الذي أزاح السنار عنه في ذى القعده عام ١٣٩٩هـ/أكتوبر ١٩٧٩م وهذا الباب يزيد ارتفاعه عن ثلاثة أميال ، وعرضه نحو مترين ، وسمكه نحو نصف المتر (مزيد من المعلومات انظر ، حافظ ، ص ٧ - ٢٠) - المترجم .

الحديد وستارة خضراء داكنة من الحرير ، لمنع الحجاج من رؤية القبر عينه وهو مكان بسيط وبتواضع ، لا يحمل أي شكل من الأشكال الخيالية التي تناقلتها قصص العصور الوسطى ، فقد قيل إنّ كفن محمد ﷺ يرفرف فوق الأرض بطريقة مغناطيسية رائعة .

لقد شهدت المدينة أول غزوٍ يقوم بها النصارى للأراضي المقدسة ، ففي حوالي عام ١١٨٠ م جهز أحد الفرسان الصليبيين - والحقيقة أنه مجرد سارق ، إسمه رينولد دي شاتيلون Renaud de Shatillon - حملة عسكرية ، لغزو المدينة وسرقة الكنوز التي حكمت الأساطير أنها تجمعت حول القبر ، ونزلت تلك القوة الغازية على ساحل البحر الأحمر ثم توغلت إلى الداخل ، حتى إذا ما أصبحت على بعد يوم واحد من المدينة ، تعرضت للإيادة على يد قوة متغوفة ، ومن نجا من المعركة شد على جمل وجهه إلى ذيل الجمل وأخذ إلى منى حيث ضرب عنقه .

وكما مرّنا في فصل سابق ، أن لودفيكو دي فارثيم ، كان أول أوربي يصف لنا مكة وذلك في عام ١٥٠٢ م وكان أول نصاري يصل إليها ، مع أنه من الصعب التأكد عن الرحالة الأوائل الذين سبقوه ، ففي عام ١٤٩٧ م ، أخبر سفير ميلان في لندن السُّوق سفورزا Sforza ، أنه قابل شخصاً يدعى جون كابوت John Cabot وكان إنساناً لطيف العشر خبيراً بالبحر ، ويتباهي هذا الملاح القديم بإبحاره من برستول [في إنجلترا] ، متوجهاً غرباً ، واكتشف جزيرة جديدة قرب الساحل الآسيوي ، والتي سماها نيوفوندلاند Newfoundland وضمها إلى ممتلكات هنري السابع^(٤٨) ، وهذا [الاكتشاف] أقعّ تقريراً السفير ، أنّ الدنيا كروية ، وقبل هذا الاكتشاف ، ادعى كابوت ، أنّ اهتمامه بتجارة التوابيل ، قاده إلى زيارة مكة مرات عديدة ، حيث تقدّم إليها القوافل من كل أرجاء آسيا .

(٤٨) نيوفوندلاند : تابعة حالياً لكندا (المترجم) .

تاراسكون ويوُكَد لي بلانك أن السبب في قيامه بالرحلات المستمرة ، هو الهروب من زوجته التي يصفها أنها واحدة من أبغض النساء في العالم ، ويدرك كذلك ، قصة الأعرابي الذي ظاهر بالجنون ورمى بكمية كبيرة من الحشرات فوق قميص صديقه ثم سرق القميص بعد ما خلعه صاحبه لفسله ، ولكن الغريب أيضاً أنه ذكر أنه شاهد قطعاً من الثيران في المسجد الحرام ، كانت تستعمل لسحب الماء من بئر زمز ، مع أن مثل هذا الشيء ، لم يذكره أحد مطلقاً .

وفي عام ١٦٤٣ م ، زار مكة مطران كاثوليكي ، كان أبوه براهمانيا اعتنق المسيحية ، وقد ولد في مدينة غوا [باهند] ، وأُعطي اللقب الديني في روما ، وكان اسمه ماثيو دي كاسترو Matheo de Castro وحين رجع هذا المطران إلى روما ، تخصص مع زملائه ، وقرر عرض الموضوع على البابا شخصياً ، فسئل عن السبب الذي دعاه للمرور بمكة وكيف نجح في الوصول إليها ، أما عن رأيه فيها ، فقد بقي شيئاً مجھولاً .

وخلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، بدأت السفن البريطانية تمر بانتظام عبر البحر الأحمر متوجهة طريق رأس الرجاء الصالح بواسطة اتصالها مع السفن الأخرى التي ترسو على الموانيء المصرية في البحر الأبيض المتوسط . إن وصول هذه السفن إلى موانئ الأرضي المقدسة ، والذي كثيراً ما تم عن طريق الخطأ ، قد سبب ازعاجاً . وقد وجد آيليس إروين Eyles Irwin نفسه معتقداً عندما كان على أول ظهر سفينة تدخل ميناء بنغازي ، وذلك بأمر من حاكمها الهلن «لقد حذرنا الحكم ، أن لا يقدم على أية إهانة للعلم البريطاني الذي أعطيت بشأن احترامه دروس لمعظم البربر» ولكن الحكم أصر على اعتقاله ومن معه حتى تأديه التعليمات من شريف مكة .

لقد اشتكت معظم الكتاب [الذين زاروا الحجاز] من شدة الحر ، وقليل من اهتدى منهم حل المشكلة ، وأكثر هذه الحلول ذكاءً ما قام به الصحفي الشهير جيمز باكنجهام James Silk Buckingham الذي أبحر في شبكة معلقة على جانب السفينة «Dhow» كي يستطيع أن يغمس نفسه في الماء كلما شعر بالحر .

وهناك احتفال قوي أن بعض البحارة البرتغاليين ، قد وصلوا إلى مكة والمدينة في أثناء عصرهم التوسيع الكبير ، ففي حوالي عام ١٥٠٠ م تحطم سفينة [برتغالية على ساحل اليمن] وألقي القبض على ربannya واسمها جريجوري كواودرا G. da Quadra وسُجن في خزان في زيد بأمر من ملك اليمن [الذي وصفه بأنه] «شخص سيء الطالع» . وقضى كواودرا ثمانى سنوات في السجن تعلم خلالها اللغة العربية ، ومضى كأنه عربي ولكي يكسب قوته قام بعمل القلنسوارات (ربما هي أساس العمائم التي ما زال الناس يستعملونها حتى اليوم) ، وقد قامت ثورة أطاحت بالملك الذي سجنه وأخذه الملك الجديد ضمن أفراد حاشيته الذين صحبوه إلى الأرضي المقدسة ، وفي المدينة طفت على كواودرا مشاعره الدينية فأخذ يصبح بشتم الرسول [صلوات الله وسلامه عليه] ويتحداه أن يبين للناس أنه نصراي ، وتمى أن يتتحول لهذا البيت إلى كنессية ككتسية السيدة العذراء في لشبونة ، فأخذت الناس الذين سمعوه الدهشة ، واقتععوا أنه ولـي ، ونافس أحدهم الآخر على دعوته إلى الغداء ، وعلى أية حال فإن كواودرا هرب مائياً على قدميه إلى البصرة ، وأصبح بذلك أول أوربي يعبر صحراء النفود الخفية ، واعتمد في غذائه على أكل الجراد وقد أحرقت الشمس جسده حتى إنه لم يستطع أن يضطجع ، فكان يخفر حفرة عميقه في الأرض ويقف في وسطها منتسباً حتى ينام ، وبينما هو على هذا الحال ، مرت عليه قافلة فأنقذته [وانهى به المطاف إلى البرتغال] حيث قضى أيامه الأخيرة في دير للرهبان .

ومن التقارير التي وصلت إلى الغرب عن مكة ، ما نجده في كتاب تحت عنوان «مسح عام للعالم The World Surveyed» أو «الرحلات البحرية الشهيرة التي قام بها فنسنت لي بلانك Vincent Le Blanc» أو «الأبيض» من مرسيليا والذي بدأ رحلاته إلى معظم أنحاء العالم منذ أن كان عمره أربعة عشر عاماً حتى أصبح في السبعين ، والكتاب مدحوم بالوثائق التاريخية ، وقد نشر باللغة الإنجليزية في عام ١٦٦٠ م ، وبما أنه أحد الكتب التاريخية الجديرة بالتصديق ، فإنه يحتوى على قصة ذلك الأمير الذي انقلب إلى قرد بارع في الجمال وسهل الانقياد ، بتأثير السحر الذي عملته له إمراة أبيه ، ولعله من قبل المجازفة أن نظن أن شخصية لي بلانك ، هي ما نجد في مواطنه تارتارين دي

الأتراك ، وقد أسلم فيناتي وعين حاملاً للمزمار عند أحد قادة الأتراك العسكريين ، إلا أنه أغري زوجة رئيسه ، فاضطر إلى الهرب مرة أخرى وسافر إلى مصر والخرط في الجيش المصري ، وكان يُؤدي واجب الخدمة أثناء مذلة الملك إلا أنه كان منشغلًا فيما يبدو بسرقة سرج جحيل ، بل وأجمل منه ، سرقة جارية -حسناً ، بعد ذلك أرسل إلى الجزيرة العربية ، ولكنه عزم على الهرب بعد أن اشترك في معركتين ضارتين خسر فيما جانبه ، وادعى أن هروبه كان بهدف إطلاع الباشا على عدم كفاءة قادته العسكريين ، وقد ساعده على الهرب جماعة مسللة من البدو ، وهكذا وصل فيناتي إلى مكة التي وصفها بأنها لا هي مدينة كبيرة ولا هي بالمدينة الجميلة في حد ذاتها ، ولكنها تم عن عظمة لا يمكن وصفها .

وقف فيناتي لمدة ستة أيام تقريبًا خارج بيته كان يسكن فيه محمد علي ، وفي يده عريضة يطلب فيها مقابلة البasha وأخيرًا سمع له بالمقابلة واستقبله البasha ، استقبله حسناً ، ثم بعد أن اشترك في معركتين ، انتصر فيما جانبه ، أصيب فيناتي بالطاعون فرحل إلى مصر وهناك استغل فرصة تمرد قاتم به الجندي ففرق صندوقاً خشبياً كبيراً ولكن عند فتحه وجده يحتوي على مجموعة من الأواني الفخارية الرخامية التي لا تفي قيمتها بدفع أجراً للحامليين الذين اشتغلوا وكلهم متوفين معه ، وعلى كل حال ، فإن نهاية قصة فيناتي كانت سعيدة ، فقد التحق مع وليام بانكس William Banks وهو إنجليزي ثري ، له ولع بالفنون ، وقد رافقه فيناتي كمترجم له في رحلته إلى بلاد النوبة وفلسطين وسوريا ، بعدها وصل فيناتي إلى بريطانيا حيث سعد فيها بمنط الحياة البسيطة عند القرويين في مقاطعة ويلز ، إن قصة تشرد فيناتي الشديدة ، تكون اتفاقاً متباهياً عند أولئك العلماء من ذوي الميول الدينية ، أو عند أولئك المتحمسين الذين زاروا مكة أيضاً .

وهناك شخصية لها شهرة كبيرة ، اشتغل صاحبها كطبيب في جيش محمد علي ، وهو موريس تاميزير Maurice Tamisier ، الذي أُبْرِجَ في نهاية عام ١٨٣٣ م إلى جدة ، وكانت رحلة بحرية عاصفة ، اتسم تاميزير خلاها بالشهامة ، وذلك عندما تدخل في

لقد ذكرنا في فصل سابق كيف أن علي بك زار مكة في عام ١٨٠٧ ثم بوركهارت في عام ١٨١٤ م ، ولكن بين هذين التاريخين زار مكة مواطن روسي اسمه أولريخ جاسبر سيتزن Ulrich Jasper Ceetzen وقل عنه إنه يتفوق بكلفاته العلمية على كل الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية على الأطلاق ، فهو لغوي بارع وعلامة في كل علم ، ففي عام ١٨٠٢ م وبعد عم من القيصر ، شد سيتزن الرحال إلى الشرق وعاش مدة سبع سنوات متوجلاً من مكان إلى آخر كشحاذ ، قبل أن يشعر بالثقة التامة ليختار بالذهب إلى الحج ، وكان هدفه فيما يعتقد ، أن يحصل على لقب حاج ، والذي سيفيده في القيام بهمته في أفريقيا أو البلاد الإسلامية في وسط آسيا ، لصالح انتشارات الروسية ، وقد نجح سيتزن [في الحصول على لقب حاج] بعد أن مر بعض الصعوبات منها امتحان عسير في المسائل الدينية ، وعندئذ انحفل اسم الدكتور الحاج موسى وسافر إلى اليمن ، وكانت خطته أن يقطع شبه الجزيرة العربية إلى مسقط ثم إلى البصرة ومن هناك يتجه إلى أواسط آسيا وكانت قافتلة الكبيرة من الجمال ، قد أثارت الطمع فيه ، كما أن أحجامه في المعادن والنبات ، قد أثارت الشبهات حول كونه ساحراً ، أو أنه يحتفظ بسر كنز مدفون ، وفي أواخر عام ١٨١٠ م قتل سيتزن في اليمن ، وبما أن المشاهدات واللاحظات التي كتبها قد اختفت معه ، فإن التاريخ لم يعطه حقه كاملاً في الاعتراف بإنجازاته كما ينبغي .

لقد منينا أنه في عام ١٨١١ م غزت قوات محمد علي ، باشا مصر الجزيرة العربية بهدف القضاء على البيت السعودي ، وقد صاحب هذه القوات عدد من الأوربيين بمختلف القدرات العقلية ولكن قليلاً منهم من استطاع أن يحرز المكانة التي أحرزها شاب أسكلندي صغير يعمل طبلاً في الجيش ، اسمه توماس كيث الذي تغير إلى إبراهيم أغا وأصبح والي المدينة وكان هناك جندي آخر اسمه جيوفاني فيناتي Giovanni Finati من مدينة فرارا Ferrara [شمال إيطاليا] ، سبق أن درب ليعمل في الكنيسة وقد استدعي للخدمة في القوات النابليونية ، وقد هرب من الخدمة العسكرية ثلاث مرات كان آخرها عندما كان في البلقان ، حيث التجأ مع بعض رفاته ومنهم زوجة ضابط الفرق ، إلى

حمل السلاح ضد مواطنيه الفرنسيين ، وأخير الأمير عبدالقادر بكل وقاحة ، أنه ليس مسلماً . ومن المعروف أن عقاب المرتد عن الإسلام ، هو الموت ولكن عبدالقادر عندما رأى أنه ما من أحد غيره قد سمع حينذاك بهذا الأمر المشين ، لم يقل له سوى : «إذهب ، إبني أترك حسابك على الله وعليك أن تتوارى عن بصرى» .

وقد روت شمس المخاطرة بخياته للقيام بمحاولة يستطيع من خلالها أن يقارب بين الفرنسيين والعرب في الجزائر ، فرأى أن أحسن وسيلة لتحقيق ذلك هو الحصول على فنوى من أعلى الهيئات الإسلامية تباع لل المسلمين العيش في ظل الاحتلال الصارني وبالتالي فإنه لا يجب عليهم أن يضطروا بأرواحهم في سبيل محاربة قوات الاحتلال ، ولتحقيق غرضه هذا ، سافر روت شمس إلى تونس أولًا ثم إلى القاهرة وأخيراً إلى مكة التي وصلها في ديسمبر ١٨٤١ م .

وبالرغم من تحكمه من اللغة العربية ، إلا أنه قرر أن يعلن عن نفسه أنه أوربي دخل في الدين الإسلامي ، ولحسن حظه أنه التقى برجل جزائري مرموق ، يحمل شهادة الدكتوراة في القانون ، واتفق الرجالان على أن يشاركا في مصاريف الرحلة ، وقد أمضى روت شمس ثلاثة أيام في المدينة ، حيث أعجب بمسجد الرسول عليه السلام ، بفنانيته المضيئة في الليل التي كشفت عن بهاء سجاده الجميل ، والكتابات المذهبة على الجدران ، وبعد قضاء أسبوعين في مكة سافر روت شمس إلى الطائف لمقابلة الشريف ، ويدافع من شعوره كزعيم سياسي لا كزعيم ديني ، فقد اهتم الشريف به لكونه عميلاً سياسياً لفرنسا أكثر من مسألة كونه مسلماً حقيقياً لا ، وبعد أن أتمنى مهمته على وجه مرض ، رجع روت شمس إلى مكة لأداء شعائر الحج ، وقد شعر بميل قوي نحو الإسلام ، غير أنه ما زال مقتضاً أنه لا يمكن أن يكون أي شيء إلا نصراانياً .

وعندما كان روت شمس في طريقه لأداء أهم مناسك الحج - الوقوف على جبل عرفات - إذا به فجأة يلتقي بشخصين جزائريين سبق له أن أمر بمحبسهما عندما كان

المشكلة التي أقسم فيها أحد رفاقه في السفر ، بطلاق زوجته التي قاءت لتوها على طعامه وعلى حيته ، بسبب إصابتها بدوران البحر ، وكان من بين رفاقه ، مجموعة من الأوربيين ، من ضمنهم ساحر ، أدهش البدو بألعابه السحرية ، ومنهن لم تفل مواهبه سوى قدر بسيط من الاعجاب . ومن جهة اتجاهه تاميزير إلى جبال عسيرة في جنوب الحجاز حيث اشتراك هناك في معركة ، كوفء فيها الجنود المصريون بعشرة شلنات ، مقابل كل أذنين مقطوعتين من الأعداء ومن الواضح أن تاميزير قد استمتع بالتحدث مع الناس ، وقد سجل بعض قصصهم التي سمع منها مثلاً ، أن للبقرة العربية سنام لأن النبي كان متبعاً ذات مرة ، فركب عليها ، وعندئذ ظهر لها هذا السنام لتجعل ركوبها مريحاً للمتعود على ركوب الجمل وكتب تاميزير ، عن العلاقة التي تربط البدوي بجمله ومن ضمنها أن البدوي يشنو لجمله ليلاً في الهواء الطلق ، بأحل الأناشيد وأجمل الأخوان وقد يشدوا له حتى بألحان الحب والحنان الجياشة التي يتفاعل جمله معها بسرور ، أما إذا غضب البدوي ، فسرعان ما يبدأ بسب جمله وقد يذهب بعيداً في شتمه فيتهم بأنه نصراانياً وهي شتيمة تحظى من قدر هذا الحيوان المسكين .

ومن أغرب الشخصيات التي زارت مكة ، شخص فرنسي اسمه ليون روت شمس Leon Roches ، وبعد انتهاءه من دراسة القانون ، سافر إلى الجزائر المستعمرة الجديدة ، وكان من أوائل المستوطنين الفرنسيين فيها ، وهناك ، وهو في بداية العشرين من عمره ، وقع في حب فتاة عربية عمرها أربع عشرة سنة والتي لا يستطيع أهلها حتى مجرد التفكير بتزويجها من نصراانياً ، وقد رآها ولكن ست مرات وكانت فقط ، مرة واحدة التي رآها على انفراد ومع ذلك فقد سيطر هذا الحب على حياته . حاول روت شمس خلق وفاق بين الغرابة الفرنسيين وبين الأمير البطل عبدالقادر قائد المقاومة وهذا فقد تظاهر بالإسلام ، وعمل في خدمة الأمير عبدالقادر ، وأصبح واحداً من مستشاريه المقربين ، وقام بعدة مهام وسفرات محفوظة بالمخاطر ، وفي أحدي السفرات علم بأن فتاته خديجة قد ماتت وقال إنها ماتت بسبب حبه ، ولا يُعني الآن لنفسه سوى الموت ، وبينما هو على هذه الحال من الحزن والاكتئاب ، إذا بناز الحرب تشتعل مرة أخرى ، وشعر أنه لا يستطيع

مسئولاً حكومياً ، وقد سلما عليه بكل أدب لكنه أحس كلامه وطريقه على ثعبان سام وقد عمل جاهداً على إخفاء نفسه ليضيع في الرحمة الكبيرة بين ستين ألف حاج ، وفجأة سمع صوت رجل يصيح : «هناك نصراي .. أمسكوا الكافر بن الكافر» ، فأحس بأن نهايته قد حانت حيث هجم عليه جماعة من الناس ، فمسكوه وقيدوه ثم وضعوه على جمل ، ولم يمض وقت طويل حتى عرف أن معتقليه ما هم إلا جنود بعثهم الشريف لأنقاذ مبعوث فرسا وتخلصه من غضب الجماهير التي لابد أنها ستقتضي عليه ويبدو أن حراسه قد حطموا رقمًا قياسياً في الوصول به إلى جدة في أقل من ست ساعات وهناك صادروا مركباً بحرياً ليتنقله إلى خارج البلاد .

وبعد ثلاثة أشهر من الحج ، قضى روتنيس عيد الفصح في روما ثم زار على وجه السرعة ضريح القديس بطرس ، عاقداً العزم على أن يصير قسيساً ، إلا أنه أقنعه أخيراً بتغيير رأيه فرجع إلى الجزائر وانتهى به المطاف كسفير لدى اليابان .

بعد ذلك بعشرين عاماً تقريباً دخل مكة نصراي آخر وحصل له تقريباً من الربع كاً حصل لروتنيس ، ففي عام ١٨٦٠ م كان البارون مالتزن Baron H. Von Maltzan - وكان عمره أربعة وثلاثين عاماً - قد قضى عشر سنوات متتلاة في البلاد العربية ، وكان من بين أصدقائه رجل جزائري مسلم جداً على تعاطي الحشيش ، ومقابل تزويداته بالحشيش لمدة ستة أشهر ، سمح هذا الرجل مالتزن ، أن يستخدم اسمه على جواز سفر يسافر به إلى مكة لأداء الحج .

وبصرف النظر عن ليلته الأولى في جدة ، فقد وجد مالتزن فندقاً ، بدا له أنه بسعر رخيص لا يصدق ، حتى اكتشف أنه مجاور لندير بولول فيه الدراويش [المتصوفون] ويسرقون طوال الليل وقد وصل مالتزن إلى مكة بسلام ، ولم تترك مكة عنده أي انطباع ، فكان في الحقيقة منزعجاً واعتبر شعائر العبادة شيئاً مللاً ، بل هي نوع من الجنون ، كما قارن المسجد الحرام بقلعة الشياطين ، وبعد أن رجع مالتزن من

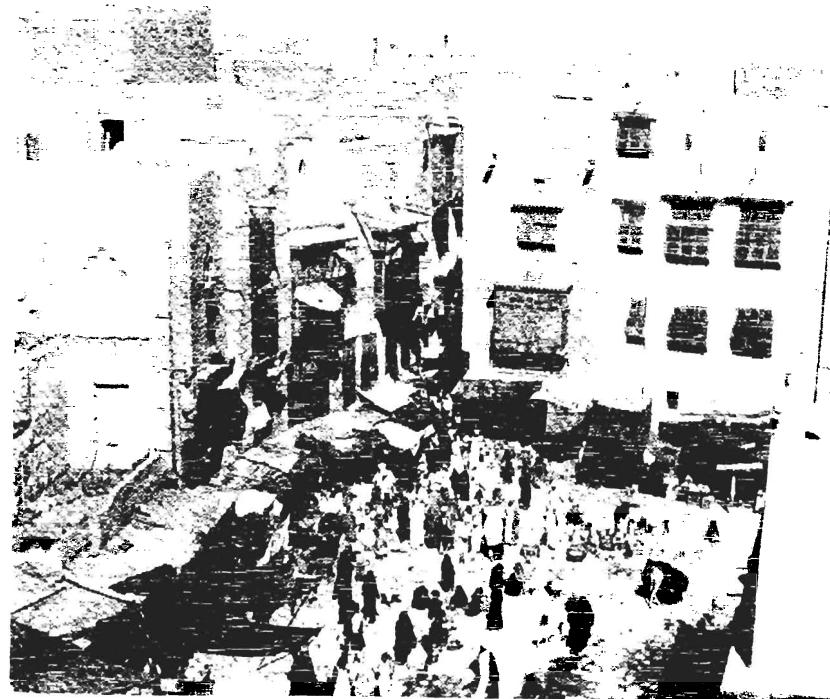
عرفات مباشرة ، سمع رجلين جزائريين يتناقشان في أمره وأتياه إلى أنه نصراي متذكر وعلى الفور هرب من مكة على وجه السرعة كما فعل روتنيس من قبل ، وما أن وصل إلى صاحبه الجزائري المدمى على الحشيش ، حتى أعاد له جواز سفره وعليه تأشيرة الدخول إلى الأرض المقدسة ، وقد كان هذا الحشاش خلال بقية أيامه ، متأكداً أنه قد أدى فريضة الحج بنفسه ولكنه طوال أيام حياته لا يتذكر أي شيء من تفاصيل هذا الحج .

في الخامس والعشرين من أغسطس ١٨٦٢ م ، ظهرت في جريدة التايمز رسالة بعنوان «الحج إلى مكة» ومقوعة من قبل الحاج محمد عبدالواحد من «نورود Norwood» ، وفي الحقيقة أن هذا الشخص لم يكن غير الدكتور هيرمان بيكيل Herman Bicknell وكان جراحًا في مستشفى «سانت بارثولوميو» [في لندن] ، وقبل رحلته إلى الجزيرة العربية كان قد ترجل في جاوه والتبت وجبال الهimalaya ، وكان على يقين ، أنه من صالح الامبراطورية البريطانية ، أن تكون لدى أكبر عدد من الإنجليز معرفة بالإسلام ، والتي سوف تأتي عن طريق الحج ، وهذا فقد تظاهر بيكيل على أنه بريطاني اعتنق الإسلام ، وبقي مرتدياً ملابسه الأوروبية طوال معظم الرحلة ، مع أنها لا تلائم جو البحر الأحمر ، وبالرغم من أن المسجد الحرام ، ذكره فقط بالقصر الملكي في باريس ، فقد قام بيكيل بأداء شعائر الحج ، إلا أنه أعفى نفسه من الذهاب إلى المدينة لشدة الحر وقد ختم رحلته بتركية دليلاً في مكة فوصنه بأنه كريم ذو أخلاق طيبة وقال إنه قد وعده بمعاملة الإنجليز الآخرين بنفس المعاملة الكريمة التي لقىها منه وقد لبس بيكيل ، أن الزوار السابقين قد خلقوا صعوبات لأنفسهم بعمل أشياء غير ضرورية وذلك بذهابهم إلى هناك متذكري مع أنه لابد أن يكون الشخص مسلماً ولو بالظاهر على الأقل ، وأن يحمل أسماء عربية . وبعد رجوعه ، اكتشف بيكيل جبال الأنديز والقطب الشمالي ثم توقي في بداية الأربعين من عمره إثر حادث في «ماترهورن Matterhorn»^(٤٩) .

(٤٩) ماترهورن : جبال على الحدود بين إيطاليا وسويسرا ضمن مرتفعات الألب (المترجم) .

المدينة : ساحة في المدينة^(*)

(*) بربة باب الركين في أقصى اليمين ويفتهر في الركن الثاني في أقصى اليسار المدخل المؤدي إلى حوش الجمال وسوق الساحة وقد أزيلت هذه البرحة وما حولها في سبيل التوسيع السعودية الثانية للمسجد النبوي (الترجم).



توسو» [متحف الشمع في لندن] قد خرجوا يمشون وحتى منظر رئيس أساقفة «كانتربري» ، لو كان هناك بقعته المميزة ، فإنه لن يثير حقيقة ، أي تعليق ، وقد تجول كين في أنحاء مكة بحرية ، وشاهد من خلال نافذة تطل على مدرسة أن تلاميذها يجلدون على أقدامهم في مجموعات ؛ تضم كل مجموعة ، خمسة تلاميد وتحدث مع سيدة مسلمة ، وكانت هي الآنسة ماكتنوتش McIntosh [إنجليزية] التي أخذت أسرة خلال المرد الهندي ، وقد أزعج كين بإيمان الحجاج وتلقيهم الشديد بيدهم ، إلا أنه اشتكي من الأهالي وقال ، إنهم شحاذون ويطلبون البخاشيش بسبب وبغير سبب ، وقد زاد بغضبه لهم ، أنه في أحد الأيام وبينما كان خارجاً يمشي في هيئة رجل شرق أنيق مرتدياً ملابس بيضاء ناصعة وعلى رأسه عمامه كبيرة ، إذا بطل يصبح عليه وبدون سبب واضح : «أنظروا إلى هذا النصارى» ، فما كان من أحد المسؤولين إلا أن قام يطالبه ، بالإفصاح عن عقيدته ، مؤملاً ، الحصول منه على شيء فأمسك به كين من كتفيه ودار به ثم رفسه بقسوة ، وأدرك كين أنه لا يستطيع أن يتهدى بتصرف غير إسلامي وبدأت مجموعة من الناس برمهه بالحجارة فخطف طفلًا ليحتمني به ثم أسرع إلى مركز الشرطة ، وهناك ادعى أنه مسلم وقد أفتتح فصاحته في شرح ما وقع له من بلاء ، المسؤولين الذين حموه حتى رجع إلى محل إقامته .

ولم تنته مشاكل كين عند هذا الحد ، فقد واصل سفره إلى المدينة ، وفي الطريق وبينما كان يتهيأ لتناول طعامه اللذيد جاءه بدوٌ كان قد انتهى لتوه من معاناة مع جمله الهائل ، وبعد أن مسح يديه على قطعة بساط من الشعر كريه الرائحة ، غمس يده التي تعافها النفس ، وسط طعام الإنجليزي ، وبغضب جنوني رمى كين الصحن على البدو ، ودفعه بعنف فسقط البدو على الأرض . وبعد لحظة قصيرة زحف هذا البدو خلسة ، على كين وغرس بشدة رحماً في رجله ، وكاد التزيف أن يفجع على حياته وهو في مكانه ، وقبل أن يفقد وعيه كلية شاهد ثلاثة من الطيور الجارحة تحوم حوله ، وعلى أية حال ، قام حكيم من السكان المحليين بوضع قطن على الجرح ولم يمض وقت طويلاً حتى أصبح كين قادرًا على السير إلى المدينة التي ذكرته عندما رآها لأول

بعد خمس عشرة سنة من زيارة بكيل ملكة دخلها رجل إنجليزي آخر اسمه جون كين John Fryer Keane وهو ابن لأحد القساوسة ، وقد هرب إلى البحر عندما كان في الثانية عشرة من عمره ، وقضى معظم السبع سنوات التالية ، بين المسلمين حيث كان يعمل بصفة رئيسه ضابطاً بحرياً في سفن كان بحارتها من الهند . وقد وصل كين إلى جدة وانضم لخاشية أمير هندي وبقي في مكة لمدة ستة أسابيع ، شعر فيها بأنه في بلده تماماً كما لو أنه عاش هناك طوال حياته ، وقال إن بشرته الشقراء لم تتر تعليق الآخرين ، وذلك لأن الروار ، كما قال ، من جنسيات مختلفة جداً ، كما لو كانوا شخصيات «مدام

كثيرة كان من المستحيل عليه معرفتها ، لدرجة أنه تمكن من وصف عروس من مكة ، بل وحتى الحصول على صورة لها ، وهي مرتدية ثياب العرس ، وقد بدا غطاء رأسها شيئاً تماماً بذكأن للحل والجوهر ، مليئاً بدبایس الرينة ، أما ثوبها ، فكان مليئاً بالحرير ومرصعاً بكثير من الحل والزخارف حتى تكاد المسكينة لا تقوى على الحركة . كما تعلم أيضاً كيف تعالج الأم طفلها المريض ، وذلك بوضع سبعة أرغفة من الخبر تحت وسادته ، بعد ذلك تعطي الأرغفة إلى الكلاب ، وهو علاج قلماً أثبت نجاحه .

وقد قام هرغرونجه بدراسة مفصلة لظاهرة «الزار» التي وجدها هناك ، ضرورة من ضرورات الحياة لمعظم السيدات كالتبغ أو الذهب ، أو التغطيز الذهبي لسرافيلهم ، وكثير منهن استعملن «الزار» كوسيلة للحصول على ثياب أو مجوهرات جديدة ، فتليلة طلب المصابة بالزار ، شيء أساسى لصحوتها منه وقد لوحظ أن إقامة الحفلات هذه ذات العلاقة بالأرواح الشريرة ، ما هي إلا للمرح ، وكان هرغرونجه ، صديق طيب أخبرته زوجته ، أنها بحاجة إلى الزار مثل غيرها من النساء ، فادعى أنه قد راجع كتاباً جديداً واكتشف أن أحسن علاج ، هو الكي بمديدة حارة جداً ، وسرعان ما شعرت زوجته بتحسن كامل في صحتها .

لا نعرف الفترة التي أراد سنوك هرغرونجه أن يمكثها في مكة ، إلا أنه من خلال أمور لا ذنب لها فيها ، أصبح متورطاً في المكائد التولية ، حول موضوع حجر تيماء (أنظر ص ١٣٩) ، فأصبح هدف الفرنسيين بإعاده ، ولذلك فقد أفتى قتصلهم [في جدة] ، سر وجوده في مكة ، فاضطر هرغرونجه إلى تركها على عجل ، ومع هذا فقد بقى أحد الخبراء الكبار في العالم عن الإسلام .

في عام ١٨٩٤ تلا روتشس في زيارة مكة ، فرنسي آخر من الجزائر ، اسمه جرفى كورتيلمونت Gervais Courtellmont وهو مصور محترف ، وقد شجعه أصدقاؤه المسلمين على الذهاب إلى مكة ، لكي يتعرف أكثر على سلوكيهم وعاداتهم ، وذلك

وهلة بمدينة القدسية في جالمها ، إلا أنه ، مثل بيرتون ، بعد ما اطلع أكثر وجد مسجد الرسول عليه مهراجاً بطريقة لا تنم عن ذوق سليم

وبعد رجوعه إلى بريطانيا ، كتب كين في سيرته الذاتية : «لقد قمت بهذه الخطأرة الخفيفة ، بالحج إلى مكة لغرض واحد لا يتحقق إلا بالقيام بعمل يجعل اسمى معروفاً بأني رحالة مقتدر وهذا يضعني جيداً في موضع الثقة للحصول على المساعدات التي سوف تحتاج إليها لتنفيذ خططه - بقيت في ذهني من زمن - في بابوا»^(٥٠) ، وليس من الواضح عما إذا تمكن كين من تحقيق طموحه هذا أم لا ، ولكنه في خلال السنوات القليلة التالية لذلك ، كان قد سجن في البرازيل ، وأصدر جريدة في شنげهاي ، واشتعل في السكك الحديدية في الهند ، وعمل منقباً عن المعادن في بورما ، ثم عاش متسلكاً في إنجلترا وأخر ما وصلنا من أخباره أنه كان يعمل في حصاد قصب السكر في كوينزلاند Queensland وتعتبر مؤلفات كين حيوية ومليئة بالصيغة اللغوية : إنه ليس من الصعب أن تخيل جمال السيدة التي يشبه وجهها «ثلاث ركلات في جدار من الطين» .

ليس هناك أحد من النصارى الذين أقاموا بمكة من يعرفها ، كما يعرفها الرحالة الهولندي ، كريستيان سنوك هرغرونجه Hurgronje ، فقد قضى فيها أكثر من ستة أشهر في عام ١٨٨٥ وذلك بعد أن سكن لمدة خمسة أشهر في جدة ، وكان هرغرونجه من الباحثين في اللغات السامية وكان موضوع أطروحته للحصول على شهادة الدكتوراه ؛ عن أصول الحج ثم أصبح محاضراً في معهد الدراسات الإسلامية ، في الكلية التي تقوم بتدريب المسؤولين الهولنديين في جزر الهند الشرقية ، حيث يُؤلف المسلمين الغالبية العظمى من السكان ، وكان يعتقد أنه من المهم دراسة العوامل المؤثرة على الجاويين في مكة ، ودراسة سلوكيهم وعاداتهم المبنية على الدين ، وكانت الطريقة التي استعملها هرغرونجه في استقصاء المعلومات ، هي أنه تزوج بسيدة من أهل البلدة (يبدو أنه استعمل هذه الطريقة في بحثه ، في أماكن أخرى) ، وقد جلبت له زوجته معلومات

(٥٠) جزيرة في المحيط الهادئ (الترجمة) .

جولس جريفي كورتيلمونت (١٨٦٣ - ١٩٣١ م) ،
كان رائدًا في التصوير الصحفي وبصرف النظر عن
زيارته إلى مكة في عام ١٨٩٤ م ، فقد ترجل كثيراً في
الصين وكان مسافراً على أول قطار إلى المدينة وقد التقى
صورة لتدفين سكة حديد الحجاز في عام ١٩٠٨ م .



حسب تصوّرهم ، وقد كتب يقول : «إنني أحب الإسلام ببساطة عقيدته وتعجبني
أهدافه التي لا تترعرع ، دون أن أملك الجرأة للاعقاد به». ولم يواجه كورتيلمونت
صعبات تذكر حتى في أخذة لصور الفوتوغرافية ، مدعياً بأن أدأة التصوير التي
يستعملها ما هي إلا منظار ، وقد قال له دليه : «إنني أعرف أنك تسمّها كمراة ،
وذلك لأنني رأيت السائحين مراراً يستخدمونها في طنجه» وقد ورد في كتابه قصة أبيرة
«الفانتوم» أو أشباح الجمال التي تصل إلى مكة في كل ليلة ، ومفاد القصة : إنه من
المؤكد أن كل من دفن في المدينة المقدسة سيدهب إلى الجنة في يوم القيمة ، أما أولئك
الطلالون الذين لا يستحقون فإنهم ينفلون بعيداً على هذه الجمال ليحل محلهم من يستحق
من كل أطراف الأرض ، من المغرب أو تركستان ، ويقول أيضاً ، إنه وجد صعوبة في
شراء المجوهرات ، فكل قطعة تباع في السوق لابد من عرضها على شيخ الصاغة ليقر
سعراها ، وذلك بعد وزنها ، والوزن يقرر نسبة إلى وزن عدد من نوى التمر ، وحب
الفول ، كما وصف نوعاً خاصاً من المحابس الفضية التي لا يمكن شراؤها إلا من مكة ،
 ولو لبسه شخص لم يسبق له أداء فريضة الحج ، فإنه يكون كمن ظهر بلون مدرسة لا
يتنمي إليها .

وفي خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ، زار مكة ثلاثة رجال
إنجليز ، إثنان منهم كانوا مسلمين حقاً وقضياً معظم حياتهما يدينان بالإسلام ، والثالث

زوجته المصرية وبدأ دراسة العلوم الإسلامية في الأزهر ، تلك الجامعة التي بلغ عمرها ألف سنة والتي تعتبر أعظم مركز فكري إسلامي ، وقد أعلنت الجهات الشرعية هناك صحة إسلامه ، ثم قام بأداء الحج في عام ١٩١٠م وقال بأن تكاليف الحج حينذاك ، ومن ضمنها البقاء في مكة لمدة خمسة أشهر ، تبلغ ٤٠٠ جنيه إسترليني .

أما ضابط الجيش ، فقد زار مكة قبل تشيرشورد بستين ، واسم آرثر وائل Wavell ، وهو قريب الرجل الذي أصبح فيما بعد الفيلد مارشال وزميله في المدرسة ، وقد بدأ وأفل خدمته العسكرية كملازم أول في حرب بوير [في جنوب أفريقيا] وبقي هناك في المسح العسكري ، وقد مضت عليه فترة ١٨ شهراً دون أن يرى شخصاً أوربياً ، وفي عام ١٩٠٦م بدأ في مشروع زراعة السيرزال في كينيا^(٥) ، وهناك تعلم اللغة السواحلية وتعرف على كثير من الأهالي المسلمين واصطبغ أحدهم معه إلى مكة ، وقد كتب يقول بأن الغرض من زيارة مكة هو حب الاستطلاع وتعلم طبائع العرب والحصول على لقب « حاج » ليؤهل نفسه لاكتشاف المناطق الجبلية من الجزيرة العربية .

واشتري وأفل تذكرة قطار للدرجة الثالثة من دمشق إلى المدينة بسعر ثلاثة جنيهات إسترليني ونصف وقد بقى في المدينة لمدة ثلاثة أسابيع وكانت حالية من الحوادث ما عدا إطلاق الرصاص في بعض الأحيان على الحامية التركية من قبل بعض الناقمين من البيتو ، وفي مكة استأجر بيته بسعر سبعة جنيهات إسترليني في الشهر ، وذكر في كتابه أنه إذا أراد أي شخص أوربي زيارة مكة ، فما عليه إلا أن يدخل البلاد متكتراً ومليماً بعض المعلومات عن الإسلام ، وأن يتصرف تصرفاً حسناً ومحبلاً بين الأهالي ، فإن فعل ذلك فلا خطر عليه .

وبعد ستين من زيارة مكة ، تعرض وأفل خطير جسيم ، حينها ذهب إلى اليمن ، وذلك أنه عندما كان في الحديدة منعته السلطات التركية من السفر إلى صنعاء لعدم

(٥) السيرزال : ليف أبيض من ينبع منه الحبال (المورد ، ص ٨٥٨) - الترجم .

كان ضابطاً مغامراً ذهب متكتراً ومتظاهراً بالإسلام . كان أول هؤلاء الأشخاص ، حسب الترتيب التاريخي ، الحاج عبدالله وليامسون Williamson ، وقد حج حجته الأولى في حوالي عام ١٨٩٥م .

تبدأ قصة وليامسون بهروبه إلى البحر ، كما فعل كين من قبله ، وبعد ذلك قام بسلسلة من المغامرات ، فعل في مناجم الذهب في كاليفورنيا ، وفي صيد الحوت في المنطقة المتجمدة الشمالية وانضم إلى جماعة من المتمردين في الفلبين ، وبينما كان يعمل شرطياً في عدن ، في العشر الأول من القرن الماضي ، اعتنق الإسلام ، وقد شجع على الاستقرار في محل آخر ، وفي خلال العشرين عاماً التي تلت مغادرته عدن ، استقر وليامسون قرب البصرة ، وقد اندهش الأهالي لركوبه الدراجة الهوائية القديمة ، كما روّعهم باستعمال الحاكي [صندوق الغاء] ، حتى كادوا أن يفقدوا صوابهم ، معتقدين دون شك ، أن الحاكي هذا ، ما هو إلا صندوق للشياطين . وقد اشترى وليامسون عدة مرات في الغزو مع البدو واكتسب شهرة كبيرة لخبرته في معرفة لحم الجمل ، وكونه من التغير اشتري مركبة شراعياً ، استعمله بالتأكيد في صيد المؤوث ، وربما في تهريب الأسلحة والذخيرة ومن المحتمل أنه استعمله في تجارة الرقيق . وبعد فترة ، عمل فيها مع البريطانيين بعد احتلالهم للعراق ، اختتم ، باحترام مقبول ، حياته العملية المتنوعة ، بالعمل مترجمًا ومستكشفاً لصالح ما يعرف الآن بشركة النفط البريطانية .

أما الشخص الثاني ، فكان اسمه هيدي تشيشورود Headly Churchward الذي كتب مذكراته تحت عنوان جميل «من دروري لين إلى مكة From Drury Lane to Mecca» ، وعمل هذا الشخص في العقد التاسع من القرن الماضي مصمماً للمسارح فجهز الستائر الخلفية لكل من ليلي لأنجيري وهنري إيرفنج ، وقد كسب بسبب مهاراته دعوات إلى ساندرنجام Sandringham ، ليقوم بتصميم أزياء لسرحيات ملوكية ، وكان رئيس الفرق الفنية في حفل افتتاح قناة مانشستر للسفن Manchester Ship Canal ، وقد أدت به ، زيارته إلى المغرب إلى اعتناقها الإسلام ، ثم ذهب إلى القاهرة واستقر فيها مع

وقد تعرض كاروثرز مرة للخطر ، عندما شن جماعة من الفرسان ، غارة عليه [وعلى رفقاء] ، وقد وصفهم بأنهم نصف عراة وكانوا راكبين صهوات جيادهم العارية وملسحة بالرماح والبنادق وقد جاءوا كالعاصفة فأخذوه أسرى وبعد فترة من التوتر التي ظن فيها بأنهم يسلبونه حتى سرواله ، وجلدا الماريدين وهو أثمن شيء لديه ، نجع أصحابه في ضمان إطلاق سراحه ، ومثل غيره من الرجال فقد ظن كاروثرز ، أن صحراء النفوذ كانت أجمل ظاهرة طبيعية رآها في حياته فكتب يقول : «أما لون الرمل ، فيتغير من قرمزي تحت شمس الصباح الباكر إلى أبيض تحت شمس الظهر الساطعة ، وفي الأصل تجده يتغير إلى لون أحمر خافت كالقماش المخلي ، ولكننا لو نظرنا إلى الرمل عن قرب لوجدناه ذا لونين أحمر وأصفر مكوناً مزيجاً لا يمكن وصفه .

أدى اندلاع الحرب العالمية [الأولى] إلى جلب العديد من الأوروبيين إلى الحجاز ومن ضمنهم بالطبع ، لورنس المعروف ، وإنه لمن الصعب أن نكتب بعض الكلمات عن شخص مثل لورنس في هذا الكتاب وذلك لأنه ، كما يعتقد مؤلف هذا الكتاب ، كان ضابط استخبارات ، وخبرياً في جمع المعلومات من فترة سباق الحرب العالمية الأولى ، ويعتبر كتاباته غير المشورة نموذجاً للتقارير العسكرية ، ولا يسعنا هنا إلا أن ننقل ثلاثة فقرات من كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» في محاولة منا لجذب الانتباه لقراءة كل الكتاب : «استقلبني الرجال بمحافاة وكانتا متبددين كالقارب المستريح ، تحت كل صخرة كبيرة أو شجيرة طلباً للراحة وهرباً من الحر حيث مدوا أرجلهم تحت ظل الصخور لوقايتها من حرارة الشمس ، وبسب لباسي الكاكي ، فقد اعتقلوا أنا ضابط تركي مدرب ، هرب من الخدمة ليضم إلينهم ، فأبدوا شعوراً لطيفاً نحوه ولكنهم احتاروا في الكيفية التي سيعاملونني بها وكان معظمهم من الشباب ، مع أنه من الصعب تحديد الرجل المحارب في الحجاز ، فكل من يستطيع الرمي ، ما بين الثانية عشرة والستين من عمره يعتبر رجلاً مقاتلاً ، وقد كانت وجوههم قاسية وسماء داكنة ، بعضهم زنوج ، وأجسامهم نحيلة ، ولكنها جميلة التكوين ، يتحركون جميعاً ببرونة وحيوية ، تسر النظر ، ويبدو أنه من غير المتحمل أن يكون الرجال أكثر شجاعة أو أنهم أقدر على

استباب الأمان ولكنه استطاع أن يتسلل سراً ، ولم تكن السلطات التركية على خطأ عندما شكت في زيارة هذا الرجل الإنجليزي ، وبعد أيام قلائل من وصوله ، طوقت العاصمة اليمنية بقوات عربية مسلحة بمدفع وأسلحة حديثة ، فوضعت القوات التركية وأفل تحت الحراسة المشددة ، وهي على يقين بأنه جاسوس ، وبعد أربعة أشهر انفك الحصار عن المدينة ، وحالما تم ذلك ، قرر الأتراك إرساله إلى الساحل تحت الحراسة ، ولما كان عازماً على زيارة مناطق أخرى من اليمن ، فقد اتفق وأفل على كل حال ، مع أحد قطاع الطريق المتمرسين ليأخذه إلى مأرب ، وقد ارتدى درعًا تحت ملابسه ، وهرب من صنعاء ولكنه لم يجد ذلك الشخص في المكان المتفق عليه ، وألقى القبض على وأفل وسيق إلى قصر الحاكم متبعاً بسرعة من العوام الذين توقيعوا دعوتهم بعد وقت قصير ، لمشاهدة تنفيذ الإعدام بحقه علناً ، غير أنه بعد أن سجن لفترة قصيرة ، أُفرج عنه وطرد من اليمن ، فرجع وأفل إلى كينيا في حزيف ١٩١٤ ، وقام بتنظيم قوة من السقائين العرب ، لعب دوراً هاماً في صد الهجوم الألماني على ميناء موبيسا ، وفي يناير ١٩١٦ ، قتل وأفل في معركة مسلحة في شرق أفريقيا .

ومع بداية القرن العشرين ازدادت معرفة الأوروبيين عن الحجاز ، فقد أنهى المهندسون مسح عدة أجزاء لصالح مشروع سكة حديد الحجاز ، ووجد بعض الباحثين طريقهم إلى حرائب مدان صالح ، وفي عام ١٩٠٩ م تحول في الجزيرة العربية رجل [إنجليزي] اسمه دوجلاس كاروثرز Carruthers وهو متخصص في علم الطبيعة وكان قد رار كلاً من الكونغو وتركستان ثم زار فيما بعد منغوليا ، وكانت جولته هذه في سبيل البحث عن حيوان الماربة العربي ، هذا الضبي الجميل ذو اللون الأبيض الذي يقارب في حجمه حجم البقرة والذي يوشك على الانقراض ، كما انقرض من قبله الحمار الوحشي والنعام بعد أن كانوا يعيشان في هذه المناطق ، وبعد عدة أسابيع من الصيد استطاع كاروثرز أن يصيد إثنين منها وجاء بجلديهما ، ولقد تمعن كاروثرز بصحبة البدو ، واعتقد بأنهم أعجبوا به أيضاً ، وقال إنه بالرغم من أنها نجد البدوي رجالاً صعب المراس ، إلا أنه سرعان ما يُدلي إعجابه بالـ «صاحب» .

ترحف بطية غرباً ، تذروها الرياح الحارة فوق الحجارة الرملية البالية ، وما أن قارب وقت الظهيرة ، حتى بدأت الرياح تهب بشدة فبدأت شفاهنا تذبل وتصدع من شدة الجفاف وتشققت وجوهنا بشدة بينما تقطبت حواجبنا وغارت في جيابنا تاركة عيوننا عارية .

وفي نهاية هذا الفصل يجدر بنا أن نذكر سيدتين إنجلزيتين ذهبتا إلى الحجاز بعد الحرب العالمية الأولى ، الأولى ذهبت تحت اسم الكونتيس ماليجانتي Countess Malmiganti وأخذت معها عدداً من المفرقعات النارية ، كهدايا للأهالي البسطاء [لنشر دهشتهم] واحتفلت كتابها على فضول مثل : «بين العرب المتخصصين» وهو شيء ينبع مكتوب لfilm غير مهم ، أما السيدة الثانية فكانت لدى Evelyn Cobbold ادعى بأنها أول سيدة أوروبية قامت بالحج ، والظاهر أنها قضت أوقاتاً ممتعة في الجزيرة العربية ، حيث التقت بعدد من السيدات العربيات ، وتجاذبت معهن أطراف الحديث والنقاش . إن تجربتها في مكة تختلف عن تلك التي مر بها غيرها من الرحالة الأوائل الذين ذكرناهم والذين عانوا من الخوف على حياتهم .

تحمل الصاعب منهم ، فلديهم القدرة على الركوب لمسافات بعيدة في كل يوم ، ومتسلسين على الجري ، حفاة الأقدام في الرمضاء ، على الرمل وفوق الصخور ، دون شعور بالألم ، ويسلقون جبالهم كلامعز ، وملابسهم لم تكن أكثر من ثوب فضفاض مع سروال قطني قصير ، أحياناً وشال كفطاء للرأس ، عادة ما يكون خرقه حمراء ، يستخدم حسب الحاجة ؛ كمنشفة أو منديل أو كيس ، ويلبسون حزاماً عريضاً متغضضاً ويطلقون الرصاص في مناسبات الفرح » .

«الجزل^(٥٢) .. منحدر عميق يكاد يبلغ عرضه مائة يارد تند على جانبه صخور رملية مُشيّعة بلون أحمر في مواضع مختلفة .. وبالله من منظر بديع ، ارتفاع شامخ وأرضية لونها ما بين وردي خافت إلى أخضر هاديء ، إنه أجمل ما رأته عيناي بعد أن تعودتا رؤية أشعة الشمس الساطعة . وعند الأصيل ، حيث الشمس الغاربة تضرب بأشعتها الذهبية جانب الوادي ، ليظهر الجانب الآخر بلون البنفسجي العامي» .

و قال لورنس يصف سهل الحول El Hou^(٥٣) شرق تبوك : «ومضينا في سيرنا فيه دون أن نرى أثراً للحياة ، فلا أثر فيه للغزلان ولا للسحل ، ولا جحور للفران أو حتى الطيور ، لقد شعرنا فيه نحن أنفسنا بالصغر المتناهي ، وبالرغم من تقدمنا حيث عبر مساحته الشاسعة إلا أنه بدا وكأننا نراوح في مكاننا أو بدا وكأنه جهد ضائع ولم تكن ثمة أصوات نسمعها سوى الأصداء الجوفاء بوقع أقدام جمالنا فوق الصخور الهشة ، ذلك الصدى الذي يصدر من رصف الحجارة فوق الأقبية وذرارات الرمال الحارقة وهي

(٥٢) الجزل : واد معروف منذ صدر الاسلام ، تغذيه بصفة رئيسية الأودية المسحورة غرباً من حرة عويرض ، ويتجه الوادي نحو الجنوب موازياً لوادي العلا (وادي القرى سابقاً) الذي يجري موازياً لحرفة عويرض من الشرق حيث يجتمع مع وادي الجزل عند قرية المشيشة ويستمر وادي الجزل في اتجاهه نحو الجنوب حتى يلتقي مع وادي الحمض القائم من الجنوب ، عند قرية الزبائر والضليلة حيث يتجه وادي الحمض غرباً ليصب في البحر الأحمر جنوب الوجه (المترجم) .

(٥٣) يبدو أن المقصود بسهل «الحول» هنا هو سهل «الحاوى» الذي يتلقى مياه وادي فجر وذلك كما يتضح من وصف لورنس في كتابه ص ٢٥٣ ، ٢٦٨ (المترجم) .

بدأت مشاكله مع رفقاء فكتب في مذكراته يصفهم باللماطلة والكذب والنفاق ، والمخادعة ، حتى إنه قال : ليس هناك لغة يستطيع أن يصف بها احتيال هؤلاء الناس شخص أوربي حتى يفهم طبيعة هذه الجماعات من اللصوص على حقيقها ، وأن آية محاولة للتفاهم معهم على أساس المبادئ والعدالة والانصاف ، أمر غير مجد حتى وإن حاولت تذكيرهم بوعده أو عهد أعطوه لك ، إلا إذا كنت تملك القدرة على اختضاعهم بالقوة . وقد اكتشف سادلير ، أن دليله كان يظهر الخضوع حتى إذا ما أصبحوا في وسط الصحراء فإنه يتحول إلى رجل ببرى وفي حوزته فريسة ، فيبذل جهده ليستغل الفرصة حتى لا يسلبها منه شخص آخر ويقول سادلير : [في أثناء الرحلة] لا ماء معنا ، ولا حيلة لنا في تدبير أي شيء وكانت سعيداً لدفع ستين دولاراً لوضع حد لهذه المعاناة .

وفي المفوف لم يجد سادلير [من الطعام] سوى قليل من المشمش الرديء ، وتبين مجفف وباس وبطيخ رديء وبصل في شكل الجزر ، أما الباشا فلم يكن في المفوف ولا أحد يعرف أنه كان يقوم بالانسحاب من نجد ، ولكن الحاكم العسكري هناك كان يعرف بالتأكيد أن إبراهيم كان يعسكر على بعد أيام قلائل إلى الغرب ، وبما أنه يزمع ارسال بعثة إليه ، فقد قرر سادلير مرافقتها ، وعندما وصلت البعثة إلى هدفها وجدت في استقبالها خبراً يفيد بأن إبراهيم قد غادر مؤخراً إلى الرس في وسط الجزيرة العربية .

وبما أن الرس لم تكن على بعد مسافة طويلة ، قرر سادلير اللحاق به ، ولكنه عندما وصلها وجد أن إبراهيم باشا قد غادرها منذ يومين ، متوجهًا إلى المدينة . شعر سادلير أنه قد بدل ما في وسعه للقيام بال مهمة الموكولة إليه ، ولذلك فما عليه إلا الرجوع إلى البصرة ، حيث كان على علم بوجود سفينة بريطانية ، ولكن الحاكم العسكري المحلي أخبره أن ذلك مستحيل دون توفر مجموعة كبيرة من الحراس والتي لا يملك السلطة بتجهيزه بها ، وهكذا وجد سادلير نفسه شاء أم ألم ، مضطراً للاستمرار في سيره غرباً ، وبعد أحد عشر أسبوعاً من مغادرته القطيف ، وصل سادلير إلى المدينة حيث استقبله إبراهيم باشا بحفاوة ، وأظهر إعجابه بالسيف الذي أهداه له سادلير ، ولكنه في

رحلة في شرق الجزيرة العربية وشهاها

إن ما ذكره الجغرافيون العرب عن المناطق الشمالية والشرقية للجزيرة العربية ، يكاد يكون قليلاً بالنسبة إلى ما ذكروه عن المناطق الأخرى ، وحتى نبيور وبور كهارت لم يحصل إلا على معلومات ضئيلة عن تلك المناطق ، وكان ذلك عن طريق سماعهما لما قاله الآخرون عنها . وبحلول عام ١٨٠٠ فإن معظم المناطق المهمة في جنوب الجزيرة العربية وغربها كانت قد تمت زيارتها من قبل الرحالة الأوروبيين ، غير أن أحداً منهم لم يتجاوز الساحل الشرقي سوى بضعة أميال إلى الداخل ، وأول من زار الجزيرة العربية من الشرق ، واستمر في سيره غرباً ، هو [ضابط في الجيش البريطاني اسمه] جورج فورستر سادلير George Forster Sadlier .

لقد ذكرنا في فصل سابق أن إبراهيم باشا احتل مدينة الدرعية عاصمة الدولة السعودية في فبراير عام ١٨١٨م ، وكان قراصنة الخليج في ذلك الوقت ، مصدر متاعب كثيرة للتجارة والبحرية البريطانية ، وفي يناير ١٨١٩م فكرت السلطات البريطانية في الهند ، أن تكتب إلى إبراهيم باشا وتهبها على انتصاراته ، ثم تدعوه للتعاون معها في تحطيم قوة القرصنة ، وما أن حل منتصف شهر أبريل ، حتى تلقى سادلير تعليمات بأن سعادته [الحاكم البريطاني في الهند] يضع ثقته التامة فيك [أي البasha] وفي سياستك الحكيم وأنه ليسره بأن يوكل إليك أمر تنفيذ هذه العملية المهمة .

وفي شهر يونيو وصل سادلير إلى مسقط ، وتوقف هناك فترة قصيرة ، حاول خلالها اقناع السلطان في الانضمام إلى هذا التحالف المقترن ، ثم وصل بعدها إلى القطيف . لم يكن مكان إبراهيم باشا معروفاً في ذلك الوقت ، ولكنه من المحتمل فيما يليه أنه ربما يكون في المفوف ، وهي على مسيرة عدة أيام إلى الداخل ، وقد استطاع سادلير أن يحصل على دليل من البدو ، وبدأ رحلته للبحث عنه ، ومنذ بداية الرحلة

نفس الوقت اعتذر عن إبداء رأيه في الجانب السياسي للمهمة ، التي جاء بها سادلير ، لكونه حندياً بسيطاً . لم يستطع سادلير الدخول إلى المدينة ، وإنما دار حولها ، وهو في طريقه إلى ينبع ، وبهذا أصبح سادلير أول أوربي يقطع شبه الجزيرة العربية عرضاً من الساحل إلى الساحل .

ومن ينبع ركب سادلير البحر إلى جدة حيث رتب له مقابلة أخرى مع البشا وحيث انتهت مهمته بمشاجرة عنيفة ، وذلك لأن إبراهيم قرر أن يبعث بمحاصنين إلى الحاكم العسكري البريطاني في الهند ، ولكن سادلير لاحظ أن السروج لم تكن جديدة بل هي مستعملة ، فأعادها إلى إبراهيم الذي ألغى الهدايا وأمره بمعادرة البلاد في الحال ورفض سادلير أن يغادر إلا على سفينة بريطانية مما أضطره للبقاء في جدة مدة ثلاثة أشهر أخرى قبل أن تصل إحدى هذه السفن .

وبعد سادلير ، هر قرن كامل قبل أن يقطع الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها أي رحلة أوربي ، ولكن من بين كل الرحالة الذين ذكرروا في هذا الكتاب ، فإن سادلير أقلهم امتلاكاً لصفات الرحالة ، فقد كره الجزيرة العربية ، وسكنها ، وكان متعرجاً لم يُظهر أي تسامح مع الناس ، ولم يرغب في تفهم طباعهم وعاداتهم ، ومع هذا فإنه جلب معه على أيامه حال معلومات جغرافية مهمة عن المناطق التي زارها ، نظراً لأنه ضابط يحسن بالمسؤولية .

أما الشخصية التالية فإنه يختلف كل الاختلاف عن سادلير الكاره للعرب واسمه جورج أوغسطس والين George August Wallin فنلندي ولد عام ١٨١١م ، ومنذ صيغة كان تواقاً للقيام برحلة إلى البلاد العربية ، وقد كتب أطروحة باللغة اللاتينية لـ نيل شهادة الدكتوراه عنوانها «الاختلافات الرئيسية بين اللغة العربية القديمة والحديثة» . بعد ذلك حصل على منحة دراسية لعمل دراسة مقارنة لدراسة اللهجات العربية المختلفة ، وقرر أن يسافر متوكلاً كطبيب ولقاح ، فقضى ستة أشهر لتعلم هذه المهن ، وفي يناير ٤ م ١٨٤٠

وصل إلى القاهرة وبقي فيها سنة واحدة تعلم خلالها الخط العربي ، والعلوم الإسلامية وتعلم العزف على الناي وترتيل القرآن ، وهكذا فلم يجد صعوبة في إلقاء الناس بأنه مسلم ، وكان دقيق الملاحظة ، خبيراً في كتابة الملاحظات من دون أن يثير انتباه الآخرين ، لقد كان والن مهتماً بكل شيء : قضايا قبلية ، سياسية ، كتابات قديمة ، الطوبوغرافيا ، علم النباتات ... إلخ ، ومع الأسف فإن كل ما هو مكتوب عنه باللغة الإنجليزية عبارة عن مقالين يحتويان على بعض النقاط المهمة في أحاجنه دون أي شرح لها .

وفي أبريل ١٨٤٥م سافر والن إلى فلسطين ، حيث اعتقد أن دخول الجزيرة العربية من شهاها هو أقل انطريق إثارة للشبهات ، وفي سبتمر من ذلك العام أصبح أول أوربي يدخل مدينة حائل التي كانت تحت حكم ابن رشيد المشهور بكرمه ، والذي قصده الزائرون من كل حدب وصوب ، وكان باستطاعة أي شخص أن يبقى في ضيافاته لأي فترة يريد دون سؤال ودون مقابل . لا شك أنه قد كلفهم الكثير ، فيقال أن مياه حائل العذبة تحمل الإنسان قادرًا على أكل حروف دون أن يصاب بسوء الضم ، شريطة أن يشرب من مياه الآبار المحلية ، وقضى والن مدة شهرين في حائل كان فيما سعيداً ، إلا أنه لم يستطع السفر إلى الرياض لخطورة الطريق ولقلة ما لديه من نقود . وبالرغم من أنه كان متربداً في زيارة مكة ، والتي زارها كثير من الرحالة من قبله ، إلا أنه انضم إلى جماعة من الإيرانيين في قافلة كانت في طريقها إلى الحج مؤملاً أن يذهب من المدينة إلى الساحل ، غير أنه عندما حان ذلك الوقت شعر بمرض شديد ، وكان فقيراً جداً لا يستطيع ترك رفاقه ، لذلك استمر في سفره معهم لأداء الحج ، وبعد انتهاء الحج بأيام قليلة وصل إلى جدة ومعه شلن واحد فقط .

عاد والن إلى القاهرة واستمر في دراسته ، وبعده. ثلاث سنوات نزل على ساحل البحر الأحمر قريباً من الجزء الجنوبي لصحراء سيناء ، وتحول هناك لمدة شهرين ، في مناطق لم يصلها أي أوربي من قبل ، ثم وصل إلى حائل ودخلها مرة ثانية ، وكان والن حريراً جداً على عدم استغلال كرم مضيفيه بالأكل كثيراً من طعامهم المحدود ، وأهدي

لقد كان غورماني على علاقات حسنة مع عدد من شيوخ القبائل المحلية ، وقلما صادف مشكلة في رحلاته ، وكان على علم بعادات البدو وتقاليدهم ، وقد اتضحت ذلك عندما هبت ريح قوية وأطاحت بخيامهم ، فنهض خادمه الحضري لمساعدة النساء في نصب الخيام ، فنهره غورماني ، وقال له لا يمكن لرجل يدوي أن يذل نفسه بالقيام بعمل هو من اختصاص النساء . تمكّن غورماني من الحصول على ثلاثة أحصنة قوية البنية بسعر مائة جمل ، ولكن لم يسمح له بالاقتراب من أي فرس أصيلة ، خشية أن يكون ذا عين حاسدة ، وقد هرجم عدة مرات مع رفاته غير أن حيوله ، كما يقول خبأة في مكان أمن مع الجرجي والنساء والأمتعة .

كانت المناطق الداخلية من الجزيرة العربية مسرحاً للغزوات القبلية ، وبينما كان غورماني قرب مدينة عنزة ، صادفته جماعة غازية بقيادة الأمير عبدالله الذي جاء ذكره مع بلجريف في فصل سالف من هذا الكتاب ، وقد رفض الأمير مقابلته ، وبعثه تحت الحراسة إلى حائل وأول شيء شاهده هناك ، كانت جثة يهودي إيراني رفض الصلاة على النبي وقد صمم غورماني أن لا يكون أحد هؤلاء البسطاء في تفكيرهم ويدخل الجنة مع الأغياء . وبالرغم من أن طلال بن رشيد يدرك أن خليل أغما ما هو إلا اسم مستعار في زي مسلم تركي إلا أنه عامله معاملة حسنة . ومثل بلجريف، فقد أخذ غورماني أجمل صورة عن حاكم جبل شهر، فقد رأى فيه حاكماً عادلاً، «... يجلس على الجانب الغربي للمسجد ، ويجلس إلى يساره كبار المسؤولين ، كل حسب مركته ، بينما جلس أمامه على الأرض عشرون من عبيده وخدمه في صنوف خلف بعضها على شكل نصف حلقة ، وكلهم يرتدون أحسن الملابس والعباءات السوداء الجميلة ، وعلى كل منهم ستة حمراء أو زرقاء ، مطرزة بخيوط ذهبية ، ويحملون في أيديهم كا يحمل الأمير وكل واحد من أتباعه سيفاً في غمد فضي» وأول قضية [عرضت على الأمير] ، هي قضية إمراة عجوز اشتكت من حاكم قريتها الذي استولى على حمارها . وقضى الأمير أن يذهب إثنان من جنوده ، وأن يستوليا على أحسن حمار عنده واعطائه لتلك المرأة ، كما أمر لها بكسوة جديدة .

إلهيم في المقابل بعضاً من القهوة والتبغ ، وقد أصبح بخيطة أمل عندما علم أنه للمرة الثانية ، لن يستطيع زياره الرياض ، حيث حذر صديقه له من بيت ابن رشيد أن بعض الناس يشكّون في أنه نصراني ، فترك حائل على عجل ، وانضم إلى قافلة كانت في طريقها إلى بغداد ، وما أن وصل إلى البصرة حتى وجد نفسه صفر اليدين من النقود ، فقال : «اضطرني الحال إلى أن أتجنب الأصدقاء ، وأن أحزم نفسي من أكل الفاكهة ومن ضوء الشموع ، ومن لبس الملابس النظيفة ، إلا إذا غسلتها بدون صابون ، وكانت سلوتي الوحيدة ، هي سماع رجل فارسي مستاء كان يروي شعره الحزين» . وأخيراً تم إنقاذ والن على يد البحرية البريطانية التي ساعدته على الرجوع إلى القاهرة ، وهناك غير رأيه في فكرة الذهاب إلى اليمن ، وفي عام ١٨٥٠ رجع إلى بلدته هلسنكي [عاصمة فنلندا] ، وأصبح أستاذاً للغات الشرقية في جامعتها ، وبعد سنتين من ذلك ، وبينما كان على أهبة الاستعداد لسفره إلى الجزيرة العربية توفي والن ، وكان عمره آنذاك واحداً وأربعين عاماً . وتکاد تتفق الآراء كلها على أن والن يعتبر من أشهر الرحالة الأوروبيين في الجزيرة العربية .

لقد رأينا في فصل سابق كيف أوفد نابليون الثالث سنة ١٨٦٢م ، الإنجليزي بلجريف Palgrave إلى نجد ، وبعد سنتين من ذلك بعث شخصاً إيطالياً إلى نفس المنطقة إسمه كارلو غورماني Carlo Guarmani ، ولد في عام ١٨٢٨م في «ليغورن Leghorn» ولكنه عاش في الشرق الأوسط منذ عام ١٨٥٠م واشتغل كمسؤل عن خدمات البريد الفرنسي في القدس ، وكلما سُنحت له الفرصة تجول مع البدو الرحل في المناطق المحاذية لنهر الأردن ، وأصبح خيراً بالخيول العربية . وقد استطاع الحصول على إمتياز يحوله شراء الخيول للعوائل المالكة في كل من باريس وتورين ، وهذه المهمة اصطحب معه خادماً قدماً .. «فالنَا نفسي من قيود العواطف العائلية وأحزانها ... فقد ظلت عائلتي أبني ذاهب في سبيل أداء مهمة ما بطوعي واختياري» ، وسافر تحت الاسم المستعار خليل أغما وزعم أنه المسؤول الرسمي عن خيول حاكم دمشق التركي .

بمحاولة شخصية للاتصال بأقوى رجل في المنطقة ، وما حفزه على السفر إلى نجد أيضاً ، رأى الجمعية الملكية الجغرافية ، أنه من الصعب على إي شخص أوربي الوصول إلى الرياض (حقاً ، لقد كان موقعها غير محدد بالتأكيد) ، كما أنه لا يعرف عن تلك المنطقة ، أي شيء منذ زمن بطليموس الجغرافي ، بالإضافة إلى ذلك ، فإنه أراد أن يضيف إنجازاً آخر إلى إنجازاته السابقة ، فقد قام برحالة بمفرده من طهران إلى الهند ماراً في طريقه بقاندھار .

ذهب بلي أولاً إلى الكويت وكان ذلك في أوائل عام ١٨٦٠ وبقى هناك يتنتظر ويأمل الحصول على سماح له بالتوجه نحو الرياض ، وخلال فترة انتظاره ، شغل وقته بالتحدث والقيام بسفرات الصيد مع عليه القوم الذين شبههم بالبلاء الإنجليز لطبيعة خلقهم وكرمهم . لم تذكر الكويت كثيراً في أخبار الرحالة الأوربيين ، لعدم وجود شيء يثير فضولهم فأهلها تجاه متخصصون وأصحاب معرفة ، والعائلة الحاكمة فيها متغيرة ، فهي بلد لا يجد فيه الرحالة أي مغامرة أو مخاطرة .

وبعد انتظار دام عدة أسابيع ، وصل جواب مقتضب من الإمام يعطيه السماح بالدخول إلى نجد ، ولكن لم يكن هناك دليل مع الرسالة . تكونت القافلة من ثلاثة جملأ ، وضابط بحري لأخذ بعض الملاحظات الفلكية ، وطيب ، وطباخ برغالي ، ومتترجم ، وثلاثة جنود هنود ، وخادم إيراني ، وزاد من الحسأء واللحوم الجففة ، وأرز وتمر . وقد أصر بلي أن يلبس أعضاء البعثة الملابس العربية ، وقال : «إننا نشبه تلك المجموعة التي لو رآها فولستاف Falstaff^(٥٤) ، لاعترض على سيرها في شوارع كوفنترى» .

وكان الطريق الذي سلكته البعثة يمر بمناطق صحراوية ، تعتبر الآن من أغنى مناطق النفط في العالم ، وأهم ما وقعت عليه أعينهم في الأيام العشرة الأولى من سفرهم ،

(٥٤) فولستاف : نديم الملك هنري الخامس وكوفنترى مدينة في إنجلترا (المترجم) .

لا شك أن غورمانى قد تمعن بالفترة التي قضتها في الجزيرة العربية ، ومع أنه ينتمي إلى العصر الفكتوري ، فقد كان مجرأً على انتقاد عادات العرب وتقاليدهم ، فاتهم الرجال بالانغماس في اللهو والملذات واتهم النساء بأنهن للممتعة والترف ، ولكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بأن جمال السيدات العربيات يضاهي جمال أحسن السيدات في كانوافا Kanova وأن شعرهن أسود وطويل ولا مع ، ويدهن بمرهم عطري مرركب من مسحوق لحاء ساق شجرة النخل والدهن الصافي المستخلص من ذيل الظأن ، كما أنه يعتقد أيضاً بأن المناطق المجاورة ، والتي تقع تحت حكم طلال ، الخازم ، هي أكثر أماناً من إيطاليا . وقد قام غورمانى بجولات واسعة بحثاً عن الحيوان وقد تعرض في المرحلة الأخيرة من جولاته هجوم من قبل حماعة كبيرة غازية ، كاد أن يفقد فيها خيوله كما قارب هو على الهلاك .

بعد حوالي خمسين عاماً من زيارة سادلير لنجد ، زارها رجل بريطاني آخر كان ضابطاً في الجيش وهو الكولونيال لويس بلي Colonel Lewis Pelly ، فمنذ مجيء الأمير فيصل بن سعود إلى الحكم بدأت العلاقات السعودية - البريطانية تأخذ اتجاهًا سليباً ، خاصة فيما يتعلق بتجارة العبيد ، والتي حاولت البحرية البريطانية محاربتها بشدة ، مما أدى إلى عدة مواجهات بين الطرفين . حاول بلي ، وكان مثل بريطانيا في الخليج ، أن يقوم

السير لويس بلي (١٨٢٥ - ١٨٩٢) . كانت الفترة التي قضتها كمحقق سياسي في الخليج من عام ١٨٦٢ - ١٨٧٣ ذات أثر في تغير السياسة البريطانية ، فقبل ذلك كانت السلطات تركى بصفة رئيسية على الحافظة على السلام في البحر ، أما بعده فقد بذلت بعض الجهد لتحسين حالة السكان .



إن كل الرحالة الذين ذكرناهم سابقاً وصلوا إلى حائل ، متذكرين في أزياء Wilfred Blunt and Lady Ann وشخصيات مختلفة ، أما ويلفرد وزوجته الليدي آن بلنت Blunt ، فقد ذهبا غير متذكرين ، بل كتباء بريطانيين ، في زيارة عائلات عربية نبيلة ، كان ويلفرد بلنت رجلاً كبير الجسم ، وذا شخصية قوية ، يتكلّم اللغة العربية ولكن بدون قواعد النحو أما زوجته الليدي آن (حفيدة بایرون Byron) فكانت إمراة خجولة صغيرة الحجم تتكلّم اللغة العربية الفصحى ، مما صعب على كثير من الناس فهمها ، كان الاثنين يعشقان الخيول العربية ، وأظهرا تحمساً للدراسة الأدب العربي ، حتى أن ويلفرد ، وهو شاعر ، ترجم كثيراً من الشعر العربي إلى اللغة الإنجليزية ، وما فتئت قراءة هذه الترجمة ممتعة وكان ويلفرد معجباً بالعرب ، وفي الجزائر رأى البون الشاسع بين حياة البلاء من رعاة الجمال ، وبين حياة أولئك البلاء المنتفعنة بطونهم بالخمرة ، من رعاة الخازير الفرنسيين ، وكان طوال حياته ، يتميّز دائماً .. أن يغسل الشخص الغربي روحه المريضة ، بظهور وجمال الشرق الشافي ..

وفي خلال زيارة سابقة قام بها ويلفرد وأن إلى سوريا ، التقى بشخص يقال له محمد بن عروق والذي أدعى بأنه واحد من ثلاثة أخوة من عائلة نجدة عربة ، لكنهم اضطروا إلى ترك نجد على ظهر بعير واحد ، وكل واحد من الأخوة الثلاثة استقر في مكان ما ، والآن يود أن يرجع من نفس الطريق التي سلّكوها عندما تركوا نجداً عسى أن يجد ابنة عم له يتزوجها ، لهذا فقد كان متّحمساً لفكرة السفر إلى حائل .

وقد غادر ثلاثة منهم سوريا في شهر ديسمبر من عام ١٨٧٨م ، وقبل أن يقطعوا مسافة طويلة ، وبينما كان بلنت وزوجته يتوجّلران بعيداً عن رفاقهما ، إذا بجماعة من الغزاة تأسّرها ، وتلقت الليدي آن ضربة رمح أوقعتها على الأرض ، أما ويلفرد فقد كسرت على رأسه خشبة بندقية ، وقد تبيّن أن الجماعة الغازية كانت من أصدقاء محمد فصالوا وانتهت المغامرة وجلسوا معاً لتناول طعامهم . وذكرت الليدي آن في مذكراتها قول : إنه بالرغم من شراسة تلك الجماعة إلا أنه اتضاح لها ، أنهم كانوا مهدّين .

كان شجرة ، وخلال الرحلة ، كان بي داعم السؤال والاستطلاع من رفاته ، وجمع المعلومات الكثيرة عن المنطقة وأهلها ، فأصبح بذلك أول الأوربيين الذين كتبوا عن جماعة الصلب (...) الذين يشتهرون بمهاراتهم في الصيد ، فكانوا يُعطّون رؤوسهم بمقدمة الغزال ، وبهذا يمكنهم الاقتراب لمسافة أذرع من قطيع غزلان ترعى ..

وبعد مسيرة أسبوعين شاهد أفراد البعثة أول بناية وأول بستان منذ مغادرتهم الكويت ، وفي خلال يومين كانت البعثة في داخل الرياض ، وقد استقبلوا استقبلاً مهذباً ولكنه بارد ، وقد بدا الإمام فيصل كما لو كان في السبعين من عمره وكان فاقد البصر ، وحاضر البديهة بشكل كبير ، وهو رجل كبير ومهذب ، رزين الصوت ، هاديء الكلام ، دقيق في اختيار كلماته^(٥٥) . أبدى الإمام بعض الدهشة من زيارة هذا الرجل الإنجليزي للرياض وأوضاع أنه لم يسبق لأي أوربي زيارتها من قبل ، ولم يطرق الإمام في حديثه إلى انتقاد الحكومة البريطانية ، ولكنه قال ليلي : .. إننا نفت دينكم ..» ودعا للغرب عامة وليلي خاصة أن يستериوا طريق الرشاد ، وفي الزيارة الثانية ظهر الإمام من داره تمسّك بيديه جاريتان ، وما أن ظهر حتى استلمه رجال [وقاداه إلى مجلسه] (...) ، وقد أبدى الإمام إعجابه وتقديره للهدايا التي قدمها بيلى ، وكانت بندقية وساعة ذهبية ، وبعض القماش الأحمر ومسدساً وسيفاً ، أما المحادثات التي دارت بين الجانبين فكانت ودية للغاية ، إلا أن عدداً من أعضاء حاشية الإمام بدأوا يشعرون بالقلق من تحسّن العلاقات بين حكومتهم وبين سلطة كافرة ، ونتيجة لذلك فإن العلاقات بين الطرفين بدأت تسوء ، ووجد بيلى أن الوقت قد حان للمغادرة ، فوصل إلى الساحل من غير حادثة تذكر ، وقد انتهت حياته العملية بنجاح منقطع النظير ، فحصل على لقب سير ثم أصبح عضواً في مجلس العلوم البريطاني ، ودعاه ملك بلجيكا ليكون حاكماً إدارياً لمستعمرة الكونغو .

(٥٥) هو الإمام فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود ، تولى الحكم في عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م وتوفى - رحمه الله - في رجب عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م (ابن عيسى ، ص ١٦٢ ، ١٧٧) - المترجم .

ووضعت على رأسها صحنًا ذهبياً تدلى من أنف كل سيدة طوق ذهبي قطره بوصتين تقريباً ، وكانت الواحدة منه تضطر إلى نزعه قبل تناول الطعام .

لقد كانت مظاهر الثروة والعظمة واضحة في بلاط هذا الأمير ، ما عدا الطريقة المبتذلة نوعاً ما حيث كان الأمير فرحاً بعرض ثروته ، فقد أخذها إلى مطبخه ، وشاهدوا سبعة مراجل يسع كل واحد بداخله ثلاثة جمال ، وأخيراً ما يطبخونه من اللحم في كل يوم يبلغ أربعين خروفًا أو سبعة جمال لإطعام ما يقارب مئتي ضيف ، ثم قادها إلى الأسطبل فوجداً ما يقارب من مائة حصان عربي أصيل ، وقد دُهشوا عندما أخبرها بأنها تستعمل من قبل عبيده ، وكان في حوزة الأمير محمد إحدى تلك اللعب المسماة تلفون والتي انتشرت في أوروبا في العام المنصرم ، ولم يكن بذلك قد رأى هذا الجهاز من قبل ، فتقدم رجال من عبيد الأمير لورياد كيفية استعماله ، حيث وقفوا متباuginين لمسافة بعض ياردات وأخذ كل منهما يخاطب الآخر من خالله .

بقي بذلك وزوجته أسبوعين في حائل ثم غادرها مع قافلة من الحجاج الإيرانيين ، العائدين إلى بلادهم وبالنظر إلى الخلف فقد دونت آن في مذكراتها قول : «... إن مارأيته في حائل كان بلا شك أبدع شيء رأيته في حياتي» ، ولا يتسع المجال هنا لأن تتبع مسيرة ويلفرد بذلك وزوجته ، فقد أنشأ الأثاث مزرعة لتربية الخيول العربية ، وأصبح ويلفرد معارضًا شديداً للسياسة البريطانية مما أدى إلى دخوله السجن ، وأيد المقاومة المصرية ضد الاحتلال البريطاني . إن سفره إلى حائل لم تكن إلا حقبة من حياة صاحبة .

تشارلز هوبير :

وبعد فترة من مغادرة بذلك حائل ، جاءها رجل يُدعى تشارلز هوبير Charles Huber من الالراس^(٥٦) ، واستقبله محمد بن رشيد استقبالاً حسناً أيضاً ، وتذكر هوبير

(٥٦) الالراس : مقاطعة تقع حالياً في فرنسا قريباً من الحدود الألمانية (المترجم) .

وفي الجوف ، وجد محمد عروساً له وقام ويلفرد بهام الخطبة ، ودفع مهر العروس وقدره خمسون جنيهًا إسترلينيًا ، واستمر محمد معهما في رحلتهما ، وفي أيام التالي ، كتب بذلك يقول : «.. رأينا خطأ أحمر في الأفق ، إمتد أمامنا شرقاً وغرباً في خط متصل .. وقد يظن المرء أنه من تأثير السراب ، ولكن عندما اقتربنا منه وجدناه قد تكسر على شكل أمواج ولو لا لونه الأحمر لعله المرء بحاجاً حيث إنه ارتفع كما يرتفع البحر عن مستوى الأرض عندما ترتفع أمواجاه . تلك هي صحراء النفود ، والشيء الذي أدهشنا ، هو لونها الشبيه بلون المغيسيا وعشب الرواند ، ولا شيء البته ، شبيهاً بذلك الرمل الذي كنا نتوقعه .

دخل بذلك وزوجته ، مدينة حائل بعد تسعه أشهر من دخول داوي لها ، ولكن الاستقبال الذي لقياه كان مختلفاً عن الاستقبال الذي لقيه داوي ، وقد قام باستقبالهما الأمير محمد بن رشيد الذي تقلد دفة الحكم في إمارة جبل شمر ، بعد أن قتل ابن أخيه بيده وقطع أرجل أبناء عمه وتركتهم ينزفون دماً حتى الموت . وكتب بذلك يقول : وجه الأمير محمد ذكره بصورة ريشارد الثالث [ملك إنجلترا] ، ووصفه بأنه : «.. نحيل الجسم ، شاحب الخدين .. ضامر الوجنتين ، رقيق الشفتين ، أسارير وجهه منقبضة ومنفرجة حين الابتسامة ، لحيته سوداء صغيرة ، وله حاجبان مقطبان وهما أسودان وبازان بشكل واضح ، وله عينان غائرتان وهما ملفتتان للنظر وحداتان كعيوني الصقر ، تستديران بصفة مستمرة .. تبحلقان في وجوهنا تارة وفي وجوه الآخرين تارة ، ثم في وجوه أولئك الحالسين بجانبه تارة ثالثة ، إن وجهه يعطي انطباعاً ، وكأنه على حذر من شخص يتربص به لقتله ، كما أن أصابع يديه طويلة ، تشبه مخالب الصقر ويحركها بصفة دائمة ، وبدون توقف ، أما ملابسه فعل أجمل ما تكون ويحمل عدداً من الخناجر الذهبية ، وسيفاً ذهبياً مطعماً بالياقوت والفيروز» .

أما سيدات القصر اللاتي استقبلن الليدي آن فلم يكن بأقل عظمة منه ، فقد لبست إحداهن حول عنقها عدداً من السلالسل الذهبية مطعمه باللؤلؤ والفيروز ،



جرترود بيل
(١٨٦٨ - ١٩٢٦ م)

بدأت الرحلة في الشرق الأوسط حالاً بعد تخرّجها من أكسفورد حيث كانت أول فتاة تحصل على مرتبة الشرف الأولى في التاريخ ، وفي عام ١٩١٦ أعلن مسؤول رسمي «أنه قد اعترف بصفة عامة بأنها تفوق أي شخص من ذكر أو أنثى ، معرفة بالنسبة لكل القضايا العربية» وقد لعبت دوراً رئيسيّاً في تعين الشريف فيصل كأول ملك على العراق «المتحف الوطني للصور بلندن» .

حجر تيماء يرجع تاريخه إلى القرن الخامس ق.م وربما يكون أهم نوش آرامي (لغة المسيح الحقيقة) وجد في الجزيرة العربية ، ويسجل كيفية دخول معبد جديد وهو «صلبه» إلى تيماء عن طريق كاهنه الذي قدم وقفًا للمعبد وأسس كهانة وراثية . ويظهر في هذا الجانب من الحجر ، المعبد [الوثني] في الجزء الأعلى والكافن عند المدخل في الجزء الأسفل . «متحف اللوفر ، باريس» .



وهو في طريقة من نسخ عدد من الكتابات القديمة ، من ضمنها نقش «حجر تيماء» الذي وُجد عليه كتابات لم تشاهد في الجزيرة العربية من قبل . وفي عام ١٨٨٣ م عاد هوبر إلى الجزيرة العربية ، مصطحبًا عالم آثار ألماني اسمه جوليوس أوينج Euting ، وفي مرة من المرات في حائل حدث مشهد غريب ، فقد أراد أوينج أن يُظهر قوته ، وذلك بأنّ علق نفسه من رِجل واحدة ، وضعها على رأس شجرة ومسكها بعض من العبيد فتدلى مقلوبًا رأساً على عقب ، وبالرغم من هذه الرحلات التي يقوم بها هذا الفريق ، فقد تبين فيما بعد بأنّ أوينج وهوبر يكرهان بعضهما بشدة ، ومع هذا فقد استطاعا شراء «حجر تيماء» الذي يعتبر الآن من أنفس ممتلكات متحف اللوفر [في باريس] ، فقرر الرجال الانفصال بعد أن أنهيا مهمتهم ، وتمكن أوينج من أن ينجو من هجوم شنه عليه جماعة من البدو ، بعد أن قتل إثنين منهم ، أما هوبر فلم يكن الحظ حليفه ، فبعد أن ترك أوراقه وحجر تيماء في حائل ، ذهب إلى مكة وفي طريق رجوعه قتله دليله وقام ابن رشيد بإرسال كل ممتلكاته إلى فرنسا . ولابد أنّ أهالي جبل شمر قد كانوا انتظاراً غريباً عن الألمان وذلك لأنّ الشخص الذي زارهم بعد ذلك ، اعتقاد أنّ الأوروبيين قد دنسوا سمعتهم بسبب ارتدائهم الملابس العربية ، ولذلك فقد جاء هو بملابس القومية المتمثلة في الزي الروسي مع سيف وخوذة .

جرترود بيل :

في بداية عام ١٩١٤ م زارت حائل سيدة إنجليزية في الرابعة والأربعين من عمرها اسمها جرترود بيل Gertrude Bell ، وكانت ثاني سيدة تزور حائل ، وقبل جميعها كانت قد زارت معظم مناطق آسيا الغربية ، بالإضافة إلى أنها كانت من أوائل من تسلق جبال الألب . اشتهرت هذه السيدة عشرين جملًا من دمشق ، واستأجرت ثلاثة جمالين وخدادمين وشدت الرجال دون أن تخبر السلطات البريطانية أو التركية ، لعلّها أنه لا يسمح لها بالقيام بهذه السفرة ، وقد أوقفها مسؤول تركي مرتين ، ولكنها استطاعت إيقاعه بعد محاولة طويلة ، بالسماح لها بعد أن كتب تعهدًا يعفي السلطات التركية من مسؤولية ما يحدث لها وبعد أيام من بدئها الرحلة ، أوقفها شيخ من البدو ، فأعطيته بعض

ومن خلال ما كتبه كل منهما ربما نجد وصفاً لحياة القبائل الرحّل ، فقد لاحظ موسى ، أن أي شخص يعضه كلب مسحور يُترك في البايادية مع زاد يكفيه لمدة أربعين يوماً ، وإذا شوهد هنا الشخص قبل الفترة المحددة فإنه يُقتل فوراً ، ووصف لنا أيضاً الطريقة التي تستخدمها القبائل البدوية عند قطعها صحراء قاحلة : يُتنقى عدد من الجمال وتزوي بكمية من الماء تصل إلى سبعة عشر جالوناً ونصف ، بعد ذلك إما أن تقطع ألسنتها أو تحاكي مشارفها حتى لا يختلط الطعام مع الماء ، وعند الحاجة ، تذبح الجمال ويُستخرج الماء من بطونها حيث يكون صالحًا للشرب إذا ترك لبعض ساعات . ويدرك لنا رسوان أنه في الصباح حيث البرد القارس ليس هناك من ماء ساخن للغسل سوى بول البعير ! وبعد الحرب رباع رسوان إلى الجزيرة العربية ، وادعى أنه اشتراك في غرفة استُعملت فيها السيارات .

لقد لاحظنا في فصل سابق أن الفترة ما بين ١٩٠٠ - ١٩١٤ قد شهدت انتقال مركز القوة في نجد من ابن رشيد في حائل وعودتها إلى ابن سعود في الرياض ، ونتيجة لذلك أصبحت الرياض هدف الرحالة الأوربيين بدلاً من حائل ، ومن أوائل الذين زاروا الرياض في تلك الفترة ، رجل دانماركي اسمه باركلي راونكير Barclay Raunkaier ، جاءها ليدرس إمكانية إرسال بعثة ملكية استكشافية أخرى ، تضاهي تلك التي قام بها نيوور ، وبدأ رحلته من الكويت ، في شهر فبراير ١٩١٢م وكان عمره ٢٣ عاماً ، مع قائمة تألفت من خمسين رجلاً ومائة جمل ، وقد اتسمت تلك الفترة بتعصب القبائل ضد الرحالة الأوربيين ، وكان من العسير على أي شخص نصراي ، أن يقوم برحالة دون مصاعب ، وقد وجد راونكير كما وجد داوتي من قبله ، أن أهالي بريدة غير مستعدين لاستقبال غريب مثله ، وقارب على الملأ فيها ، أما حاكمها فلم يقدم له سوى مساعدة بسيطة ، ووصفه راونكير بأنه : رجل يكاد يكون في منتصف العمر ، ومظهره غير جذاب ، فشعره مجعد وغير مضفور يتذلّ على كتفيه ، فائد النظر لأحدى عينيه والتي ملئت بالقذى ، بينما تبدو عينه الأخرى عبوسة ، غليظ الشفتين ، متflex الوجه والأصابع وبالرغم أن راونكير يحمل رسائل حاكمه ابن سعود إلا أن حاكم بريدة

الهدايا ، بعدها سمع لها بالسير ، ولكنه اقترح على رجال قافلتها سراً ، بأن يقتلوها ويتقاسموا ما ترکه من الحاجات بينهم . كانت رحلتها شاقة ، وفي بعض الأحيان كانوا يقطعنون ميلاً واحداً في الساعة خلال عبورهم صحراء النفود ، وعندما وصلت إلى حائل مُنعت من الدخول ، وسمع لها بالبقاء في دار الضيافة خارج أسوار المدينة . كانت جرترود فلقة على وضعها المالي ، فبالرغم من أنها كانت تحمل صكاماً مقداره مائتا جنيه ، إلا أنه مدفوع لحساب صاحب خزينة الدولة الذي كان خارجاً في غزوته نهب جمال ، مع الأمير ، وأخيراً استطاع بعض أصدقائهما ، إنقاذ جدة الأمير ، والتي كانت فيما يليه ، المديرة الحقيقة لأمور الدولة المالية ، أن تعططها بعض المال ، وقادت جرترود بيل ، بعد من الزيارات ، وتعتقد أن الجو العام الخيط للحرريم ، لم يختلف عما كان عليه في القرون الوسطى . وفي اليوم الآخر من بقائها ، والذي دام إثنى عشر يوماً ، سمع لها بالتجول في أرجاء المدينة ، بعد ذلك ذهبت جرترود بيل إلى العراق ، الذي قضت فيه معظم ما تبقى من حياتها واشتغلت أولاً كخبيرة في أمور العشائر لدى سلطات الاحتلال البريطاني ثم مديرية للآثار .

موسى ورسوان :

زار الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية [الأولى] ، رجلان من أواسط أوروبا ، وأُنسا علاقة مع قبيلة «الرولة» المشهورة في شمال الجزيرة العربية وتحولاً مع أفراد القبيلة وربما أنها كانتا عميلين للمخابرات بالإضافة إلى كونهما عالمين ، وكان اسم الأول لويس موسى Alois Musil والثاني اسمه كارل رسوان Carl Raswan ، وقد أدعيا أنها اخوة في الدم مع الشيخ نوري الشعلان ، الذي يعتقد أنه قتل بيده سبعين شخصاً من ضمنهم معظم إخوانه ، هذا عدا من قتل من الأتراك الذين لم يعتبرهم من الجنس البشري ، وكان الشعلان دائماً مستعداً للقيام بتكرار عملية القتل ، فهو يحمل معه مسدساً مع ثمانين وأربعين طلقة ، وبندقية قلماً ترك بيده ومعها مئة وعشرون رصاصة منظومة حول جسمه وقد وصف رسوان وموسى ، شعار القبيلة ، هو عبارة عن هودج محاط بريش النعام كدليل على السلطة ، وكان يُحمل مع أفراد القبيلة في ساحات المعارك .

وراثي وهو حامل الراية وكان شخصية بارزة ، يرتدي ستة ذات خيوط من الذهب وفي جسده جروح من إصابته بعشر رصاصات ، وقد بقى ليتشمان عند ابن رشيد بضعة أشهر ، توجه بعدها إلى البصرة ومنها قرر الرجوع إلى الهند ولكن عن طريق غير مباشر حيث قام بجولة على ظهر الحصان في كردستان والأناضول ، وقد انتهت جولته هذه برحالته التي أصبحت فيما بعد أسطورة ، وذلك لأنها قطع ٥٠٠ ميل من دمشق إلى بغداد ، على ظهر الجمل ، في تسعه أيام فقط . وفي رحلته الثانية لم يسافر بنفس السرعة ، ومع هذا فإنه كان يقطع ثلاثة ميلًا في اليوم من دمشق إلى الرياض ومن ثم إلى الساحل . لا توجد لدينا معلومات عن الجوانب السياسية لزيارة ليتشمان لابن سعود ، إلا أنها نعلم أنه خلال الحرب [العالمية الأولى] استطاع لوحده - بوسائل مختلفة ، منها استعمال القسوة ومنها الخداع ومنها الظهور بزي متذكر - أن يقنع القبائل بعدم شن المجممات على الجنان الغربي للقوات البريطانية المتقدمة في العراق ، وأخيراً قتل ليتشمان في أغسطس من عام ١٩٢٠ في أول حادثة تقع أثناء المقاومة العراقية .

أما الشخص التالي وهو الكابتن شكسبير Shakspear ، فإن لقاءه مع ابن سعود ، كان بلا شك سياسياً ، وقد كان شكسبير [ضابطاً في الجيش و[ممثلًا لبريطانيا في الكويت ، وقد زار الرياض كجزء من رحلته التي قطع فيها الجزيرة العربية من الساحل إلى الساحل ، وقرب انتهاء رحلته استوقفه المقاتل البنوي المشهور ، عودة أبو تايه الذي سار فيما بعد مع لورنس لاحتلال العقبة وعندما أطلق سراحه كان معه سبعة جنحبيات إسترليني فقط ، وما قاله لورنس عن أبي تايه : «بوفاة عودة ستنتهي القرون الوسطى في الجزيرة العربية» (...) ، وعلى آية حال يبدو أن عودة أبو تايه لم يكن رجلاً عادياً كأحد رجال القرن العشرين .

بعد الحرب [العالمية الأولى] وبعد استخدام السيارات والطائرات ، أصبح السفر إلى نجد والأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية أكثر سهولة ، وبعد الاكتشافات التي قام بها فلبي ، لم يبق هناك ما يستحق الاكتشاف إلا القليل ، ومع هذا فإن الرحلات في

لم يكن ابن سعود موجوداً [في الرياض] ، فاستقبله أبوه عبدالرحمن وكان «رجلًا كريماً ، دلت ملامحه على الخبرة والتجربة المشيرة والفحامنة» ، استقبل زائره بلباقة ولم يكن مندهشاً من وجود هذا الرجل الدانمركي ، فتحدث معه عن الأمور السياسية العالمية حديث العارف ثم هيأ له دليلاً لمرافقته إلى الساحل وقد وصف راونكير الدليل بأنه متعصب وقليل الفهم والأدراك . وكان راونكير مريضاً في أثناء الرحلة حتى إنه لا يستطيع الوقوف على رجله إلا نادراً ولربما كان ذلك بسبب إصابته بالسل الذي أدى إلى موته بعد ثلاث سنوات ، وكانت الرحلة عسيرة ، فقد سرق الدليل كل المؤونة التي زوده بها الإمام ومرت أربعة أيام لم يأكل راونكير خلاها شيئاً وشرب ماء قذراً حتى إنه كان يسد أنفه من رائحته وقد مرت القافلة بطريق خطر ، ولكن أصحابه غير مبالين بذلك فكانوا يشعلون النار ويرقصون حولها ويلوون أجسامهم بالتواترات الغربية وفي نفس الوقت تسمعهم يولولون أكثر من كونهم يغدون أو أنهم يتربون بآناشيد بصوت عال ، وقد وصل راونكير إلى مدينة المحفوف بسلام ووفر له الضباط الأتراك ما يريحه كاؤر بي .

جيـرـالـدـ ليـتشـمـان :

بعد بضعة أشهر من مغادرة راونكير الرياض ، دخلها [ضابط إنجليزي] اسمه جيرالد ليتشمان Leachman ، وذلك في رحلته الثانية إلى الجزيرة العربية ، وكان قبل ذلك قد اشتراك في حرب البوير وترحال في التبت قبل أن يتوجول مع قبيلة «عنزة» في عام ١٩٠٩ م ، وعندما كان في خيم هذه القبيلة البالغ حوالي ٣٥٠٠ خيمة ، هوجم الخيم من قبل ابن رشيد ، فهرب المقاتلون وهرعت النساء إليه يعطينه حليبها وجواهرهن لحفظها بينما بقي هو ، يعالج . جلاً أصيب بطعنة سيف في كتفه وذلك بخياطها ، وقد أسر ليتشمان ولكنه اعتبر ضيف شرف فاستمعت بضيافة فخمة يشرف عليها رجل ذو منصب

(٥٧) إنه فيما يغلب على الظن نهيد بن معمر (المترجم ، وأنظر المولى ص ٣٧).

أمامه ، بينما كان شعره وصفائره تطوير وعياه تبركان ، وقد امتلأتا بنسمة الاعتداد بالنفس ، ذلك الاعتداد الذي لا يعرفه إلا الشباب من الجنود ، وكان ذلك الفارس هو الأمير فيصل نائب الملك في مكة وتسابق رجاله من خلفه ، وقد تطويرت صفاتهم من ورائهم ، وكان بعضهم شبه عار حيث إن من عادات العرب أن يخلعوا ملابسهم حين المعركة ، وقد كانوا جميعاً في روح عالية . أما فريق ولد العهد والذي كان لدى رجاله نفس القدر من الروح العسكرية ، إلا أنهم أكثر انضباطاً ، فقد جاءوا مسرعين للهجوم واستداروا بأقصى سرعة أمامنا وهجموا على العدو ثم في اللحظة الأخيرة وبذلة متناهية مثير للاعجاب أوقفوا الخيول على أرجلها الخلفية ، فلا عجب إذا فيما أشار إليه ديوجوري من أن عصر ابن سعود ، كان عصراً فريداً جمع فيه بين محاسن الحياة في العصور الوسطى ومدنية حضارة القرن العشرين .

لقد رأينا سابقاً أن الإمام قد أشار عند اسقباله للرحلة بلي في عام ١٨٦٥م ، إلى أن الرياض مكان غريب بالنسبة لأوربي ليزوره ، ولذلك فإنه لا يمكن أن يخطر ببالنا أن تخيل مدى دهشته فيما لو رأى بعد سبعين سنة ، حفيده مجلس على مائدة طعام واحدة مع حفيده الملكة فكتوريا . ففي فبراير عام ١٩٣٨م ، قامت الأميرة أليس Alice بمصاحبة زوجها إيرل ألفون أخو الملكة ماري في رحلة عبر الجزيرة العربية وقد جاء ابن سعود للترحيب بهما في جدة وأقام لها ولية ذبح فيها عشرة خرفان لأربعة وثلاثين ضيوفاً ولأول مرة على الإطلاق ، مجلس إمام ليأكل مع سيدة ، وقد علقت جريدة التايمز بقولها : «وبعد مأدبة الأسطورية ، أمعن المضيف ضيوفه بذكريات شبابه المثيرة للشجن» . وقد ارتدت الأميرة أليس ملابس عربية كما كانت متوجهة ، وكانت سيارتها متبوعة بجهاز إذاعي متحرك وبذلك عبرت الجزيرة العربية من الساحل إلى الساحل كما فعل سادير ذلك بمشقة ، قبل قرن مضى . وتعبر زيارة بعض أفراد العائلة المالكة البريطانية إلى الرياض مسك الخاتم لقصص الرحلة الأوربيين إلى نجد .



عوذه أبو تايسير . محارب قبل عظيم فهو حسب ما ذكر لورنس ، تزوج ٢٨ مرة وخرج ١٣ مرة ، قبل انضمامه إلى قوات الأمير فيصل العربية . وحيث أنه احتفل بيتميم أسنانه الإصطناعية التركية وكاد يموت من الجوع حتى زود بطعم أسنان من صناعة الحلفاء .

الجزيرة العربية بقيت مليئة بالمخاطر الشديدة ، ففي شتاء عام ١٩٣٥م حضر [الرحلة الإنجليزي] جيرالد ديوجوري Gerald De Gaury عرضًا للفروسية اشتراك فيه أئماء من أبناء ابن سعود ، سعود وفيصل اللذين توليا العرش فيما بعد ، حيث قاد كل واحد منها فريقاً من رجال القبائل وابتعد كل فريق عن الآخر ثم أخذ كل منها موقعًا مواجهًا للآخر في حركة بطيئة ، بينما خرج في المقدمة الفرسان ليلعبوا لعبة الرماح المعروفة بالجريدة ، حيث يطارد كل فارس الآخر وعندما يقترب منه يرميه برمي خشبي غير مدرب ورويدًا رويدًا بدأت الجموعات في الدوران بسرعة أكبر ... واستبدلت الحركات البطيئة بحركات سريعة وأصبحت لحظة بلحظة تبدو وكأنها مناوحة حقيقة ، وفجأة اندفع فرسان أحد الفريقين نحو الآخر وفتح العدو صفوفه متوجهاً تصادم الحيوانات ببعضها وتفادياً لحوادث كانت تبدو وشيكة الوقوع ، وكانت هذه إشارة لشن هجوم مضاد والوصول بالعرض نحو القمة ، وبدأ إطلاق النار في كل لحظة وأخرى وكان الأميران يقودان رجالهما في حركات إيقاعية سريعة وبمهارة فائقة وقد زاد من روعتها أنها لم تكن خاضعة لنظام محكم التخطيط ، وثار الغبار كما تصاعد الدخان من الرصاص المصنوع محلياً ، فغطى الميدان ، وفجأة مر من أمامنا فارس بأقصى سرعة وهو يحمل سيفاً طويلاً

ووضعه في مأزق خطر ، وعندما أصبح الموقف بالنسبة للحوت أسود ، فقد دافع عن نفسه بامتصاص ثلاثة أطنان من الماء ثم نفثها من فمه ، فهزم الـلوياثان بالضربة القاضية» . وما تضمنته مغامرات هارف في الجزيرة العربية هي زيارة لغير الرسول عليه السلام الذي قال بأنه يقع على ضفة نهر كبير في مدينة مكة ، وكذلك زيارة لقبيلة من النساء الأمازونيات ذوات النهد الواحد . إن هذه المشاهدات الخرافية التي ذكرها هارف تجعلنا نغض النظر عما ذكره في كتاباته .

وفي السياق التالي نأتي على ذكر معلومات أكثر جدية ، ففي عام ١٥٠٤ دخلت البحر الأحمر أول سفينة برتغالية ، وبعد ستين من ذلك أنس البرتغاليون قلعة في سوقطرة ، وفي مارس ١٥١٣ رست في ميناء عدن سفينة عليها [القائد البحري البرتغالي] أфонسو البوكيرك Afonso D'Alboquerque وقد وصف عدن بأنها تحتوي على بيوت جميلة تحت قبة سلسلة من الجبال الشاهقة التي توجت كل قمة منها بقلعة ، وقد حاول البوكيرك اقتحام أسوار المدينة فجاء عند الفجر بعد من السالم الخاصة التي تحمل ستة رجال جنباً إلى جنب لتسلق سور إلا أنها انكسرت وقد تم أسر العدد القليل الذي تمكن من الدخول فقبل البوكيرك بهذا الواقع ولكنه لم يكن واقعاً عندما غادر على أمل القيام بمشروعين : أولاهما ، إزالة قوة على الساحل العربي بهدف غزو المدينة لأخذ جسد الرسول عليه السلام واستبدالها بمدينة القدس ، ثانيةما هو تغيير مجرى النيل ليصب في البحر الأحمر ليصبح مدينة القاهرة بالتالي حافة ومرتفعة .

وفي عام ١٥٣٨ م وصل إلى عدن أسطول تركي ، ووجه قائده دعوة إلى السلطان لحضور ولبة على ظهر إحدى السفن ، وما أن وصل السلطان حتى شنقه الأتراك وعلقوا جسده على عارضة السفينة ، وهكذا تمت السيطرة على عدن وأصبحت تحت إشراف الوالي العثماني في صنعاء ، وفي أوائل عام ١٥٩٠ م وقرب سواحل جزر كوريا موريا أسر راهبان برتغاليان من جماعة الآباء اليسوعيين ، وكان اسم الأول بيدرو بيز Paez والثاني أنطونيو مونتسيرات Montserrat وسيقا إلى الوالي التركي في صنعاء ،

رحلة في جنوب غرب الجزيرة العربية

لقد ورد ذكر عدن في بعض كتابات الرحالة في القرون الوسطى ، فقد زارها الحاخام الأسياحي «بنيامين» حوالي عام ١١٧٠ م ، حينما كان في طريقه بحراً من البصرة إلى مصر ، فيما يعتقد ، وسماها «عدن» أو «الهند الوسطى» ، وظن بأن في مرتفعاتها قبائل يهودية مستقلة تعيش على نهب جرائمها المسلمين ، وبعد خمسين عاماً من ذلك التاريخ ، زارها ماركو بولو وقال عن سلطانها إنه يعتبر من أغنى أمراء العالم ، وقد قامت ثروته على تصدير الخيول إلى الهند وأضاف أنه بالقرب من عدن توجد جزيرتان ؛ الأولى اسمها «الذكر» والثانية «الأنثى» ويتحققون كل سكان الجزيرة الأولى من الرجال ، أما سكان الجزيرة الثانية ، فكلهم من النساء ، وفي وقت الربيع من كل عام يبحر الرجال يومياً ولمدة ثلاثة أشهر ، عبر المضيق إلى [جزيرة النساء] ، وعلى مسافة قريبة من هناك تقع جزيرة «سوقطره» وأهلها نصارى يتجلون وهم عرايا ويمتلكون قدرات فائقة في السحر فإذا مررت سفينتك دون أن تدفع الضريبة المفروضة عليها بإمكانهم تغيير اتجاه الريح ثم جلبها إلى الميناء .

في حوالي عام ١٤٩٦ م ، زعم رجل ألماني اسمه راينلاندر فون هارف Rhinelander Von Harff أنه زار الجزيرة العربية بواسطة سفينة خلت من المسامير ، حيث استعملت كا يقال حجارة مغناطيسية جذبت كل قطع الحديد ، وأضاف مدعياً أنه شاهد معركة كبيرة بين حيوان بحري ضخم «لوياثان Leviathan» وحوت كبير فقال : «اللوياثان حيوان له أربعة أقدام ، وكل قدم تنتهي بمخالب مثل الحيوان الخرافي الغرفين ولها زعناف كالطير ، كبيرة الحجم تساعده في القفز عالياً على سطح البحر ، وله ذيل طويل وغليظ يضرب به بشراسة ، وفم كبير وأنف ضخم ، لذلك فإنه بمخالبه الطويلة ، وبأسنانه الحادة وبذيله وفقراته الطائرة ، هجم على الحوت بقو

المدينة ، وهو أغريقي نبذ دينه ، أن تنزل كل بضائعهم إلى المرفأ ، وبعد أن تم إنزال بعضها استولى عليها لصالحة الجمارك ، وكان الحاكم مستاءً جداً لعدم الحصول على كل بضائعهم ، وأخيراً وافق على إطلاق سراح السفينة ، على شرط أن يذهب جوردن وشخص آخر إلى صناعة كسجينين إلى أن تسوى كل الأمور ، وقد وصلا إلى هناك دون حدث يذكر واستقبلهما البشا بلطف حيث سمع لها بتقبيل صدرته ، وقدم له جوردن طلباً بفتح مركز تجاري في صناعة ، ولكن الوالي التركي أجابه أنه ليس من صلاحيته البت في مثل هذه الأمور دون أن يتلقى الأوامر من السلطة العليا وعندما يتسلم الأمر فإنه سيرحب بجوردن ورفيقه من كل قلبه ويضع الأمر فوق رأسه . هنا واستطاع جوردن أن يلحق بسفنته في مخا التي وصفها أحد أفراد بحارة السفينة بأنها «مركز تجاري كبير لبضاعتنا مثل القصدير والحديد ، والرصاص ، والقماش ، وأنصار» السيف .. وللمدينة سوق كبير ، يفتح في كل أيام الأسبوع .. سعر التور : ثلاثة دولارات ، وسعر العنز : نصف دولار ، وكمية من السمك تكفي لإطعام عشرة أشخاص بسعر ثلاثة بنسات »، وبهذه الأوضاع السارة ، استطاع هؤلاء الإنجليز إنهاء أعمالهم التجارية بنجاح ، وقد قام جوردن ب Ventures كثيرة أخرى قبل أن يقتل في صدام مسلح مع المولديين في جزر الهند الشرقية .

وبعد عام واحد من مغادرة جوردن ، وصل إلى ميناء مخا ، إسطول تجاري ثان تحت قيادة السير هنري مدلتون Middleton واستقبلهم نفس الحاكم الأغريقي ، الذي كان قد غادر برفاقهم في عدن ، واتضح في الحال أنه لم يترك طبعه القديم ، فبعد أن رحب بالقادة على الشاطيء ، قام رجاله بهجوم مباغت ، قتل فيه ثمانية من الإنجليز وووضع الباقون في السلالس أما السير هنري فقد أمر بإعطاء التعليمات للإسطول بالتسليم ولما رفض ذلك ، زج به في مكان قبر تحت الدرج وهو بيت الكلاب .. كانت الأرض القاسية فراشه ، ومخدته قطعة من الحجر وكان كسر القلب وحيداً ولا يشاركه في وحده سوى الفئران التي تتسلق عليه وتوقفه حالما ينبع بالنوم .

وكان هذان البرتغاليان قد أمرا بالذهاب من غوا [بالهند] إلى الحبشة ولكي يتبعنا مسارح الصراع بين البحرية البرتغالية والبحرية التركية للسيطرة على البحار ، قررا السفر إلى البصرة ، ومنها إلى حلب ثم القاهرة ومن هناك يسافران عبر النيل إلى الحبشة ، وقد تذكرة في زي أرماني ، وعندما وصلا إلى هرمز وجدا قارباً عربياً صغيراً ، وعد ربانه أن يأخذها إلى أفريقيا مباشرة ، ولكن الربان غدر بهما [فأخذها إلى السلطان] ، وبهذا أصبحا من أوائل الأوروبيين الذين زاروا حضرموت . وقام باستقبال الراهبيين نيابة عن السلطان أخوه الذي أعطاها شرابة يسمى «قشر» ، يحضر بعل قشر نوع من الفاكهة ، ومن الجائز أن يكونا من أوائل الغربيين الذين شربوا هذا النوع من الشراب المحضر من نبات القهوة^(٥٨) ، وقد عاشا بضعة أشهر بين رجال يدهنون شعورهم بالزبدة ثم يجعلونه بمذيد حار ، وكان عليهما أن يتحملا سرتين في اليوم مجموعة من النساء ينعن ويضربن في الصباح صدورهن حزنًا على وفاة أميرة ، وأخيراً بدءاً رحلتهما إلى صناعة على ظهر الجمال والتي استغرقت أربعة أيام دون توقف ودون أن يذوقا طعم النوم خوفاً من سقوطهما من ظهر جملهما ولم يسلك أي رحلة أوريبي ذلك الطريق للدخول إلى اليمن حتى الثلاثينيات من هذا القرن ، وبقي الراهبان في اليمن مدة محسن سنوات عملًا خالما في خدمة البساتين ، حتى أخرج عنهما . واستطاع بيز أن يصل إلى هدفه وهو إقناع الإمبراطور باعتناق المذهب الكاثوليكي ، بالإضافة إلى أنه أصبح مسؤولاً عن بعض البناءات الجميلة في الحبشة ، كقلعة «غوندار Gondar» وقد قام بصنع كل الأدوات التي استعملت في بنائها ، كما قام بتدريب كل البنائين والنجارين والعمال .

في شهر أبريل من عام ١٦٠٩ م ، وبعد قرن كامل من وصول البرتغاليين إلى عدن ، وصلتها أول سفينة إنجليزية ، وكان عليها تاجر اسمه جون جوردن John Jourdain ووصف لنا ما حدث فقال : «... استقبلنا الأهالي على أنغام المزامير والدفوف وغيرها من الآلات الموسيقية ، ثم أسكنا في بيت أصبح فوراً سجناً لنا ، وقد قرر حاكم

(٥٨) القشر : نوع من القهوة التي يتناولها البيهيون وبعض السكان في جنوب غرب المملكة العربية السعودية ، وتعمل من القشر الذي يخلف حبوب البن وقد تخل بالسكر (الترجم).

الشخصين اللذين بقيا على قيد الحياة وواصل طريقه إلى مخا ، وقد دعى بروك إلى صنعاء لمقابلة الوالي الذي دل مظهره على أنه رجل دولة ، فقد أحاطت به حاشية تكونت من مائتي رجل من الأعيان في ملابسهم الفاخرة ، وغير أليف [جاثم على الأرض] ، وقد أعجب هذا الهولندي بما رأه في صنعاء من آثار ، خاصة البشر التي يقال إنها حفرت يد يعقوب وما ذرها الذي لا يشرب لشدة برونته كما شاهد رفات سفينة نوح التي وضع في المسجد الكبير .

وقد أهدى البشا إلى بروك ستة مطرزة بخيوط من الذهب ، إلا أنه لم يسمح له بفتح مركز تجاري ، خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى فتح الطريق إلى الأراضي المقدسة . ومع هذا فإنه في عام ١٦٢٠ م كان لكل من هولندا وإنجلترا مراكزها التجارية ، حتى إن بعض التجار الأوروبيين استطاعوا البقاء في صنعاء ، بعد طرد الأتراك منها في عام ١٦٣٠ م^(١٠) . وعندما تسلم الإمام دفة الحكم في البلاد ، عمل على تشجيع التجارة في بلده خاصة تجارة البن وكثيراً ما رست السفن الأوروبية في الميناء ، وكان الشخص الذي قدم المساعدة لبعثة نيبور ، اسكتلندياً ، ثم فيما بعد كان هناك رجل اسمه كامبل وصف نفسه بأنه القائد العام للتجهيزات العسكرية في مملكة صنعاء وكان قبل ذلك مسؤولاً عن مدافع إحدى السفن وقتل أحد زملائه البخاري على أثر مشاجرة ، غير أن لديه روحًا طيبة دائماً ما دفعته إلى تقديم المساعدة للمسافرين البريطانيين .

قليل من الأوروبيين من استطاع التوغل بعيداً في داخل جنوب شبه الجزيرة ، ما عدا بعثة فرنسية زارت عدن في بداية القرن الثامن عشر ، وبصرف النظر عن حمامات المدينة الرخامية والأحجار الشمعية ذات اللون الأخضر ، فإن عدن قد ذكرتهم بعرض مدينة سانت جرين St. Germain ، وفي زيارتهم الثانية إلى مخا ، طلب منهم أن

وبعد مرور شهر ، وصلت الأوامر من البشا [في صنعاء] وكان على هذه الجماعة التعيسة أن تসافر مشيأً على الأقدام لمدة أسبوعين خلال المرتفعات الجبلية حيث كثيراً ما يصل الشاحن إلى سلك الإصبع ، وما أن وصلوا إلى صنعاء حتى حيتهم فرقة موسيقية تألفت من مائتي شخص ولكن البشا أخبرهم ، وعلامات التجمّه والغضب بادية على ملامحه ؛ أنه لا يستطيع إطلاق سراحهم قبل أن يتسلّم الأوامر من القسطنطينية ومع ذلك فإنه أعرّب عن استكاره لما عمله حاكم مخا بهم وقال بأنه سيسلّخ جلدته من أسفل جسده إلى ما فوق أذنيه ويعطّلهم رأسه كهدية مهما كان رأيه فيما أقدم عليه من تصرف ولكن السير هنري رفض ذلك ، وبعد أن قضوا شهرين في سجن صنعاء ، بعث بهم مرة أخرى إلى مخا ولكنهم ما زالوا سجناء غير أن السير هنري تمكّن من الهروب داخل برميل وجه مدافع أسطوله نحو المدينة وهدد بقصصها على مسمع من البشا ما لم تعد كل البضائع التي سرقت منهم في الحال وأن تدفع لهم تعويضات ، وبعد أن قام بعملية قرصنة محدودة ، لينفس عن مشاعره ، أُخْرِج إلى الجنوب والجنوب الشرقي لآسيا .

لقد أحبط مدلتون علمًا ، أنه لا يمكن للنصارى الحصول على تسهيلات في أي من مرفأء الأراضي المقدسة في الجزيرة العربية ولكن بعد سنتين من ذلك وصل إلى عدن أول أسطول هولندي ولقي ترحيباً ، وهناك في عدن حدث ظلام رهيب كعاصفة المطر مصحوباً بمحمرة كوهج الفرن وكان النظر إليه متعيناً ومزعجاً في آن واحد ، لقد كانت عاصفة رملية ، تركت السفن مقططة بغيار سميك بحجم الإبراهام بعدها غادر الأسطول متوجهاً شرقاً إلى مدينة شهر^(١١) ، حيث نزل فيها ثلاثة من البحارة مع قليل من النقود وبعض القماش الرخيص ووعد الملك بأنه سيحتمم كمقلة عينه وسعة لهم أن يقضوا وقتاً متعناً بين الأهالي الذين رحبوا بهم (...) ، وبعد ثمانية عشر شهراً تقريباً رجع [الأسطول إلى شهر بقيادة] الأدميرال بيتر فان دن بروك Van Den Broeck وأخذ معه

(١٠) لقدم إخراج العثمانيين من اليمن في عام ١٦٣٥ م وذلك في عهد السلطان مراد الرابع ، وكان واليه على العين آنذاك أحد قصصه بasha وقد تم ذلك في عهد الإمام المؤيد محمد القاسم (١٦٢٠ - ١٦٤٥) (أنظر عمر ، ص ٢٠٩ - ٢١١) - المترجم .

(١١) شهر : بناء صغير تقع على بعد ٣٥ ميلاً شرق شمال شرق المكلا ، كانت مشهورة بتجارة السلمك الخفيف وتصدير الحبوب والبخور ؛ أول من زارها من الأوروبيين «مانويل دا فاسكونسلو» وذلك في عام ١٥٣٢ م (Western Arabia, P. 149 - 150) - المترجم .

كلوجهورن في طريقه إلى سيلان للقيام بهمة سرية تهدف إلى شراء ولاء الحامية العسكرية فيها ، والمؤلف معظم أفرادها من السويسريين المرتزقة ، وكانت سيلان تابعة حينذاك للإمبراطورية الهولندية التي انضمت أخيراً للحرب ضد بريطانيا . وفي النهاية حق كلوجهورن نجاحاً باهراً في إقناع سيلان بقبول الحماية البريطانية .

كان نيبور محظوظاً عندما شهد ، خلال إقامته القصيرة في صنعاء ، الإمام يقترب الناس في صلاة الجمعة في العاصمة وقد حضر راكباً يبعه النساء وبنات الجنود ، وقد احتمى بظل مظلة كبيرة من حر الشمس ، وهي شعار الملكية ، وعلى جانبيه حملت راياته وضعت على كل واحدة منها علبة فضية في داخل كل منها تعويذة ، يتخيّل الناس بتائيرها أنه إنسان لا يقهـر .. كان الراكيون يمشون السير متبعين ، والكل ذهب في ارتباك . وعلى مقربة من أحد البوابات ، إصططفت بعض الجمـال تحمل هوادج خصصت في مثل هذه المناسبات لزوحـات الإمام غير أنها كانت حيثـد خالية وكان تواجـدها آنذاك ، فقط لتكمـلة عناصر الموكـب ، وخلف هذه الجـمال كان هناك إثـنا عشر جـلاً آخر فقط تحـمل أعلامـاً ورايات صـغيرة رفـعت على سروـجـها . وبعد سبعـين عامـاً من زيـارة نـيبور إلى صـنعـاء ، جاءـها في عام ١٨٣٦ مـ شخص اسمـه كـروـتنـدن Mr. Cruttenden من القوات البحرية البريطـانية في الهند ، وشهـد كذلك [مسـيرـة الإمام إلى] صـلاة الجمعة فلاحظ أن الإمام كان يحمل رحـماً ذهـياً رأسـه من الفـضة ، وقد ركب ووضع يـده اليسـرى على كـتفـ أحد خـدمـه ، وحين وصل الرـكـب إلى سـاحةـ القـصـر ، اصطـطفـ الخـدمـ والأـتـابـاع حولـ السـاحـة ثم دـخلـ الإمامـ يـبعـهـ أـقارـبـهـ وـخـاصـتـهـ ، وقد تـظـاهـرـ بأنـهـ سـهمـجـ علىـ أحدـ الفـرسـانـ الذيـ كانـ يـقـفـ قـرـيـباًـ مـنـهـ ، ثمـ تـرـجـلـ ، وـكانـ باـسـطـاعـةـ أيـ شخصـ يـرغـبـ فيـ تـقـيـلـ رـكـبـهـ أـنـ يـفعـلـ وـيـقـدـمـ لهـ عـرـيـضـتـهـ .

وفي نفس العام زار صنعاء شخص غريب الأطوار اسمـه جـوزـيفـ وـلـفـ Joseph Wolff ، ولـدـ فيـ عام ١٧٩٥ مـ منـ أـبـ أـلمـانـيـ كانـ حـاخـاماًـ يـهـودـياًـ ، إـلـأـ أـبـهـ نـيـدـ الـديـانـةـ الـيهـودـيـةـ وأـصـبـحـ نـصـرـانـيـاًـ عـلـىـ المـذـهـبـ الإـنـجـليـكـانـيـ ، وـعـهـدـ عـلـىـ نـفـسـهـ أـنـ يـقـودـ حـمـلةـ

يعـثـوا بـطـيـبـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ مـواـهـبـ قـرـبـ ذـمـارـ لـعـالـجـةـ الإـلـمـامـ الذـيـ كانـ يـعـانـيـ مـنـ خـرـاجـ فـيـ أـذـنـهـ ، وـقـدـ وـجـدـوـهـ مـثـرـاًـ لـلـشـفـقـةـ ، فـقـدـ كـانـ فـيـ السـابـعـةـ وـالـثـانـيـنـ مـنـ عـمـرـهـ ، بـسـيـطـ الـمـلـبـسـ فـلـاـ يـمـلـكـ إـلـاـ قـلـيلاًـ مـنـ الـأـبـهـ . وـقـدـ أـسـكـنـهـ فـيـ بـيـتـهـ وـأـطـعـمـهـ مـنـ مـطـبـخـهـ . وـقـدـ كـانـ تـلـكـ تـجـرـبـةـ فـشـلـ فـرـنـسيـوـنـ بـالـطـبـعـ فـيـ الـاسـتـفـادـةـ مـنـهـ . وـبـعـدـ ثـلـاثـةـ أـسـابـعـ أـعـلـىـ إـلـمـامـ شـفـاءـ ، وـاحـتـفـلـ بـهـذـهـ مـاـنـسـابـةـ بـرـوـاجـهـ مـنـ فـتـاةـ عـمـرـهـ ثـمـانـيـنـ عـشـرـ سـنـةـ لـيـضـيفـهـاـ إـلـىـ حـرـيمـهـ الـبـالـغـ عـدـدـهـ ٦٠٠ـ سـيـدةـ^(٦١) .

وبـاتـهـاءـ الـقـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ ، ازـدـادـ عـدـدـ الـرـحـالـةـ الإـنـجـليـزـ لأـسـبـابـ مـنـهـ : أـلـأـ كـثـرةـ استـعـمـالـ الطـرـيقـ البرـيـ إـلـىـ الـهـنـدـ وـأـيـضاًـ لـمـحـدـ مـنـ أـيـ نـشـاطـ فـرـنـسيـ مـخـتمـلـ [فـيـ الـمـنـطـقـةـ]ـ ، نـتـيـجـةـ لـلـحـرـبـ التـابـيـونـيـةـ ، وـقـدـ استـعـمـلـ اثـنـانـ مـنـ الـرـحـالـةـ كـلـمـتـيـنـ أـصـبـحـتـاـ شـائـعـتـيـنـ فـيـ الـغـرـبـ ، فـقـدـ ذـكـرـ المـيـجرـ روـكـ Rookـ الذـيـ زـارـ مـخـاـ قـائـلـاـ : «لـقـدـ عـاـيـنـتـ مشـهـداًـ غـرـيـباًـ يـسـمـيـ فـيـ الشـرـقـ «شـامـبـوـ Champooingـ»ـ^(٦٢) ، فـعـنـدـ دـخـولـ صـلـدـقـةـ إـلـىـ شـقـةـ صـدـيقـيـ ، وـجـدـتـهـ مـطـرـوـحـاًـ عـلـىـ وـجـهـهـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـهـوـ عـارـيـ تـامـاًـ ؛ بـيـنـاـ يـقـومـ الـأـشـخـاصـ الـذـينـ فـيـ خـدـمـتـهـ ، بـتـدـلـيـكـهـ ، وـظـلـنـتـ فـيـ بـادـيـءـ الـأـمـرـ ، أـنـ صـدـيقـيـ كـانـ فـيـ حـالـةـ إـغـماءـ ، وـأـنـ هـؤـلـاءـ يـخـالـلـونـ إـيـقـاظـهـ ، إـذـ كـانـوـ يـقـرـصـونـهـ وـيـهـزـونـهـ بـشـدـةـ»ـ ، غـيرـ أـنـ روـكـ اـنـدـهـشـ عـنـدـمـاـ عـلـمـ أـنـ مـاـ شـاهـدـهـ مـنـ عـمـلـيـةـ التـعـذـيبـ هـذـهـ ، مـاـ هـيـ إـلـاـ لـإـدـخـالـ السـرـورـ عـلـىـ صـدـيقـهـ وـلـكـنـ روـكـ يـعـتـقـدـ جـازـماًـ أـنـ عـمـلـيـةـ «الـشـامـبـوـ»ـ هـذـهـ لـنـ تـتـشـرـ فـيـ إـنـجـلـنـتـرـاـ .

وفيـ عـامـ ١٧٩٥ـ مـ ، أـيـ بـعـدـ سـنـوـاتـ قـلـيـلـةـ ، زـارـ الـمـنـطـقـةـ الـبـرـوـفـيـسـورـ كـلـوـجـهـورـ Cloghornـ مـنـ جـامـعـةـ سـانتـ انـدـرـوـسـ [فـيـ إـسـكـتـلـنـدـاـ]ـ ، وـلـاحـظـ مـجـمـوعـةـ مـنـ صـيـاديـ السـمـكـ مـنـ السـكـانـ الـمـلـحـينـ يـقـتـلـونـ سـمـكـ الـقـرـشـ وـهـمـ جـالـسـونـ عـلـىـ ظـهـرـ مـرـكـبـ يـسـمـيـ «الـقطـمـرـانـ»ـ^(٦٣)ـ ، الـأـمـرـ الذـيـ لـاـ يـكـنـ تـحـيلـ إـلـاـ مـنـ قـلـةـ مـنـ كـتـابـ الـرـوـاـيـةـ ، وـكـانـ

(٦١) إـمامـ الـيـنـ آنـذاـكـ هوـ الـمـهـديـ مـحـمـدـ بـنـ أـحـدـ بـنـ الـحـسـنـ وـلـدـ عـامـ ١٤٠٧ـ هـ وـمـاتـ عـامـ ١١٣٠ـ هـ (الـوـاسـعـيـ)ـ صـ ٢٢٢ـ - المـرـجـمـ .

(٦٢) كـلـمـةـ هـنـدـيـةـ مـعـنـاـهـ تـدـلـيـكـ (المـرـجـمـ)ـ .

(٦٣) الـقطـمـرـانـ : مـرـكـبـ بـسـيـطـ مـؤـلـفـ مـنـ الـوـاحـ خـشـيـةـ وـالـكـلـمـةـ سـيـلـانـيـةـ الـأـسـلـ (أـنـظـرـ الـمـوـرـدـ ، صـ ١٥٨ـ)ـ المـرـجـمـ .

وأمريكا ، وقد تزيا بزي أستاذة الجامعات وأرتدى قبعة مضلعة ومعطفاً أسود مع قلنسوة قرمذية ولسوء الحظ أنه وصل متأخراً ولم يستطع وبالتالي مساعدة الضابطين السجينين والغريب أنه استطاع الرجوع إلى إنجلترا في الحال ، نافذاً بجلده من غير أذى ، وقضى أيامه الأخيرة يعمل قسيساً في قرية صغيرة في مقاطعة سريست بإنجلترا .

بعد عشرين عاماً من زيارة ولف صناعة ، زارها رجل آخر مشابه لولف في سيرته غير أنه أقل حماساً منه واسم هنري آرون ستيرن Aaron Stern ، وكان أيضاً يهودياً ألمانياً دخل في الديانة المسيحية ، وحاول تنصير اليهود ، وبعد أن خدم فترة طويلة في كل من بغداد وإيران ، تبع الجيش البريطاني إلى شبه جزيرة القرم ، في محاولة يجرب فيها حظه من التبشير بين اليهود الروس ، وبعد أن فشل في محاولته هذه ، ذهب إلى اليمن متذمراً في زي درويش وسمى نفسه عبدالله وحلق رأسه ولحيته وشاربه واتجه إلى صناعة وأقام بها بضعة أشهر ، وبالرغم من الاستقبال الودي الذي لقيه إلا أنه فشل في تنصير أي من أصحاب الديانات الأخرى وعندئذ عبر البحر الأحمر إلى الحبشة للتبشير بين جماعة «الفلاشة» اليهود السود في الحبشة ، وقد تشاور مع الإمبراطور المتعوه ثيودور الذي طالب ببارزته بالسيف أو الرمح أو المسدس أو حتى المدفع – وذلك حسبما ذكره كاتب سيرة حياة ستيرن – وقال له الإمبراطور : إن لم تكن إمراة ، أيها الوغد الشرير ، فاختبر أنها شفت ، ودون أن يبدي ستيرن أي شعور بالخوف منه أو الاستهزاء به ، فقد رفض المبارزة ، وعندئذ انتابت الرجلين اللذين كانا يجرسانه نوبة هستيرية فسجن ستيرن في قلعة «المجدلة» المشهورة ، وبقي فيها أربع سنوات حتى جاء الجنرال ناير Napier على رأس بعنة إلى الحبشة وتم إخلاء سبيله على يديه ، وقضى ستيرن بقية حياته وقد ذبل نشاطه المنطوي على المخاطرة ولكنه عمل مجده أكثر وبطريقة أخرى ، في محاولة للتبشير بين اليهود القاطنين في حي هوانتشابل [في لندن] .

في منتصف القرن [الحادي عشر] قام مغامران فرنسيان باكتشافات في اليمن وكان أرناud Arnaud قد اشتغل صيدلياً مع الجيش المصري قبل التحاقه بخدمة الإمام في نفس

تبشيرية بين يهود الشرق ، لتنصيرهم ، وفي عام ١٨٢١ م بدأ رحلته من فلسطين ، وأخذ معه عشرين جملة محملة بالأناجيل ، وتوجه إلى بغداد ثم إلى شيراز ماراً بعد من القبائل الكردية الذين ضربوه وسلبوه ، وبعد زيارة إلى القوقاز وجد لوف نفسه في الإسكندرية ، فاستأجر له خادماً ، اتضحت فيما بعد أنه كان من أكلة لحوم البشر ، ولم يشف من هذه العادة إلا قليلاً ، ثم ارتحل لوف إلى بخارى ، منهاً بذلك آخر مرحلة من رحلته وقد كان مربوطاً وهو عار إلى ذيل حصان ، وبعد مغادرته لتلك المدينة ، وقبل أن يذهب بعيداً ، قابلته جماعة من الناس هددت في البداية بقتله ثم فرمه ولكنها اكتفت بأن أرغمه على نزع ملابسه – وكان ذلك في فصل الشتاء – والسير على قدميه لمسافة ستة ميل حتى وصل إلى مدينة كابول وفيها أصيب بجنيبة أهل ، إذ لم يعثر على قبائل بني إسرائيل المفقودة وأخيراً وصل إلى إنجلترا سالماً ، وهناك تأمل كثيراً عندما وجد نفسه يشار إليه على أنه قد تقمص شخصية البارون ماتشهاوزن ، لذلك فقد غادرها على وجه السرعة في رحلة تبشيرية أخرى ، فسافر في عام ١٨٣٦ إلى الحبشة ، وهناك تسبب في بعض الارتكاب عند الناس ، الذين أعتقدوا أنه متذمراً في زي بطريق قبطي ومن ثم غادرها إلى اليمن باختصاراً عن قبيلة يهودية ، أفرادها من البيو الرحّل ذُكرت في التوراة ، ولكنه وجد اليهود الجانبيين من الحضر ، ومن أصحاب الحرف ، وقد أهداهم نسخاً من قصة روبنسون كروزو مترجمة إلى اللغة العربية^(٦٤) ، غير أنه لم يجد منهم إزاء دعوته سوى تجاهب بسيط ، والسبب في ذلك هو أنه بالرغم من ادعائه معرفة أكثر اللغات الشرقية ، إلا أن أحداً لم يفهم ما كان يقوله . وفي طريق رجوعه إلى الساحل من قبيلة متعصبة مثل قبائل أخرى كثيرة في الشرق الأوسط وقد شعرت هذه القبيلة بأن هذا الرجل يستحق الضرب بالبساط المبرحة . [وبعد أن غادر اليمن سافر إلى أمريكا] وقضى حينئذ فترة هادئة نوعاً ما بالنسبة له ، شغل خلالها منصب راعي الإبرشية في [ولاية] ماساشوستس ولكن بعد وقت قصر رجع إلى إنجلترا وبعد فترة قصيرة من رجوعه أنيطت به مهمة الذهاب إلى بخارى ، لتنصي أمر ضابطين بريطانيين هناك ، وضعا في السجن بأمر الأمير ، وفي هذه الرحلة ادعى بأنه الدرويش الأعظم ، لكل من بريطانيا وكل أوروبا

(٦٤) روبنسون كروزو : رواية مشهورة في الأدب الإنجليزي كتبها في القرن الثامن عشر ، دانييل ديفو (المترجم).

فمن قائل بأنه المهدى المنتظر ، الذى جاء لإنقاذ البشرية ، ومن قائل بأنه المسيح الدجال الذى جاء لتدمرها ، وفي مرة من المرات سُئل عن صخرة غير مرئية يقال إنها تنزل من السماء يبطء فوق القدس ، وعندما تلمس أعلى متاربة في المدينة ، فإن العالم سيأتي إلى نهايته ، وكان جوابه لبقاً ، وهو أن هناك رجالاً أكثر منه قداسته وعلمه وهم وحدهم القادرون على رؤية تلك الصخرة .

ووجد هالفى صعوبة في التنقل ، وذلك لأن اليهود كانوا يمبعون من ركوب الحمير في حضرة المسلمين ، إلا إذا كان الشخص مريضاً ، ودائماً ما ادعى هالفى بأنه مريض ، وكذلك فإنه كان عرضة للتفتيش من قبل المسلمين ، ليتأكدوا أنه ليس من الدجالين ، وقد خُذل عدة مرات من الذهاب خارج المدينة لمسافة بعيدة ، لاحتلال تعرضه لسوء من الشيطان أو من رجال القبائل ، ومع هذا فإنه لقي في بعض الأحيان استقبالاً حسناً بين القبائل ، وقد أصابته الدهشة مرة حينما رأى مضيافته خلعت سروالها الفضفاض ثم غسلته في صحن كانوا قد تناولوا فيه طعامهم ، وأصبح هالفى أول أوربي يدخل نجران ، منذ أن تركها الرومان^(٦٥) ، وفي طريق عودته من مدينة مأرب ، وأخذ معه ٦٨٥ نصاً من الكتابات القديمة التي ساهمت كثيراً في زيادة المعلومات عن تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام .

المهنة ، وفي عام ١٨٤٢ م رجع إلى صنعاء ولكن هدفه الحقيقي في هذه المرة هو زيارة مأرب ، التي كانت عاصمة لأحد المالك القديمة ومركزًا حضارياً مزدهراً لوجود السد الذي بنته ، كما يقال ، ملكة سباً والذي جلب الرخاء لمنطقة واسعة هناك . ويعتبر خراب السد ، الذي حدث ، فيما يعتقد ، في القرن السادس [الميلادي] ، كارثة أدت إلى حدوث تغيرات تاريخية وجغرافية في شبه الجزيرة العربية ، وما برحت آثاره ماثلة للعيان . ارتدى أرنو فوق سرواله الطويل إلى منتصف الساق قميصاً ينسدل إلى ركبتيه ، وعمامة ملفوفة فوق رأسه ، ونعلاً ، ورافق قافلة من الجمال التي تحمل النزرة إلى الشرق وتعود محملة بالملح ، وقد تم إيقافهم عدة مرات من قبل قطاع الطرق من رجال القبائل ولكنهم أخيراً وصلوا إلى سهل غني فوق العادة بالآثار القديمة التي تعود إلى ما قبل الإسلام من مقابر وكتابات ، وقد أخبر أرنو عن رجل أبيض قال بأنه من أقصى الغرب ، جاء إلى هنا قبل عشرة أعوام لقراءة النصوص الخشبية ، وقد تسلم خطاباً ، لم يعرف أحد كيف تم ذلك ، ثم أحنتني هذا الرجل بطريقة غامضة تاركاً بقشيشاً من قطع ذهبية آثرية ، وشك الناس في أمر أرنو معتقدين أنه ساحر أيضاً جاء للبحث عن كنز ، وقد تعرضت حياته للخطر أكثر من مرة . وبعد بضعة أيام قضاهما بين الآثار ، لحق بالقافلة وهي في طريق عودتها . وبدون شك أدرك أرنو أنه حظي برجوعه إلى صنعاء سالماً .

جوزيف هالفى :

وفي عام ١٨٦٩ م وصل إلى اليمن رجل فرنسي آخر ، اسمه جوزيف هالفى Joseph Halevy مبعوثاً من الأكاديمية الفرنسية لدراسة الكتابات القديمة ، وأنحدر يتنتقل بين الأهالي في زي اليهود البهائيين ، مرتدياً أشاماً قطبية بالية مع البرنس [غطاء الرأس] ، حافي القدمين وبدون سروال ، كما عمل عقصات طويلة في شعره وادعى أنه حاخام من القدس وكان انتهاه لهذه المدينة المقدسة ، ميزة مكتنته من تهديد المشاغبين ضده ، بسوء العاقبة إذا هم تمادوا في مضايقته ، ولكن من ناحية أخرى فإن ادعاءه هذا ، قاد بعض اليهود الأقل تعليماً ، إلى الاعتقاد أنه المسيح ، بينما احتار بعض العامة من الناس في أمره ،

وفي عام ١٨٤٩ م استطاع الأتراك العثمانيون الرجوع إلى اليمن وتأسيس موطئ قدم لهم على الساحل هناك ، وبافتتاح قناة السويس ، أصبح من السهل عليهم إرسال امدادات عسكرية ، مما مكّنهم من احتلال صنعاء مرة أخرى في أبريل من عام ١٨٧١ م ، وقد رحب بهم هذه المرة إلى حد ما ، حيث وضعوا حداً للفوضى السائدة

(٦٥) يشير المؤلف فيما يبدو إلى الحملة الرومانية على جنوب الجزيرة العربية التي قادها إيليوس غالوس ، الوالي الروماني على مصر ، في عام ٢٤ ق.م. والتي باهت بالفشل (أنظر ، حرفاً ، ص ٢٦٣ - ٢٦٦) - المترجم .

زاوية من السقف ، وضع ثمثال أسد من الحجر [مغوف من داخله] وكلما هبت الريح ، أصدرت من خلال فتحة فمه صوتاً كرئير ملك الوحش .

وبعد ذلك اتجه هاريس إلى البحر وفي الطريق اندهش كل من سلك هذا الطريق ، بجمال الطبيعة حول مدينة مناخه^(٦٦) فكتب يقول : «تعيطينا قمم الجبال الجرداة الجميلة من كل الجهات ، ومنحدرات رأسية ، على طرف أحدتها وقنا نشاهد الطريق المترعرع الذي سلكناه ، وتحتها لمسافة بعيدة جداً رأينا رفاقنا مع البغال وهم يصعدون بمشقة ، كالميل الصغير . ومن بين جميع الأماكن التي حظيت ببرؤيتها ، فإن مدينة مناخه ، أبدع موقع رأيته ، فهي تقع على شريط ضيق من الجبل ، ويصل هنا الشريط بين سلسلتين متباينتين من الجبال التي تكون مستجمعات لمياه الأمطار التي تجري في الواديين الكبارين ، أما جدران البيوت فتبعد وكأنها معلقة فوق جوانب هذه المنحدرات الصخرية ، ويا لها من منظر بديع وجذاب عندما يمتد الإنسان بصره نحو الواديين الكبارين ويشاهد قمم جبال جرداة ، ترتفع شاهقة فوق المكان ومنحدرات صخرية عمودية ، تبدو وكأنها قمعة الشكل ، حقاً إنه لمنظر أخاذ ، بديع وغريب في نفس الوقت» . وقد رجع هاريس إلى المغرب وهناك وقع له حادث تاريخي ، إذ اختطفه أحد قطاع الطرق المشهورين وأصبحت هذه الحادثة مسألة دولية ونشرت في جريدة التايمز . لقد كان هاريس رجلاً لطيف المعشر ، أثار إعجاب كل من التقى به من مختلف طبقات الناس سواءً ملوكاً أو رعاة جمال ، كما وإن كتبه مليئة بالأحداث الشيقة التي تعكس نفسيته الطيبة .

في عام ١٩٠٥ التقى رجال إنجلترا في مجلس العلوم البريطاني ، في بداية العشرين من عمرها وقررَ السفر إلى صنعاء ، وكان اسم الأول ليلاند بكتسون Leland Buxton ، الذي كان عضواً في فرقة انتحلت شخصية سلطان زنجبار ، وحصل في

٦٦) مناخه : تقع بين صنعاء والخديدة وهي مركز لقضاء حراز التابع للواء صنعاء ، ويقول مؤلف كتاب "Western Arabia, P. 575" إنها مدينة محصنة وكانت فيها حامية تركية ولكن أهاليها تضاءلت بعد أن أصبح طريق السيارات من الخديدة إلى صنعاء لا يمر بها (الترجم) .

على غير العادة ، وبقي الأتراك هناك حتى عام ١٩١٩ باستثناء فترات قصيرة ، وهذا فإن الراحة الثلاثة التالين قد جاءوا إلى اليمن أثناء الوجود التركي ، إلا أن الحكم التركي لليمن على أيام حال ، قد تعرض لكثير من المتاعب بسبب الثورات التي حدثت بالأتراك إلى عدم تشجيع قدوة الأجانب إلى اليمن ، وفي تلك الفترة ، شهدت اليمن شيئاً من التقدم المادي ، فالدراجات العادية والملاهي ، والدكاكين المحتوية على مواد من البضائع الأوربية ، أصبح شيئاً ملوفاً في العاصمة .

في عام ١٨٩٢ وصل إلى اليمن رجل [إنجليزي] اسمه وولتر هاريس Walter Harris كان قد عاش من قبل في المغرب وأصبح خيراً في فن التشكير ، ووصل إلى مناطق لم يجرؤ أي أوربي على الوصول إليها ، وحيثما وصل إلى عدن انتحل شخصية تاجر إغريقي - والتذكر بالنسبة له كملعبة الأطفال - [وتنقل بين الأهالي حتى دخل اليمن] ، وأعجبته الطبيعة فيها كثيراً ، وقال «لقد دخلنا اليمن السعيد ، وشاهدنا جداول المياه الصغيرة تجري فوق الحصى في كل مكان حولنا وقد انتشرت أعشاب الختشار على ضفاف الجداول ، إن الإنسان لا يدرك الموسيقى الصادرة من خرير المياه الجارية ، إلا إذا تجول في المناطق الصحراوية ولا يشاهد سوى برك موجلة ، تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة يومين أو ثلاثة» ، ومع ذلك فإن الإنسان كالعادة ، فهو في مثل هذا الفردوس ما زال جشعًا وذئباً ، فيما كان هاريس في رحلته ، ترقصت له عصابة قوامها أربعون رجلاً من قطاع الطرق لتهب قافتله الصغيرة ، ولكن رجلاً غريباً حذر من مغبة الأمر ، وقاده إلى طريق آخر ليتجنب هؤلاء السرّاق .

وما أن وصل هاريس إلى صنعاء ، حتى لوح مبهجاً ، بجواز سفره البريطاني ، مما أدى إلى سجنه باعتباره جاسوساً وبقي في السجن مدة خمسة أيام ، ثم أطلق سراحه ، وسيح له بالتجول في المدينة ، وقد زار هاريس بقايا قصر غمدان الكبير الذي يشتمل على ١٦٠٠ درجة تقود إلى برج ذي سبع طوابق وكل طابق أصغر من الذي تحته ، وهكذا حتى الطابق العلوي الذي تكون أرضيته من قطعة رخامية واحدة ، وعلى كل

وقد أصبح هربرت فيما بعد ، عضواً في مجلس العموم البريطاني وكان يلقي خطبه في المجلس ، من ملاحظات كتبها باللغة التركية ، وما أن اندلعت نيران الحرب العالمية [الأولى] حتى كان الإثنان في «المكتب العربي Arab Bureau» بالقاهرة ، ثم سافر هربرت مع لورنس لرشوة القائد التركي ، الذي ضرب الحصار على [الجيش البريطاني في] الكوت . أما بكتستون ، فلم تكن مهمته خالية من المخاطر إذ إنه أصبح فيما بعد ، مثل بريطانيا في الحبشه ، وكان ذلك أثناء الحرب الأهلية ، هذا وربما شعر هربرت بالندم لأنه رفض دعوة لأن يصبح أول ملك لألبانيا .

ومن أواخر الأوروبيين الذين زاروا اليمن قبل الحرب [الثانية] هو هيو سكوت Hugh Scott ، متخصص في علم الحشرات في المتحف البريطاني ، وقد وصل إلى اليمن في عام ١٩٣٨ م وشاهد الإمام ، الذي كان في الحكم منذ ثلاثين سنة خلت ، يذهب إلى صلاة الجمعة كأفضل من سبقه من الأنمة ، وقد ركب عربة ضخمة قديمة ذات أربع عجلات ، يسر حولها الخدم والعييد تحميء [من الشمس] مظلة كبيرة ، وكان رجال الحرس الخاص يرقصون ويلوحون بخناجرهم وهم يغنون الأغاني الوطنية ، ومن خلف الركاب سيارة فارغة من الركاب تُجليت للاستعمال عند الحاجة ، وعندما ذهب سكوت إلى مجلس الإمام ، وجده جالساً القرفصاء يعد بعض النقود الفضية والتي هي كل ما تحويه خزينة الدولة ، ولاحظ بأن العرائض والالتماسات كانت تقدم له بصورة مستمرة ، ومن ضمنها التماس من جندي يطلب إعفاءه من الخدمة العسكرية ، وكان هذا الجندي قد لقى حتفه في معركة مسلحة ، ومع هذا فقد وافق الإمام على الالتماس ، بحر أصبعه على طول المعروض ، بعد أن غمس أصبعه تلك في طاسة فيها مغرة حمراء .

عدن والمناطق الداخلية فيها

كانت عدن تعيش في الماضي في وضع مزدهر ولكن بحلول القرن التاسع عشر بدأت الأوضاع تتعذر فيها بشدة وقد وصفها أحد الزائرين لها في عام ١٨٠٩ م ، بأنها : «ركام من الخراب والأكواخ المحتقرة التي لا يسكنها من الناس إلا الأدنى ، أما الأهالي



صورة ساحرة لطفل عربي بملابس العيد ،
رسمها هنري سولت أثناء زيارته لها في عام
١٨٠٩

كمبردج على دعوة رسمية من نائب رئيس الجامعة وأخرى من عمدة المدينة ، وقد مارس فيما بعد نشاطات في بلغاريا ، وانضم إلى قوات العصابات في حربها ضد الأتراك ، أما الشخص الثاني فاسمه أوبيري هربرت Aubrey Herbert ، وهو الآخر كان على معرفة ببلاد البلقان ، وقيل عنه إن الشاعر جون بوكان Buckan ، جعل منه ثوذجاً لأحدى شخصيات ساندي آربوثنت Arbuthnot ، وأول ما شاهداه حين وصولهما إلى الحديدة ، هو منظر رجل سجين مُسنّ ومكبل إلى الأرض ، وهذا الرجل كان على تلك الحال منذ أربعين عاماً خلت ، حتى إن الناس من فيهم السجين نفسه نسوا السبب الذي أدى إلى تكبيله ، وقد بقى كذلك مع أن هناك احتمالاً كبيراً أنه رجل صالح غريب الأطوار ، وقد حدث فيما بعد أن تحطم السفينة ، التي كانت تقل هذين الرجلين قرب سواحل البحرين [ولكنهما استطاعا النجاة] وحاول هربرت قطع الجزيرة العربية ولكن مرضه منعه من ذلك إضافة إلى الواقعية .

جورج واغان بري (١٨٧٤ - ١٩٢٠) كان أول أوري يشاهد أجزاء كبيرة مما أصبح يعرف فيما بعد «جمية عدن الغربية» ويدرك كتاب Who is who إن هوايته كانت «البحث النفسي واطلاق النار من المسدس» ويسم بالفردية الشديدة وكانت له شخصيات كبيرة مع الحكومة البريطانية.



تحت أشعة الشمس لعدة ساعات حتى أصبح لون بشرته كلون بشرة العرب ، ثم دهن جلده بصبغة الليلة الزرقاء ، تمشياً مع عادة المقاتلين من السكان المحليين ، فعندما يدهن رجال القبائل جلودهم بهذه الصبغة ، فإن جلودهم بعد دهنهما مباشرة تشع زرقة ولماعاً بشكل مدهش ، ويمكن مسحها بسهولة ، وقد حصل لكاتب هذه السطور أن صافع مرة جماعة وزالت الصبغة من يده بعد حكها ، كذلك إذا مسَّ الشيوخ لحاهم البيضاء بأيديهم كعادتهم [فإنها ترك نفس الأثر] ، وكل ما يرتديه رجال القبائل هو إزار يلفه الرجل حول وسطه يمسك بحزام الخرطوش المثبت به خنجر مطعم بأحجار تختلف قيمتها حسب حالة الشخص المادية ، وبعضها مرصعة بقطع نقود ذهبية ، ترجع فيما يلي إلى زمن الإمبراطورية البيزنطية ، كما أن الفهد محلّي بمحارة شبه كريمة ، وكل قبيلي يحمل سلاحاً نارياً ، حتى ولو كان السلاح قدماً من زمن الحرب الفرنساوية - المتساوية أو قبلها .

وبينا كان بري في محطة استراحته الأولى ، أحضرت له فتاة بعضاً من القهوة وسألته رأيه في مذاقها ، وقالت له : «لقد سقطت عمي في بئر بالأمس ، وأئ ذهب لقطع بعض الأغصان» . وهذا ليس بالشيء الغريب في تلك المنطقة ، حيث إن مؤلف هذا الكتاب سئل مرة عن رأيه في كيفية معالجة إمرأة كبيرة ، سقطت في بئر منذ بضعة

فيدل مظاهرهم على البؤس والاعلال ، كما انحدر العامة منهم في سلوكهم وعاداتهم ، وأصبح مثلهم مثل الكثير من أولئك القاطنين في المدن العربية وتوجد بين الخراب بعض الأطلال القديمة التي تدل على الماضي العربي ، وهذا التباين الواضح ، بين الآثار العربية والخراب العام ، يبعث الحزن والأسى» . وفي تقرير ظهر بعد سنوات من هذا الوصف ، ذكر بأن تعداد النفوس في عدن يقترب ب حوالي ثمانمائة شخص يعيشون بين بعض المبارد المتداigne .

في شهر يناير من عام ١٨٣٩ احتلت القوات البحرية البريطانية الهندية ، بقيادة الكابتن هينز Haines ، عدن دون إراقة دماء وبقي هينز حاكماً لها لمدة خمس عشرة سنة ، ويتبعن لما دون في مذكراته ، أنه لم يتم كثيراً بأحوال الأهالي وتركهم لحالهم ، وقال عنهم : «يقضون شبابهم في تعلم الحيل والمشاسفات وفي شيخوختهم يقومون بعماراتها» ، وقد عمل هينز على تحويل الميناء إلى مركز تجاري ، كما هو مقرر أن يكون ، ولكن اهتمامه في المنطقة الواقعة خلف الساحل ، كان مقتصرًا على الهدف القريب وهو صد هجمات رجال القبائل المعادية . في عام ١٨٧٠ قام الكولونيل مايلز Miles برحلة إلى الداخل ولكن الاستقبال الذي لقيه لم يشجع آئياً من الرحالة الآخرين على زيارة المناطق الداخلية ، وقد هدد البدو بشنق أي نصراوي يأتي بعده إلى منطقتهم ، وقد وجدهما الفقر يعم البلاد حتى إن السلطان نفسه لا يملك غير عبد واحد فقط ، ويعيش في بيت قديم لا أثاث فيه ولم يكن عنده من السلاح سوى بنడقة واحدة ، كما وصف مايلز النساء بأنهن غير جميلات .

إن أول محاولة جدية لاكتشاف المناطق الداخلية لجنوب الجزيرة العربية ، جاءت في مطلع هذا القرن ، وكان صاحب تلك المحاولة ، ضابط بريطاني اسمه وايمان بري Wyman Bury ، كان قد حارب سابقاً مع القبائل الثائرة في المغرب ، في عام ١٨٩٥ م . [وفي استعداده لرحلته] غير اسمه إلى عبدالله منصور ، وأخذ يضطجع على الصخر ،

أشهر ولكنها ظلت تجد صعوبة في مشاهدتها ، عندما يطلب منها أن تذهب مسافة قد تصل إلى خمسة أميال لتحططب ، أو لتقضى يوماً تحت أشعة الشمس الحارقة ، في رعي الغنم .

لقد زار بري مناطق لم يزورها أي أوربي من قبل ، وقد وصف رجال القبائل بقوله : «إنهم من أردا الناس ، فقراء .. معوزون ، غليظوا الطبع ، غادرون وحشعون - أحلاقوهم منحط ، فهم يفترسون الضيوف ويسرقون القوي ... ومع كل هذه المساواة فإن البدوي يستطيع أن يموت وحيداً كالذئب عندما تخفي ميتة .. نعمته العاطفية مقطوعة شرعاً بسيطة من ثنائية أبيات ، فالذين في جهة وجشعه في جهة أخرى ، فالجشع مستحوذ عليه ومسطراً على معظم تصرفاته». و تعرض بري لعدة هجمات من البدو خلال رحلته . وبعد خمسين عاماً من ترك بري للجزيرة العربية قابل كاتب هذه السطور رجلاً مسنًا ، ادعى أنه أطلق الرصاص على بري ، وخلال تحواله ، مر بري على قبيلة تفشي فيها وباء الجدري مما أدى إلى نقص ظاهر في عدد سكانها ، وقال : «إنها عطلت قوانين الزواج مؤقتاً وسمحت بتزويج الغرباء القادرين على الحرب». كما مر على قبيلة أخرى تصنع الخمر من التمر ، الأمر الذي يجعلهم سكارى لعدة أيام ، وزار يشيم^(٦٧) ووجد عائلة الشيخ فيها تتحدر مباشرة من نسل نفس القبيلة التي قاومت الرومان في عام ٢٤ قبل الميلاد ، وبهذا فإنها تعتبر أقدم عائلة حاكمة في العالم ، ومن الجائز أن يكون بري أول رجل إنجليزي يقضي شهر العسل في صنعاء .

لقد مضت ثلاثون سنة على رحلة بري ، لم يحدث خلالها أية محاولات جادة للحصول على معلومات أكثر عن المناطق الشمالية والشرقية من عدن ، ثم جاء شخص اسمه هاميلتون Hamilton أصبح فيما بعد اللورد بيلهافن Lord Belhaven ، وهذا كثيراً ما تجول مع رفيق واحد فقط ، في المناطق الغربية من محكمة عدن خلال الثلاثينيات من هذا القرن ، ولعلنا نعتبره آخر من جاء من الرحالة المكتشفين . بدأ هاميلتون رحلته من الساحل باتجاه الشمال ماراً بضيق العرقوب ، ووصف شعوره حينذاك فقال : «... لقد

(٦٧) يشيم : مدينة في منطقة العوالق العليا في حضرموت شمال خط العرض ١٤ وغرب خط الطول ٤٧ (المترجم).

شعرت وكأنني نملة تتسلق سخان ماء ضخم ، لا ترى إلا تلالاً جرداً ، هرمية الشكل ، وذات لون أحمر أو رمادي كلون خبث البراكين ...» وحضر مرة وليمة ولاحظ فيها ، أن صاحب الدعوة وقف بكل أدب في الخلف بينما ترك المدعىين يتناولون طعامهم . وبين فترة وأخرى كان يقطع قطعة من اللحم لنفسه في حجم نصف الرطل ، كوجة خفيفة ، فيحشو ما أمكن الحشو منها بين فكيه الواسعين ويقطع ما تبقى منها بمنخره قريباً من شفتيه ... ويمضغ اللحم وفمه مفتوح ، فيما أخذت قطرات الدهن والمقرمش تسلل خلال لحيته وعلى حنجرته من الخارج ثم تنزل على ثوبه الفضفاض ، والجدير بالذكر ، أنه كثيراً ما يلاحظ ، أنه بسبب ندرة اللحوم في جنوب الجزيرة العربية فإن الناس هناك ، ينسون تقاليد المائدة وآدابها عندما يتوفى اللحم .

وقد تمعن هامilton بصحبة البدو في عدن ، فكتيراً ما جعلت لطائفهم البسيطة الرجل الإنجليزي ، يشعر أنه ليس غريباً بينهم غير أن هذا لا يمكن أن يكون ، فهو أيضاً وبشرتهم بلون بني ، هو نصراوي وهم مسلمون ، هو أوربي وهم آسيويون ، بينما وبين العرب خليج ، لا يمكن بناء جسر عليه ، فلا يمكن أن يكون واحداً منهم في عيونهم ، وقد اتسمت ملاحظات هامilton بالحزن ، في وصفه لأرض الجزيرة العربية نفسها ، حينما قال : «أرضها قاحلة جدباء ، يشعر كل من يعمل فيها بالحزن والمرض في جسده وبالقلق في رأسه» ، ولا أعتقد أنه بالغ في وصف آراء كثير من سكن وعمل في المنطقة حينما انتهى إلى قوله : «لا يمر عليك يوم في حياتك ، دون أن تذكر بعض الجوانب من تلك الأرض الشاسعة .. ولا تمر عليك ليلة دون حلم أو هواجس» .

حضرموت

يقع وادي حضرموت في الشمال الشرقي من عدن ، ممتداً من حدود الربع الحالي ومنتهياً إلى البحر عند سیحون ، وقد ذكر اسم «حضرموت» في مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين^(٦٨) ، وذكر أيضاً في سفر التكوين في التوراة ، وفسّر اسمها على أنه «وادي

(٦٨) لقد ذكرت حضرموت عند استرابون وبليسي باسم كرموت (أنظر جира ، ص ٢٤٧ ، وحمد ص ١٣٦ - ١٣٧) كما ورد اسم حضرموت في سفرأخبار الأيام الأول ، الاصحاح الأول فقرة (٢٠) المترجم .

زوجاتهم لم يغادرن معهم ، ولذلك فقد كونوا عائلات أخرى في محل إقامتهم الجديد ولكن ربما رجع بعضهم بعد ثلاثين سنة ليسترد زوجته الأولى وكان منهم من جمع ثروة كبيرة من خلال أعمالهم التجارية في سنغافورة وبوتافيا ، وبالرغم من أنهم عادوا وهم من أصحاب الملابس إلا أنهم يعملون على استرداد اقطاعاتهم القبلية القديمة ، أو يدفعون أسعاراً باهظة لشراء الأراضي الزراعية الصغيرة .

إن حضارة حضرموت الفريدة هذه ، لم يكن الغرب يعرف عنها شيئاً ، قبل بداية هذا القرن ، إلا قليلاً ، ومن أوائل الرحالة الأوربيين الذين تركوا وصفاً لهذه المنطقة ، رجل ألماني كان يخدم في الجيش اليوناني اسمه البارون أدولف ريد Adolf Wrede ، الذي وصل إلى المكلا في عام ١٨٤٣ وغير اسمه إلى عبدالهود ، وقد اكتشف بعض الناس أنه أوريبي فأطلق عليه بأسئلة مختلفة منها : ما هو عدد الخدم في بلاط الملكة فكتوريا ، وهل صحيح أن قيسار روسيا عنده سبعمائة حراس من آكلي لحوم البشر ، وأن طول القيسar يصل إلى سبعة أذرع ، وله عين واحدة في وسط جبينه ، وقد ذكر لنا ريد ؛ أن من بين هؤلاء الناس ، الذين لديهم معرفة محدودة عن أوروبا ، شيئاً وجده يقرأ في كتاب «حياة نابليون بونابرت» مؤلفه [الاسكتلندي] والتر سكوت ووصف لنا الرمال المتحركة فيما يعرف ببحر السافي [أو الصافي] ، سميت كذلك هلاك جيش أحد الملوك في هذه الرمال ، فقال : «إنه لمنظر مخزن يثير الدهشة .. سهل رمل هائل تنتشر فيه أعداد لا حصر لها من التلال الرملية التي تراها تتحرك وكأنها أمواج البحر ، لا أثر فيها لأية نبات يذكر ، يبعث ولو بشيء قليل من الأمل في الحياة على هذه الأرض الشاسعة ، ولا أثر فيه لطير يقطع بتغريده سكون الموت ، الذي يحيط على قبر الجيش السبئي» . ويدرك ريد ، أن مرشديه من البدو أخبروه ، أن في أعماق هذه الرمال كنوزاً كبيرة ، تحرسها الأشباح ، ولكنهم رفضوا مصاحبته عندما زحف إلى الأمام لرمي فيها فادناً ليسير غورها ، غير أن الفادن غاص في الرمال أكثر من ٣٦٠ قدم . وهذه نهاية القصة الغريبة ، وليس هناك من شاهد هذا البحر من الرمال بما في ذلك فلي الذي قاد سيارة كبيرة في نفس المنطقة المذكورة ذاتها .

«المؤرخ الأغربي» هيرودتس إن ثعابين طائرة تحرس كنوز هذا الوادي وتتمثل الكنوز في البخور والمر ، وشجرة البخور لها ساق رمادي اللون وتنشر أغصانها قرب سطح الأرض ، ويخرج البخور منها على شكل مادة صمغية شفافة خضراء اللون ، بعد عمل قطع في ساق الشجرة ، ثم ترك لعدة أيام حتى تصبح صلبة ، بعد ذلك تجتمع هذه المادة وتحمل على قوافل تأخذ طريقها إلى مدينة شبوة ومنها إلى مأرب ثم إلى مكة حتى تصل إلى ممفيس أو القدس حيث تحرق على القرابين ، وهذه السلعة ثمينة جداً ، لدرجة أن بليني يعتقد ؛ إن أي حال يتبع عن الطريق كان يعاقب بالموت .

أما الحياة الدينية ، فإن كثيراً منها يتركز حول النبي هود الذي يعتقد بأنه عابر Eber» الذي ورد في التوراة^(٦٩) ، وهو حفيد حميد نوح [عليهما السلام] وهو الذي أجربه أعداؤه على الاختفاء في غار في أحد الجبال بينما ظلت ناقته الوفيه في الخارج ، فتحولت إلى صخرة كبيرة يمكن رؤيتها إلى يومنا هذا ، وضريحه مقدس عند الأهالي حيث وفر واحة من الآمان ، فيحرم القتال حوله ، بل ولا يحرك شيء ساكن بقربه حتى العصا أو الحجر ، لو حرك أحدهما من مكانه فلن يهدأ من القفر والبكاء حتى يعاد إلى مكانه .

قبل حوالي ألف عام سكن وادي حضرموت رجل يدعى السيد أحمد أبو بكر بن عيسى من سلالة الرسول ﷺ وقد تغلب السيد أحمد بواسطة الوعظ والدعوة أحياناً وبواسطة القوة أحياناً أخرى ، على كل من الوثنين وأصحاب البدع والخرافات ، وبمرور الزمن تضاعف أفراد ذريته وحكم المنطقة كزعيم ديني وأرستقراطي ، وعلى أيامه حال فإن ما تتجه الواحات المتاثرة في الوادي لا يكفي لسد حاجاتهم وحاجة القبائل التابعة لهم فاضطر عدد كبير منهم للسفر إلى الخارج للبحث عن لقمة العيش ، فذهب البعض إلى زنجبار ، ولكن كثيراً منهم ذهب إلى جزر الهند الشرقية حتى يعتقد أن عددهم في عام ١٩٣١م ، بلغ ثمانين ألفاً ، وكان كثيراً منهم متزوجين قبل مغادرتهم غير أن

(٦٩) سفر التكرين ، الاصحاح (١٠) فقرة (٢٥ - ٢٦) وفيها أن عابر ولد له أبناء : فالج ويقطنان (المترجم).

وفي نفس العام ١٨٩٣م ، زارت حضرموت أول سيدة إنجليزية اسمها مابل بنت Mabel Bent وكانت في صحبة زوجها ثيودور Theodor راحلته أيضاً في رحلات سابقة ، من ضمنها زيارة البحرين التي اعتقد بأنها الموطن الأصلي للفينيتيين ، كما أنها أول من زار آثار زمبابوي وأعتبرها ذات أصل عربي . وكانت معرفتها باللغة العربية قليلة جداً وقد تجولا في المنطقة دون مصاعب تذكر ، فقد كان برفقهما بعثة مكونة من مساح هندي ، وخير [إنجليزي] يعلم النبات من كيبو [إحدى ضواحي لندن] ، وخدم أغريقي ، ورجل مصرى متخصص في علم الطبيعة ، وقد ألفا أول كتاب متداول [باللغة الإنجليزية] عن حضرموت ، وأخذت السيدة بنت أول صورة فوتوغرافية [لتلك المنطقة] .

لقد لاحظت بنت وزوجته كيف أن عدداً من المدن الحضرية ، تشبه قلاع منطقة الراين المبنية من الطين ، كما لاحظ أن الرجال الحلين المراقبين لها ، كانوا ضعاف البنية وجوههم بدون لثني وهي ناعمة ومليحة جداً للدرجة أنه ربما يظن الواحد أنهم نساء ، فقد كانوا حقيقة ظراء وجحدين ، أما الفتيات فلم يكن مظهرون من جيلاً إذ أنهن يصيغن وجوههن بصبغة صفراء لامعة ، تتخللها خطوط سوداء ، كما يصيغن أنوفهن بلون أحمر ويضعن نقطاً خضراء على خطودهن ، (...) كما ذكرنا أن البيو يغدون في أثناء الليل ويصيغون ويزرعون ، وما آثار اهتمام بنت وزوجته الطب الشعبي ، فقد لاحظا أن معظم الآلام يتم علاجها بالكتي بمديدة حارة ، ومن القصص الطريفة التي ذكرها أن رجلاً تراهن على أكل كل شحم العنبر ، ولا عجب فقد بدأ يقايس من آلام سوء الهضم ، وعندئذ فما كان من الحكم إلا أن أشعل ناراً حوله لإذابة الدهون في جسمه .

وعندما زار بنت وزوجته مدينة شباب لم يحسن الأهالي استقبالهما ، وفي أثناء الصلاة دعا المصليون لتخلص البلاد من الكفار ، وقد انتهيا في وصفهما إلى : «أن الدين

بعد ذلك بعده أيام ، وصل ريد إلى بلدة صغيرة اسمها صيف^(٧٠) في وقت كان الأهالي يستعدون فيه للاحتفال بأحد الأعياد الدينية ، ووجدتهم في حالة فلقة ، فقد مررت أربع سنوات على الاحتلال البريطاني لبلادهم ، ومنذ أن جاءهم ضابطان من البحرية البريطانية ، ونسخا بعض النقش الحميرية قرب الساحل ، بدأ المحصول يشع ويقل عمما كان عليه في السابق ، واعتقد الناس بأن ريد كان جاسوساً إنجليزياً ، وطالعوا بالحكم عليه موتاً ، وأحضر إلى حضرة السلطان ، وكان جسده منقط بالدم والتراب ، ولو لا تدخل دليله البدوي في الأمر لفقد حياته ، واكتفى السلطان بنهب متاعه ومصادرة ما دونه من ملاحظات ومشاهدات . ولا نعلم ماذا حدث لريد بعد رجوعه إلى أوروبا ، ويعتقد البعض انه دخل في خدمة الجيش التركي ، والبعض الآخر يعتقد أنه هاجر إلى تكساس .

لقد مرّ محسن عاماً قبل أن يزور المنطقة شخص أوري . وكان هو الآخر ألماني الجنسية ، اسمه ليو هيرش Leo Hirsh وكان خبيراً ومشهوراً في اللغات العربية والحميرية ، وبالرغم من أنه ارتدى ملابس عربية خلال رحلته ، إلا أنه لم ينكر أنه رجل أوري جاء ليدرس الإسلام . ويعتبر هيرش أول أوري يزور وادي حضرموت ، وقد استقبل هناك بحفاوة ، حتى إن السلطان كتب تصدية في مدحه ، وذهب إلى مدينة تريم^(٧١) حيث تعيش فيها مجموعة كبيرة من السادة ، وكان أحدهم يستعد لضيفه في بيته ، إلا أن نفراً من الأهالي المتعصبين تجمعوا خارج البيت وهددوا بحرق البيت . وقد كان وصف هيرش لرحلته يتفق تماماً مع ما كنا نتوقعه من رجل ألماني متعلم مثله .

(٧٠) تقع هذه البلدة شمال خط العرض ١٥° وشرق خط الطول ٤٨° (أنظر ص ٦ وكذلك الخريطة للكاتبين : "Meulen and Wissmann" - المترجم .

(٧١) ترم : قاعدة حضرموت (سابقاً) وهي في الجبال شمال لسعا ، المدينة الساحلية بينما تسمون ميلاً ، وفي شمال تريم من مدنها المذكورة في الكتب شنة المشهورة بكثرة الماء وفي الشرق الخزعيم (الغربي) ، ص ١٠١ - المترجم .

ففي مدينة شام بيت شاهقة الارتفاع وملائمة لبعضها البعض ، لتُلْفَ موقعاً دفاعياً ، وفي سيون Saiyan ، بيت ومساجد جميلة ، أما ترميم فقد احتوت على قصور حديثة ، يشع طرازها وساطع لونها ، وكانت قد شيدت بأموال اكتسبت من جاوه ، وإنه من الصعب التصديق بأنها بنيت من طين مخلوط بالقش وكسيت بالجص المصفول بحجارة الصوان حتى أصبحت الجدران لامعة فبدت وكأنها مبنية من الرخام كأن الماء الصخمة قد بنيت أيضاً من الطين .

حاولت البعثة الرجوع بطريق البر إلى عدن ولكنها تعرضت لهجوم أثناء الطريق ، ولم يقل فان دير مولن عما إذا كان هو من هواة أفلام رعاة البقر ، ولكنه ربما كان ذلك ، حيث وضع قبعته فوق صخرة ، فصوبت العصابة نيرانها نحوها وتمكنت البعثة بذلك من الإفلات من الهجوم .

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى وصل إلى حضرموت ألماني آخر ، وهو هانس هلفرتر Hans Helfritz ، وكان مصوراً بارعاً إلا أنه فيما يبدو لا يملك صفات الرحالة المكتشف فهو ، كما أشارت فريا ستارك Ferya Stark ، يبدو أنه قد عرض نفسه للتهديد بإطلاق النار عليه وقتلها عدة مرات كلّة تفوق ما يحدث عادة لسائح تموزه البلاقة فحقيقة ، تكاد لا تخلي صفحة من صفحات كتابه إلا ويتحدث فيها عن أخطار تعريض لها وقد وصلت هذه الأخطار ذروتها ، عقب مشاجرة بسبب حمير وصفتها بقوله : «لم تكن لحظة سارة عندما ترى خنجراً مدهوناً بالرثي قريباً من حنجرة إنسان أو عندما ترى فم بندقية قد وضع على صدر إنسان ... ولحسن الحظ ، حدث أن جاء نفر من النساء البدويات اللائي ضحكن من قلوبهن على هذا الوضع المضحك في نظرهن» ، وقد قيل الكثير عن تسامح العرب ، وما يؤكّد ذلك أنّ هذا الشخص السخيف قد استطاع أن يكون أول أوربي يصل إلى شبهه والتي تركها بعد لحظات قليلة تحت وابل من الحجارة ، كما أنه كان أول أوربي يدخل إلى اليمن من جهة الشرق منذ أن فعل ذلك الراهبان اليسوعيان في القرن السادس عشر ، وبعد أن قضى هلفرتر فترتين في

والتعصب له في حضرموت أصبحا شيئاً واحداً ولهذا فإن إقامة علاقات صداقة مع الناس مثلاً ، في الوقت الحاضر شيء قريب من المستحيل .. فالدين هنا ، هو الروح الحركة ، ولو لا أصبحت حضرموت مكاناً مهجوراً منذ وقت طويل ولكن الأهالي يعتبرونها أقدس مكان على وجه الأرض» .

بعد ذلك مضت أربعون سنة لم تشهد أرض الوادي خلاها ، رحلات استكشافية جادة ثم جاء في هذه المرة فريق يتكون من القنصل الهولندي في جدة واسمه فان دير مولن Van Der Meulen وجغرافي ألماني اسمه هيرمان فون فسمان Hermann Von Wissmann وقد بدأ الإثنان رحلتهما بالسيارة لأنّ الجمالين المرافقين لهم كانوا على عداء مع رجال القبائل القاطنين خارج مدينة المكلا وقد أعجب الرجال بالشيخ المحلي المشهور ، الذي يمتاز بنكهة خاصة والسبب في ذلك ، أنّ المزارعين يعالجونه بثلاثة أنواع من السماد الطبيعي : روث الطيور ، والسمك التتن ، والسماد الحيواني مخلوطاً مع الفضلات الآدمية . ومثل غيرهما من الرحالة ، فقد أصابتهما الدهشة عندما وقع نظيرهما على وادي دونع فبعد عبور سهل منبسط مفروش بالحصاء وقد بدأ وكأنه لا نهاية له ، ظهرت فجأة هوة فاغرة فاما على عمق ألف قدم ، في وسطها بقعة منسية من الجننة تتقدّر يوم الحساب ، وقد ترك هذا الوادي نفس الانطباع فيما بعد [الرحالة الإنجليزي] إنغرامز Ingrams الذي وصفه بقوله : «في أول نظرة لنا على الوادي لم نر بيوتاً في أول الأمر ثم ظهرت بين الصخور الرملية ذات اللون البني الباهت ، قلاع عظيمة جائمة عند سفح الجبل كما لو أنها تزيد أن تستلقي جداره وقد بدأ شكلها منسجماً مع طبيعة المنطقة حولها بحيث لا تظهر للنظر من أول الأمر» .

وقد استمر فسمان ومولن في رحلتهم إلى شام التي ذكرتّهما بطبق كيك مع الشوكولاتة ومحفظي بالسكر وأكملوا رحلتهم بوساطة سيارات جلت [أجزاءها] من الساحل على ظهور الجمال وتم تركيبها في الوادي ، وقد لاحظا مثل غيرهما من السائرين الذين جاءوا إلى هناك ، الاختلاف الظاهر في المدن الثلاث الرئيسية في حضرموت ،

السجن طلب منه ترك البلاد بأسرع وقت ممكن .

خلال زيارة مولن لحضرموت ، طلب منه كثير من الأهالي حتى السلطات في عدن ، لفرض السيطرة البريطانية على الوادي لوصول الحالة الأمنية هناك درجة جعلت العيش فيه تقريباً أمراً مستحيلاً ، فقد انهمك رجال القبائل في خصومات عائلية فلا يستطيع بعضهم الخروج من بيته لأن أقرباءهم قد جلسوا خارجها وبنادقهم مصوبة إلى الأبواب ، بينما كان على المقاتلين في كل منطقة زراعية أن يقوموا بحراسة المحاصيل الزراعية ليلاً ونهاراً . وفي نهاية عام ١٩٣٤ وتحت ضغط المليونير السيد أبو بكر الكف ، الذي تبرع من ماله الخاص بإنشاء طريق يمتد من الساحل حتى الوادي أرسلت حكومة عدن مسؤولاً اسمه هارولد إنجرامز Harold Ingrams لكتابه تقرير عن الأحوال في الوادي ، واصطحب إنجرامز زوجته معه وكان لها دور مهم في تلك الرحلة مثل دوره تقريباً ، وببدأ الزوجان رحلتهما التي دامت سبعة أسابيع على ظهور الحمير التي أخذتهما إلى دومن والوادي ، وبعد ذلك على ظهور الجمال إلى سيحوت على الساحل ، وهناك شاهدا ضريح رجل صالح فيه شجرة تكاد بسموها تخترق القبة وحسب الأسطورة أن هذا الرجل قد ولد وفي رأسه شجرة صغيرة ، كان يشذبها طوال حياته ، [إلا أنها بدأت تنمو وتتطول بعد وفاته] .

رجع إنجرامز إلى الوادي عام ١٩٣٦ ويساعد السيد أبو بكر تم إقرار السلام المشهور ، مما جعل الوادي ينعم بفترة من الهدوء ووصف إنجرامز سعادة الناس بالأمن والاستقرار ، حتى إنهم بدأوا يتوجهون دون حاجة لحمل السلاح ، وكيف أن السادة في مدينة شهر اتفقوا على أن لا يسمحوا لزرواجاتهم بأن يصرفن أكثر من عشرة دولارات لشراء بدلة جديدة أو دولارين فقط على حفلة شاي ، وذلك احتفالاً باستتاباب الأمن ، وأخيراً فتح طريق المكلا وبدأت الخطوط الجوية تنقل الناس بسهولة مما جعل زيارة حضرموت لا تعلو عن كونها ، حلقة سياحية .

وهناك امرأة رحالة لابد من ذكرها هنا واسمها ، فريا ستارك Freya Stark والتي أقامت علاقات ودية مع رجال وسيدات حضرموت ، وذكرت كيف أن فتاة لم



شيماء : مدينة مميزة بسورها الخارجي وتكون من بيوت قديمة منذ عدة قرون وهي ذات طوابق سفلية بدون نوافذ ويلاحق بعضها بعضاً .



السيدة فريا ستارك التي دالماً ما يوجد
القاريء متعمق في كتاب العديدة عن رحلاتها في
الشرق الأوسط .

بريطانيان هما ولستد Wellsted و كروتندن Cruttenden ، اللذان سبق أن تحدثنا عن رحلتهما إلى اليمن ، وقضيا فيها مدة شهرين أجريا خلاها مسحًا للجزيرة ، وقد ذكر ولستد أن الأهالي قد رأوا في الخيمة مختلف الأدوات التي أحضرت لغرض المسح الذي لا يعرفون عنه شيئاً تماماً مثل السكان البدائيين في باري نيوزيلاند ، وقال بأنهم لا يعرفون حتى استعمال النقود ويستعملون السنون كأساس للمقاييسة . وقد أعطى ولستد بدوية ، كانت مستقرة في الضاحك بنطونا لبنته في الحال ، مما أضفى عليهم بدون شك ، شكلاً حسناً ، ويقول إنه بالرغم أن وجوه الفتيات هناك ، مليحة إلا أن سيقانهن غليظة ، بشكل لم ير مثله من قبل .

ويعيش كثير من الناس في كهوف محاطة بمجران حجرية قصيرة تمنع مواشיהם الكثيرة من الدخول إليها ، أما أناثهم فلا يزيد عن حجر يستعمل لطحن الذرة ، وبعض الجلود التي ينامون عليها أو يستعملونها كقرب لحفظ الماء ، وبعض أواني الطبخ الفخارية ، وقمash حشن معلق في أربعة أوتاد يستخدم كسرير للطفل عند الحاجة ، ويلاحظ بأن الذباب قد انتشر في كل مكان .

ويعيش الجزيرة في وضع منعزل تماماً لدرجة أن الناس فيها لم يروا كلباً قط وعندما رأوا وجه خادم نبلي أسود ، اعتقدوا أنه الشيطان بعينه في صورة آدمي ، أما تشریعهم للقضاء فبسیط جداً : يربط الشخص المتهم ويترك على قمة التل ، فإذا أمطرت السماء خلال ثلاثة أيام من وجوده هناك ، فيحكم عليه بالموت ، رمياً بالحجارة . وكانت مناظر الطبيعة فيها حلابة ، فقد كتب ولستد يقول : «... لقد كنت محظوظاً في روئي مناطق مختلفة من الشرق ، إلا أنها لا تقارن بعظمة الطبيعة وجمالها في سوقطرة ...». وما زاد في روعة الجزيرة ذلك النبات الفريد الذي ينمو على ارتفاع يتراوح ما بين ثمانمائة إلى ألفي قدم وهو شجرة دم التنين الغريبة التي تفرز مادة صمغية لونها أحمر داكن و يصل ارتفاعها عالياً إلى عشرين قدماً ، وأغصانها كثيفة ، وقصيرة ، وسيكة ، ومنضفة ، وتغطيتها الأوراق وطول الورقة الواحدة ، قدم واحد وقد انفرجت إلى الخارج

الحمر ، ويدبحون الصحايا ويقدمونها إلى القمر ، وإذا شحت الأمطار ، فإنهم يختارون راهباً ليكون ضحية ، وبعد أن يعطوا القمر إنذاراً يقطعون أيدي الراهب إن لم تهطل الأمطار بغزاره .

كانت الجزيرة تحت سيطرة سلطان قشن^(٧١) وهو من المهرة ، وترك الجزيرة لحاكمها حتى الثلاثينيات من القرن الماضي ، حين قررت السلطات البحرية البريطانية أن تستعملها كمحطة لتزويد البوارج بالفحم الحجري ، ففي عام ١٩٣٤ م زارها ضابطان تعرف بأنها ستزوج إلا في اللحظات التي وجدت قريبتها قد جهن لطلاء وجهها بصبغة صفراء ، ولصبغ يديها ورجلها [بالحناء] ، وطوال اليوم الثالث للاحتفال جلست تحت ستارة حمراء ، حتى جاء روجها الذي لم تره من قبل . وعندما فقدت السيدة ستارك بعض محاسبيها ، عمل لها السيد تعويذة ، كان على المتهم أن يشربها .. ولكن سرعان ما رجعت كل المحاسيب إلى محلها السابق بطريق غامضة ، وأخيراً عندما كانت على وشك أن تصاب بالحصبة ، نجحت في التخلص من رغبة الأصدقاء في علاجها بالكي بمديدة حارة في رقبتها ، حيث إنها نُقلت على طائرة من القوات الجوية البريطانية إلى عدن ، بعد ذلك ذهبت إلى مصر وأسست حرباً سياسياً هناك ، واستمرت في رحلاتها التي دائماً ما تصفها بعنابة وأناقة .

سوقطرة

لقد رأينا كيف أن البرتغاليين [احتلوا سوقطرة] وبنوا في الجزيرة قلعة دفاعية ، إلا أن وجودهم لم يدم إلا سنوات قليلة ، واستمر سكانها يعتبرون أنفسهم من النصارى ، بالرغم من أن قسيساً زار الجزيرة في القرن التالي ، ووجد أن شعائرهم الدينية ذات طابع غريب ، ففي كل يوم يدهنون مذابح كنائسهم بالزبدة ، ويكرهون لحم الخنزير وشرب

^(٧٢) قشن : مدينة ساحلية في حضرموت تطل على خليج قشن غرب خط الطول ٥٢° وشمال خط العرض ١٥° (المترجم) .

كلمروحة .

في عام ١٨٩٦ م زار الجزيرة الرحالة بنت وزوجته ، وذكرا قصة تتعلق بقوة السحر يتبادلاها الأهالي ، مفادها أن رجلاً هرب مؤخراً مع فتاة من بلاد أخرى وذلك بتحويل الفتاة إلى فقمة وسبحت إلى سوقطرة ، وما أن وصلت إليها حتى عادت إلى صفتها الطبيعية . وما لفت انتباه بنت وزوجته ، هو العلاج الذي أعطاه حكيم سوقطري إلى خادم البعثة ، وذلك بأن عمل عدداً من الشقوف في رأسه ، ووضع قرن حيوان على كل شق وببدأ يمتص من الدهبة الأخرى للقرن ، وينتفت مما يخرج منه في اتجاهات مختلفة ، وأخيراً جلس على المريض يقرأ بعض التعاويد ، وبين الحين والآخر ، كان يبصق في وجهه ، ومن الغريب أن المريض شعر بشفاء عاجل جداً !

واعتقد السيد والسيدة بنت مثل بقبة الرحالة الذين رأوا الجزيرة ، بأن سكانها الأصليين بلغتهم الأصلية ، قد استوطنو الجزيرة قبل دخول العرب إليها ، وما زال هذا الأمر ، على أية حال غامضاً وذلك لأن جزيرة سوقطرة ما برحت إحدى الأماكن القليلة في الشرق الأوسط التي لا يعرف عنها إلا القليل .

وبعد أشهر قليلة من ترك البعثة للجزيرة ذهب إليها هينز Haines ، محاولة شرائها بسعر ألفي جنيه من السلطان الذي وجده رجلاً طاعناً في السن ، أعمى ، ومشوهاً وقد ارتدى ملابس رثة . وبالرغم من فقره ، فإنه رفض رفضاً قاطعاً أن يبيع إنساناً واحداً من الجزيرة ، قائلاً : إنها هدية من الله إلى المهرة ، ورثناها من أجدادنا وسنورثها لأطفالنا ، ومع أن هينز شعر بخيبة الأمل لفشلها في مهمتها ، إلا أنه أبدى احترامه وتقديره لأمانة السلطان ، وعلى كل حال فإن قوة بحرية بريطانية ، أرسلت لاحتلال الجزيرة ولكنها انسحبت بعد بضعة أشهر بسبب تفشي الحمى بين أفرادها .



هارولد إنغرام إلى اليسار ، وإلى جانبه سمو السلطان السير صالح بن غالب حاكم المكلا ،
وتحتضر السيدة إنغرامز بالملابس العربية وهي الثاني من اليمين

بالرغم من بعض المزاعم التي لحقت بالبرتغاليين ، فقد استمر حكمهم لسقطر مدة قرن ونصف ، بنا خلاها قلعتي الجلالي والمرانى اللتين ما بريحتا تشرفان على الميناء ، ولم يحاول البرتغاليون أن يسيطروا سلطتهم على المناطق الداخلية ، ولم يحاولوا التبشير بالديانة النصرانية بين الأهلية ، وقلما تدخلوا في شؤونهم الداخلية .

وما ساعد على استمرار حكم البرتغاليين لسقطر ، الفرق بين أهالى المنطقة الواقعة خلف الساحل ، فسكان المناطق الداخلية في عمان يتبعون المذهب الأياضي الذي يعتبره أكثر المسلمين مذهبًا ابتداعياً ، ويعتقد الأياضيون أنه ليس من الواجب أن يكون الحاكم أو الإمام منحدراً من سلالة الرسول ﷺ وإنما يجب أن يختار الناس أفضل واحد في المجتمع لتولي منصب الإمام لفترة مؤقتة ؛ وهي فكرة تستحق الاعجاب بلا شك لو لا أن ممارستها قد تسبب الخلافات ، والإمام يكون مطلق السلطة ، إلا إذا قام بعمل يخل بالشرع وأسوأ من ذلك إذا أدخل على الدين بدعاً جديدة ، فعندئذ تكون محاربته أمراً واجباً على كل الرجال الطيبين ، وهذه بالطبع ، وسيلة تقدّم لاختيار رجل آخر ، وعلى أية حال ففي عام ١٦٢٥ انتهى منصب الإمام رجل من قبيلة اليعاربة^(٢) ، وبعد أن ثُبت مركزه في الحكم ، جعل المنصب وراثياً .

ويقال إنه في عام ١٦٤٩ طلب الإمام الذي تسلم الحكم بعده ، بكل أدب السماح له بالنزول إلى سوق مسقط لشراء بعض الحاجات ، فأرسل له الحاكم البرتغالي قطعاً من لحم الخنزير متعمداً إهانته ، وحدث فيما بعد أن الحاكم فيما يعتقد ، قد خطط للحصول على ابنة تاجر ثري هندي ، فعزّم هذا التاجر على الغدر بالحاكم لإنقاذ ابنته ، وبعث برسالة إلى الإمام يخبره فيها أن البرتغاليين باعتبارهم نصارى متمسكين بدينهم ، فإنهم يحتفلون بأيام الآحاد فيصيرون سكارى ، وعندئذ قام الهندي بفتح بوابات المدينة [لقوات الإمام] عندما كان البرتغاليون في وضع لا يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم .

^(٢) لازالت هذه القبيلة معروفة في شمال عمان وكان منها الأئمة قبل أسرة البوسعيدية (المترجم) .

رَحْمَةُ عُمَانَ

من المحتمل أن يكون الخليج أقدم طريق بحري في العالم ويعتقد الكثير من علماء الآثار ، أن على مياهه تعلم الإنسان الملاحة ، وفيه أبحرت أساطيل الإسكندر المقدوني ، وبواسطته تبأّلت الطريق التي سلكها فيما بعد السنديان البحري ، باحثاً عن الثروة والكنوز ، ولكنه كثيراً ما وجد نفسه في خضم المغامرات ، ويسطّر على مدخل الخليج ، ميناء مسقط ، الذي يعتبر من أحسن الموانئ الطبيعية في الجزيرة العربية بعد ميناء عدن ، ويقول عنه اللورد كرزون Curzon : «إنه ربما يكون أبدع منظر طبيعي في العالم وعن بعد ، تبدو الكتل الهائلة من الصخور الصوانية ، ذات الشقرق والمنحدرات العميقية وقد برزت قممها المدببة وكأنها ترتفع بصورة مفاجئة من البحر ، وعلى مسافة بعيدة في الداخل ارتفعت قمم الجبال الشاهقة واحدة فوق الأخرى وقد ظهرت الشقوق والتصدعات الخفيفة ، وكأنها تعطي انطباعاً عن بلد قد خرج من مرجل الطبيعة البدائي ولا يزال يحمل حروق وجروح ذلك الحريق ... وعلى رقعة صغيرة من الأرض ، تقع سقط وقد سطعت بيوتها المكسوّة بالجص ، برقة على الطبيعة الكبيرة مثل جناح طير البحر وهو يصارع العاصفة» .

لم يعرف الغرب كثيراً عن مسقط حتى عام ١٥٠٧م عندما وصل إليها أوفونسو البوكيريك Afonso d'Alboquerque المعروف ليطالب بحضورها لحكم الملك البرتغالي مانويل ، ولم يكن لدى الأهلية استعداد للموت في سبيل حاكمهم ملك هرمز ، فسلموا بطريقة معقولة ، ومع هذا فقد تجمعت قوات معارضة للاحتلال فيما يليه ، فما كان من البوكيريك الذي لا يتردد أبداً عن القتال ، إلا أن اقتحم المدينة وأمطّرها بوابل من النيران وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى ثم قطع أنوف وأذان من لم يكن بحاجة إليهم وأطلق سراحهم ، هذا وقد تبلور التأييد الريادي لهذا النوع من الجهاد المقدس بمعجزة ، وهي سقوط المسجد ، على رءوس الرجال ، الذين كانوا يقطعون أعمدته غير أنهم نجوا بدون إصابات .

النمر ، حتى أن شرب القهوة أو الشاي تعتبر من المكروهات ، وكل من يصبح مدافعاً عن هذه المشروبات وينصح باستعمالها كأشياء مناسبة للمعدة وترشح الصدر وتذهب الهم والكآبة ، فإنه سوف ينظر إليه على أنه فاجر مستهن بشرعهم ومحرض على التحرر والفساد» ، وعلاوة على ذلك، «فإن الضعفاء في حماية من العنف والقصوة المفرطة من قبل سادتهم ، فلا يمكن لمسيء محب للانتقام ، أن ينفس عن غضبه ، كما يهوى في خادمه ، ولا تثنن أن يضرب ويهاقظ متبناه ، كما يهوى ، كما أن الحكومة نفسها تتغاضر سفك الدماء وكان الجرمون على نذرتهم يحبسون ويقضون حياتهم بين الجدران».

إنها بلا شك صورة بد菊花 رسمها لنا أوفنجتون ، ولكن من المؤسف حقاً أن نعلم ، استناداً إلى ما ذكره الكابتن الكساندر هامilton Alexander Hamilton ، بأنّ أوفنجتون لم يذهب إلى مسقط ، وأن كل ما كتبه هو نقل عما سمعه من بعض الناس في الهند ، ومع هذا فإن هامilton أعرب عن إعجابه بحضارة أهل مسقط وتواضعهم ، وقد أكد ذلك كل من زار تلك البلاد فيما بعد ، ما عدا شخص واحد طلب منه أن يكتب تقريراً عن طبائع أهل مسقط وأخلاقهم فوصفهم بأنهم لا خلق عندهم وأن طبائعهم ووحشية ، وقد علق الكتاب المتأخر عن أمانتهم ، حيث ترك كمية كبيرة من البضائع في الشارع دون حراسة ، وليس هناك من يجرؤ على سرقتها .

ما بين عامي ١٧٢٠ و ١٧٤٠ عاشت مسقط حرباً أهلية طاحنة ، أدت إلى احتلال الفرس لها ، واستمروا في احتلالها حتى عام ١٧٤٤ عندما قام حاكم محلی اسمه أحمد بن سعيد ، بعمل ولية ودعا أفراد الحامية الإيرانية لحضورها ، وما أن اجتمع الجنود لتناول طعامهم حتى انقض عليهم رجاله ، [وهكذا انتهى حكم الإيرانيين] ، وأنه أثبت بذلك أخلاصه لوطنه ، فقد اعترف به كإمام ، وما زالت عائلته تحكم إلى يومنا هذا .

وتحت حكم أحمد القوي ، تحقق للبلاد الاستقرار ، وأقامت صلات مع أوروبا خاصة بريطانيا ومستعمرتها الهند . إن صلات عمان مع الهند كانت على الدوام قوية ،

وقد أتاح طرد البرتغاليين الفرصة لمنافسيهم الإنجليز والمولديين [لحماولة السيطرة على الميناء] ، وببدأ ذكر مسقط يرد كثيراً في كتابات الرحالة ، واشتكى أكثرهم من شدة الحر فيها ، إلا أن أحداً منهم لم يستطع أن يزد على ما قاله كاتب فارسي في القرن الخامس عشر حيناً ذكر أن سهولاً قد امتلأت بغزلان مشوية ، بينما كانت الطيور المشوية تساقط من الجو كما أنه كان بالإمكان أن تعرف من البحر سيكاً مغلياً وقال كثيرون إن البيض أو السمك ، يقل على الصبور ، وأن موازين الحرارة كانت تتفجر ، وكتب [بحار إنجليزي اسمه] جون فراير John Fryer بلغة إنجليزية راقية تمثل لغة عصر إعادة الملكية «Restoration» ، فقال : «وفي الليل شاهدنا مسقط حيث جبالها الشاهقة والخيفـة ، التي لا يمكن لظلل سوى السماء أن يخفـها ، بالرغم من أنها تغطي المدينة بظلـال مرعـبة ، وعند الغروب تعـكس من تلك الجبال نار حـامية نحوـنا ، كما تـعكس تلك النار على ظـهر السـفينة وفي كـنف هذه الجـبال المـلتهـبة يجد الـبحـارـة مـأوى آمنـا لـسـفـنـهمـ المـتـهـلـكةـ»، وبعد بـضـعـ سـنـواتـ كـتـبـ هـولـنـديـ عنـ غـلـيانـ المـراـجـلـ وكـيفـ أنـ أـصـحـابـهـ كانواـ يـقـضـونـ نـهـارـهـمـ غـائـصـينـ فيـ مـاءـ الـبـحـرـ [هـرـبـاـ مـنـ الـحـرـ]ـ وـفـيـ الـقـرنـ ١٩ـ لـخـصـ أـحدـ الـبـحـارـةـ المـوـضـوـعـ بـقولـهـ : «إـنـ مـاـ يـفـصـلـ جـهـنـمـ عـنـ مـسـقـطـ ؛ـ هـوـ صـحـيـفـةـ مـنـ الـورـقـ الـبـنـيـ ،ـ وـمـعـ هـذـاـ ،ـ هـنـاكـ صـورـةـ جـمـيـلةـ عـنـ مـسـقـطـ ،ـ نـقـلـهـ الـقـسـ أـفـنجـتونـ Ovingtonـ فيـ تـقـرـيرـهـ المـنشـورـ عـامـ ١٦٨٩ـ وـقـدـ كـتـبـ مـقـدـمـتـهـ شـاعـرـ الـبـلـاطـ ،ـ نـاحـومـ تـاتـ وـالـذـيـ يـسـتـحـقـ تـسـجـيلـهـ هـنـاكـ حـفـظـاـ لـهـ مـنـ النـسـيـانـ :ـ «...ـ الشـكـرـ وـاجـبـ ...ـ مـنـ أـبـنـاءـ بـرـيطـانـياـ صـدـيقـتـكـمـ الـكـادـحةـ ...ـ الشـهـرـةـ الرـفـيـعـةـ لـكـتابـكـ الـقـيمـ الـذـيـ سـيـحـتـلـ الـمـكـانـ الـلـائـقـ بـهـ فـيـ مـكـتـبـ الـبـوـدـلـيـ مـقـرـ عـرـائـسـ الـشـعـرـ»ـ (٤)ـ .ـ

وكتب أوفنجتون عن عدل أهل مسقط واعتدالهم قائلاً : «يتميزون اليوم عن الأقوام الآخرين في العالم بشيء ، فلا يوجد أحد كما يقول ، أكثر منهم ابتعداً عن شرب

(٤) مكتبة البودل في مدينة أكسفورد وتعرف بالبودليان وقد أسسها السر توماس بودلي بعد استقالته من الحكومة وافتتحها باللغة كتاب وذلك في عام ١٦٠٢ . والكتابول مني البرلأن في روما ، وأما عرائس الشعر فتطلق على أسطورة إغريقية وهن عبارة عن تسع شقيقات كن يعنين الغناء والشعر والفنون والعلوم عند الأغريق وأصبحت كلمة عروس الشعر تعنى المصدر الإلهامي للشعراء (المترجم) .

على ظهرها عدد من الخنازير كجزء من طعام البحارة فرأى الإنجليز أنه من الواجب إبعاد هذه الحيوانات الوسخة عن مرأى الحاكم المسلم ، فوضعت في قوارب صغيرة ، إلا أن الخنازير لم تفهم الغرض من ذلك فأحتجت بصياغها الذي ردت الجبال صداتها مما جعل سماعه ممكناً في كل أنحاء مسقط .

وفي السنوات الأولى من حكم السيد سعيد كان هناك شخص غريب وغامر ، عمل في خدمته وإسمه فنسنزو موريزي Vincenzo Maurizi ويعرف بين الأهل بالشيخ منصور وقد تولى منصب القائد العام ومنصب الطبيب الخاص للسلطان ، ويدرك موريزي في مقدمة كتابه تاريخ السيد سعيد History of Seyd Said ، إنه ولد في روما ولكنه ترك إيطaliا حتى لا يتورط في التزاولات المحلية التي أعقبت الثورة الفرنسية ، وعندما كان في القسطنطينية عمل كطبيب لقائد البحرية التركية واشترك في معارك بحرية ضد الروس بعد ذلك تمرن في القاهرة واليمن قبل أن يصل إلى مسقط وقد رسم صورة مقبولة عن العثمانيين وخصوصاً عن السيد سعيد الذي أقام ولية وصفها موريزي بقوله : «... فرشت قطعة كبيرة من القماش على الأرض ، ووضع عليها عدد كبير من الصحون الصينية الفاخرة احتوت على خمسين دجاجة وطيراً مشوياً ، ولحم ملفوف بورق العنبر أو بورق البنجر ، الذي يزرع مع الكربن والسبانخ ، في معظم المذاق ، واشتملت المائدة كذلك على صحون مليئة بصلوع الطأن وغيرها ووضع في الوسط صحنان كبيران من الخشب فيما خروفان كاملان مشويان ومحشوan بالرز ، بالإضافة إلى كل هذه الأنواع اللذينة من الطعام كانت هناك كمية كبيرة من البلao^(٢٦) » ، وبعد كل ذلك فإن الواحد يندهش عندما يقرأ «أن البدانة المفرطة ، ليست معروفة بين العرب» وقد انتهت الأمسية بتوزيع الفاكهة وبالألعاب الجماعية .

ويخبرنا موريزي ، أنه كان يوجد في مسقط عدد من السحراء بإمكان الواحد أن يقلب إنساناً إلى عنزة ، لهذا فإنه يجب على من يريد شراء عنزة من السوق أن

(٢٦) البلao : طعام هندي يتكون من الأرز واللحم والتوايل وبدون الصنف الأسرع لا يسمى «بلao» (المترجم) .

لأن عمان شبه جزيرة ، فالبحر يحيط بها من ثلاث جهات ، بينما تحتل صحراء الربع الخالي معظم الجهة الرابعة ، وهذا اتجهت أنظار العثمانيين إلى الإيرانيين والبلوشيين على أنهم أقرب من العرب من ناحية الجوار ، وقد جعلت الظروف الطبيعية المحيطة بعمان ، من سكانها لأن يكونوا أفضل البحارين في المنطقة ، وقامت مسقط بدور المركز التجاري لتوزيع كل السلع التجارية تقريباً للم الخليج .

وأصبحت سفن البحرية البريطانية تزور مسقط مراراً ، ومن أوائل هذه السفن المسماة «سيپورس» أو «حصان البحر» وقد رحلت إلى هناك في عام ١٧٧٥ وكان من ضمن الضباط الذين على ظهرها ضابط شاب اسمه هوراشيو نلسون Horatio Nelson^(٢٧) وقد جرت العادة على أن يكتب بحارة كل سفينة ؛ أسماءهم على صخور المرفأ المشرفة على المدينة ، فأصبحت بذلك سجلاً محفوظاً ، وقد وثقت هذه العلاقة بالمعاهدة البرمية في عام ١٨٠٠م وكانت أول معاهدة من نوعها بين سلطنة أورية وحاكم عربي وقد نصت المعاهدة على : «... استمرار الصداقة بين البلدين إلى أبد الآدرين وحتى يتوقف القمر وتتوقف الشمس عن الوران» والأهم من ذلك أن يبقى في مسقط مثل دائم للحكومة البريطانية ، وقد تحمل أول مثل بريطاني الطقس لأقل من سنة ، بعدها أصبح الموت محققاً للإنجليز إذا هم حاولوا البقاء هناك في فصل الصيف .

تميز تاريخ [عمان في] النصف الأول من القرن التاسع عشر بشخصية السيد سعيد بن سلطان الذي تقلد الحكم في عام ١٨٠٧م بعد أن قتل ابن عميه غدرًا ، وكان يطمح للسيطرة على الساحل الشرقي لأفريقيا وتجارته ، وهذا كان في حاجة للصداقه البريطانية . وقد استقبل عدداً من الزوار الإنجلزي وكان يلجم عادة إلى ملاطفتهم ومحاولة استئثارهم بأخلاقه الحسنة وذلك برد الزيارة عليهم وهذا قد يسبب بعض الإحراج ، فحدث مرة في عام ١٨٣٣م أن أُعلن عن رغبته في زيارة سفينة بريطانية كانت راسية في الميناء وكان

(٢٧) هوراشيو نلسون : قائد بحري بريطاني اشتهر بعد انتصاره في معركة الطرف الأغر ضد الأسطول الفرنسي - الأسباني وقتل في نفس المعركة عام ١٨٠٥م (المترجم) .

باستقبال السيدات في عدة مناسبات ، وكانت أولاهن فيما يبدو ، سيدة [إنجليزية] اسمها ميجنان Mignan ، ففي عام ١٨٢٥م اجتازت هذه المرأة ثلاثة [أبواب ذات] أقفال ، طول كل منها قدم ، ثم لمل سكن الحريم الذي كان تحت حراسة خادمين وسبعين من الخصيان ، ووصفت ما ارتدته الأميرة من الملابس والخل ، فقالت : «... قطعة من حجر الزمرد في حجم بضة الحمام ، بينما غطى اللؤلؤ والماس يديها وقدمها وكانت لابسة ساتاناً ارجوانياً مطرزاً كما لست شيئاً مخيفاً [برقع] يشبه نظارات عريضة الحواف ولكنه مصنوع من قماش قوي مشغول بأناقة ومطرز بالذهب ، ولا تزال السيدة العمانية تلبس هذا القناع حال بلوغها سن الرشد حيث لا يراها أحد بدونه حتى والدتها».

لم يشاهد الأوروبيون حتى الآن ، سوى القليل فيما وراء مدينة مسقط ، ولكن السنوات الأولى من القرن التاسع عشر جعلتهم على صلة قوية بالساحل الشمالي ، والسبب في ذلك هو ازدياد عمليات القرصنة وبالأخص بعد أن أخذت قبيلة القواسم في رأس الخيمة بتعاليم الوهابية في العقد الأخير من القرن الثامن عشر ، وقد أصبحت القرصنة مقتنة بالجهاد ، فهاجمة الكفار أصبحت أمراً واجباً ومن الاعتقادات السائدة بين قراصنة الساحل ، أن سرقة الأحياء تعتبر حراماً ، لهذا كانوا يقطعون حناجر معظم أسرهم ، وقد قال عنهم جورنائهم : «... صنعتهم القرصنة وسعادتهم تم بالقتل ... إنهم وحوش مرعبة»^(٧٩).

وقد ازدادت هجماتهم (...) ولم يكن حظ بعض الأسرى حسناً ، فقد قطع جسد أسير بريطاني إرياً إرياً ورميت هذه القطع على ظهر السفينة ، بينما هناك شخص آخر قطع ذراعه ولكنه نجح في وقف النزيف بأن غمس الجزء الباقي منها في زبدة حارة .

(٧٩) تهمة القرصنة التي ألقها الغربيون بالقواسم ، نوقشت في دراسة موئلها قام بها الدكتور سلطان بن محمد القاسمي (حاكم الشارقة) ونشرت بالإنجليزية تحت عنوان «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» دحض فيها الباحث تلك المزاعم (المترجم) .

يتأكّد أولاً من أنها ليست بشراً انقلب على يد أحد هؤلاء السحرة ، وتاكيداً لزعمه هنا فقد ادعى بأن خادمه قابل مرة عنزة تكلمت معه باللغة العربية !! ومن الجائز أن يكون موريزي من أوائل الأوروبيين الذين تحولوا في المناطق الداخلية ، ولكن لسوء الحظ فإن الجزء الثاني من كتابه لم ينشر . وانتقل موريزي بعد ذلك إلى بغداد ومارس فيها مهنة الطب ، ثم سافر إلى كردستان ، واشغل قائداً لمدفعية أحد الأمراء الإيرانيين ، وأسر من قبل الروس في أذربيجان ، إلا أنه أطلق سراحه بعد فترة قصيرة ، واستمر في رحلاته ، وقد ألح في مذكراته إلى أنه قام بمهام سرية في طهران ، بعد ذلك اشتغل في كل من الهند والبرازيل ، ثم عاد أدراجه إلى أوروبا ، وعاش فيها متسكعاً .

في عام ١٨٣٥م استقبل السيد سعيد أول بعثة أمريكية إلى الجزيرة العربية ، وقد جاءت هذه البعثة تحت قيادة إدموند روبرتس Edmond Roberts على ظهر مدمرة كانت قد مررت ببعض المصاعد في مصرية^(٧٧) ، مما أضطر ربانها إلى إلقاء كل المدافع التي كانت تحملها في البحر كي يخفف من وزنها ، وقد كسب السيد سعيد اعتراف ربان السفينة بفضله عليه عندماتمكن رجاله من إخراج كل المدافع من البحر دون أن تصيب بخطب ، وقد أظهر الأمريكيون جهلهم في مجال الرحلات ، فقد صدقوا بدون مناقشة ، كل ما قاله السيد سعيد عن البدو الذين يقاتلون من داخل حفر يحفروها في الرمال ويدفنون أنفسهم فيها ، ثم يشهرون سيفهم فوق رؤوسهم ، ويعتقد الأمريكيون مثل كثيرين غيرهم من سبقوهم بأن طريقة الأهالي في إعداد الطعام ، غير صحيحة وقد كرهوا بالأخص ، طريقة تحضير الحلوي «بواسطة أقدام الزنج الحافية والمبللة بالعرق» على حد قوله^(٧٨) .

لم يكن السيد سعيد وحده الذي استقبل الزوار الأوروبيين ، فقد قامت زوجته ،

(٧٧) جزيرة في بحر العرب (المترجم) .

(٧٨) هذه اشارة فيما اعتقد إلى طريقة حزن التمر وتلك طريقة كانت شائعة ، فيما يبدو ، في أماكن أخرى من الجزيرة العربية حيث توضع الأصناف غير الجيدة من التمر فوق الحصر ثم يرش بالماء ويترك لبعض الوقت تحت الشمس ثم يدك بالأقدام ثم يعنق في أكياس مصنوعة غالباً من خوص النخل (المترجم) .

وبسبب عدم توفر القنابل فقد كانت ذخورتها من الحجارة وقطعاً من الحديد ، وما أثار دهشته أيضاً ، توفر الخضراء والمنتوجات الزراعية في البريمي ، فوجد البرتقال والتين والزيتون والرمان ، بالإضافة إلى أشجار النخيل الجميلة وحقول الخنطة ، وقد اعتمدت الزراعة على نظام ري يتالف من قنوات تجري تحت سطح الأرض ، تخللها بعض الفتحات للتهوية وللسماح لعمال الصيانة بالنزول من خلاها ، وكان البعض منها يمتد إلى مسافات طويلة جداً ، وواحدة منها قيل إنها تندى إلى مسيرة أربع عشرة ساعة من البريمي ، ويعتقد بعض الناس أن نظام الري هذا قد بُني من قبل الملك سليمان ، إلا أن المؤرخين يرجحون كثيراً ، الفكرة القائلة بأن الفرس هم الذين قاموا بمحفر تلك القنوات^(٨٠) .

حاول البريطانيون التوغل في المناطق الجنوبية لسقوط ، ولكن نتائج تلك المغامرة كانت وخيمة ، فلقد أنيطت مهام قيادة القوات البريطانية ، التي حاربت القرصنة إلى الكابتن برونت تومسون Captian Thompson ، والذي بدوره اقتباع باقتراح السيد سعيد ، في أن يستعمل قواته لشن هجوم على قبيلة «بني بو علي» . وفي نوفمبر من عام ١٨٢٠ تم إعداد حملة تألفت من خمسة رجال ، منهم ثلاثون بريطانياً ، مع فافلة للعتاد والأمتدة ، تكونت من ستة جمل وثلاثة رأس من الماشي ، وببدأت الحملة مسيرتها من بلدة صور ، متوجهة نحو الداخل ، وبالرغم من أن الحملة استعملت أحدث الأسلحة مع ما ساهم به السيد من القوات المجندة ، إلا أنها باءت بالفشل النريع أمام سيف رجال القبيلة وقد قتل في المعركة سبعة ضباط بريطانيين وثلاثة رجال . وفي يناير ١٨٢١م جهزت السلطات البريطانية قوة عسكرية أخرى تألفت من ١١٧ ضابطاً بريطانياً ، و ١٢٣ بريطانياً من ذوي الرتب الأخرى ، و ١٦٨٦ من السباهية^(٨١) ، وقد حارب رجال قبيلة بني بو علي بشجاعة متناهية ، حتى أن أحد الضباط البريطانيين

(٨٠) لمزيد من المعلومات عن نظام الري هنا ، يمكن الرجوع إلى المقالة التي نشرها المترجم في مجلة «المصور» ص ١٩٩ - ٢١٢ (المترجم) .

(٨١) الساهي : هندي مجند في الجيش البريطاني (المورد ، ص ٨٣٦) - المترجم .

وقامت القوات البحرية البريطانية بحملتين ضد رأس الخيمة ، الأولى كانت في عام ١٨٠٩ والثانية في عام ١٨١٦ غير أنه لم يكن لها تأثير ، وكانت الخسائر الوحيدة في الحملة الثانية هي موت بحار بريطاني بعد أن وقع على قفاه إثر صوت إطلاق أول قذيفة ، أما الحملة الثالثة في عام ١٨١٩ م ، فقد استطاعت كسر قوة القرصنة وعلى أثرها أقامت حامية من الجنود الإنجليز في رأس الخيمة لبضعة أشهر واحتذت أحد المساجد مكاناً يصفف فيه الجندي للاستعراض .

لقد كانت المعاهدة العامة للسلام في عام ١٨٢٠ فاتحة عهد جديد في الخليج الذي تغير اسمه ، من ساحل القرصنة إلى الساحل التصالح وقد أصبحت زيارات الضباط البريطانيين إلى هناك أمراً مألوفاً وكان من أوائل هؤلاء الملازم وايتلوك Whitelock الذي وصف مباريات المصارعة بين البحارة وبين العرب ، وقال عن العرب : «إن غطاء رؤوسهم يتدلل كثيراً على جيابهم مما يضفي رهبة على ملامحهم القاسية التي تتناسب جداً مع شخصياتهم» ، وعلى أي حال ، «فإنه قلما تسمع عن شجار بينهم فكباد السن موضع احترام عندهم ، أما كرمهم فيضرب به المثل ، وأما أخلاقهم فهي قاسية ، وأي شيء تأبه أو يقال على سبيل المثال الدكته أو الدعابة ، فإنه لا يتقبلونه ، إما نتيجة لعدم الفهم أو لازدرائهم مثل هذه الأمور» ، ولكنني أقول كل كلمة لكل من استمع بالذكاء الفطري عند سكان دول الساحل التصالح وهذه الكلمة غريبة وهي : «ربما إن نكت وايتلوك ، هزيلة أو غير مستحبة» .

إن هذه الصلات مع هذا الساحل ، ما برحت كلها تقريباً مقتصرة على الزيارات عن طريق البحر ، وذلك لصعوبة الاتصال عن طريق البر بسبب وجود السبخة ، ويدو أن أوربياً واحداً فقط ، تمكن من الذهاب إلى الداخل قبل نهاية القرن وهو الكابتن إنكلز هامرتون Atkins Hamerton الذي ذهب إلى البريمي في عام ١٨٤٠ حيث بدأ رحلته من الشارقة ، وبعد مسيرة دامت أربعة أيام ، وصل إلى البريمي ، وقد أعجب بقلعتها التي تسيطر على الواحة كلها ، وكان في القلعة عدد من المدافعين ، لا يعرف أحد عن أصلها ،

لقد قضى ولستد وقتاً ممتعاً مع العرب ؛ أهل البلاد هناك فأكل ما يأكلون من لحم الأبل أو لحم الغنم المشوي ، وعلمه مضيقه لعبة القفزية ، وأعجب بصبر هؤلاء الناس وتحملهم للشدائد ، فذكر كيف أن رجلاً عجوزاً كان يقذف بنفسه ، ما بين آونة وأخرى ، من بيته ويتلوى على الأرض من ألم في بطنه دون أن يصرخ أو يبكي بكلمة . ويقول ولستد : إنه أعطاهم حبوب العنبر وحبوب الأفيون المخدر ، وكانوا يعتقدون إنها عقاقير مثيرة للشهوة الجنسية ، ومقابل ذلك ، أخذ هو عينة من خمرهم المصنوع من العنب والرمان ولكن لم يستحسنـه .

وبدأ ولستد رحلته بزيارة قبيلة «بني بو علي» حيث لقى استقبالاً ودياً من رجالها ، الذين استمعوا حقاً ، كما يقول ، بمنفاهـم ، ثم سافر بطريق دائري حتى وصل إلى الساحل في منطقة سيب Sib شمال مسقط مباشرة^(٨٣) ، وبعد أيام قلائل ، بدأ رحلة ثانية مع أربعة مراقبين وخمسة جمال ، وما ذكره عن طريقة اشتئجار تلك الجمال يعطينا فكرة عن قوة ملاحظته وقوته على سرد الحوادث ، فقال : «تبدأ المسامة عادة بأن يذكر أحد الطرفين ، وبصوت خافت سعراً يصل إلى عشرة أضعاف سعر السلعة الفعلـي ، أو السعر الذي يتوقع حصوله عليه من الطرف الآخر ، وليس هناك من جواب سوي سخرية أو دهشة [تظهر على وجه الطرف الآخر] ، وبالتدريج تصبح المسامة أكثر جدية ويغير الطرفان مكان جلوسهما إلى مكان آخر ، ولربما تسمع «علي» يصبح بصوته عالياً على النـطرف المعارض له وأحياناً أخرى يتشارون بصوت منخفض ، كما لو كانوا خائفين أن ينقل الهواء بعضاً من تشاروهاـ، وبصـعوبة تـمكـنت من سـياعـ نـغمـات صـوـتهـ وهو يـحاـولـ استـهـالـةـ قـلـبـ صـاحـبـهـ ، بالـتأـيـبـ وـالـتعـيـفـ تـارـةـ ، وـبـالتـوـسـلـ تـارـةـ أخرىـ ، وـفـيـ نـهاـيـةـ الـأـمـرـ حـاـولـ الـانـصـرافـ وـهـوـ مـسـتـشـيـطـ غـضـباـ منـ جـشـعـ الـطـرفـ الآـخـرـ إـلـاـ أـنـ بـعـضـ الـحـاضـرـيـنـ ، يـعـيـدـهـ إـلـىـ مـكـانـهـ ، حـيـثـ يـتـكـرـرـ نـفـسـ الـمـشـهـدـ حـتـىـ تـمـ الصـفـقـةـ .

كان ولستـدـ يـأملـ فيـ الوـصـولـ إـلـىـ نـجـدـ إـلـاـ أـنـ فـشـلـ فـيـ تـجاـوزـ مـاـ وـرـاءـ مـدـيـنـةـ

(٨٣) سـيـبـ : أحدـ المـاطـقـ التـابـعـةـ لـحـافـظـةـ الـعـاصـمـةـ وـيقـعـ فـيـ مـطـارـ السـيـبـ الدـولـيـ (ـالمـتـرـجـمـ)ـ .

قطعـتـ فـرـسـهـ إـلـىـ نـصـفـيـنـ مـنـ أـثـرـ ضـرـبةـ سـيفـ وـاحـدةـ ، وـلـكـنـ المـعـرـكـةـ اـتـهـتـ بـخـسـارـةـ قـبـيـلةـ بـنـيـ بـوـ عـلـيـ ، وـأـرـسـلـ رـجـالـهـ مـؤـقاـلـاـ إـلـىـ المـنـفـىـ ، وـقـدـ تـعـلـمـ الـبـرـيطـانـيـوـنـ مـنـ تـلـكـ المـعـرـكـةـ ، درـساـ لـمـ يـنـسـوـهـ أـبـداـ خـالـلـ وـجـودـهـ فـيـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ ، وـهـوـ أـنـ لـاـ يـغـامـرـوـاـ فـيـ إـرـسـالـ حـمـلاتـ بـرـيـةـ عـسـكـرـيـةـ ، دـاخـلـ الـجـزـيرـةـ تـبـعـدـ أـكـثـرـ مـنـ مـسـافـةـ الـمـدىـ الـذـيـ تـصـلـ إـلـيـهـ قـدـائـقـهـ الـبـرـيـةـ ، وـقـدـ اـسـتـمـرـتـ هـذـهـ السـيـاسـةـ لـمـدةـ قـرنـ وـنـصـفـ .

لمـ توـفـرـ هـذـهـ المـغـامـرـاتـ الـمـحـدـودـةـ سـوـيـ قـلـيلـ مـنـ الـمـلـوـمـاتـ عـنـ الـمـنـاطـقـ الـدـاخـلـيـةـ لـعـمـانـ وـلـكـنـ تـقـدـمـاـ كـبـيـراـ فـيـ هـذـاـ الـمـحـالـ قـدـ تـمـ فـيـ عـامـيـ ١٨٣٥ـ وـ ١٨٣٦ـ مـنـ خـالـلـ الـرـحـلـةـ الـاـسـتـكـشـافـيـةـ الـنـيـ قـامـ بـهـ جـيمـزـ رـايـمـونـدـ وـلـيـسـتـدـ ، وـكـانـ وـلـسـتـدـ ضـابـطاـ بـحـرـيـاـ [ـبـرـيـطـانـيـاـ]ـ اـشـتـرـكـ فـيـ مـسـعـ الـمـنـاطـقـ السـاحـلـيـةـ لـلـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ ، وـمـنـ الـمـحـتمـلـ أـنـ يـكـونـ أـوـلـ مـنـ نـسـخـ الـكـتـابـاتـ الـجـمـيـرـيـةـ الـتـيـ اـكـتـشـفـهـاـ فـيـ حـصـنـ الـغـرـبـ ، وـقـدـ شـجـعـهـ السـيـدـ سـعـيدـ عـلـىـ اـهـتـامـهـ بـالـرـحـلـاتـ ، وـأـهـدـاهـ حـصـانـاـ عـرـبـيـاـ أـصـيـلـاـ وـجـمـوـعـةـ مـنـ كـلـابـ الصـيدـ ، وـسـيـفـاـ مـذـهـبـاـ ، بـإـلـاـضـافـةـ إـلـىـ أـنـ تـرـعـ بـدـفـعـ كـلـ نـفـقـاتـ الـرـحـلـةـ ، وـكـانـ وـلـسـتـدـ مـنـ أـوـلـ الـذـيـنـ اـكـتـشـفـوـاـ جـمـالـ الـمـنـاطـقـ الـجـبـلـيـةـ فـيـ عـمـانـ وـقـدـ كـتـبـ يـصـفـ مـدـيـنـةـ Minnaـ : «... أـشـجـارـ اللـوـزـ الـبـاسـقـةـ ، وـالـحـمـضـيـاتـ وـأـشـجـارـ الـبـرـقـالـ وـقـدـ اـنـتـشـرـتـ بـأـنـمارـهـ الـذـيـنـ عـلـىـ الـجـانـبـيـنـ ، فـتـسـاءـلـنـاـ مـعـ أـنـفـسـنـاـ مـنـدـهـشـيـنـ وـمـعـجـيـنـ : هلـ هـذـهـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ حـقـاـ؟ـ وـهـلـ هـذـهـ يـاتـرـىـ الـبـلـادـ الـتـيـ عـرـفـنـاـهاـ كـصـحـراءـ جـدـباءـ؟ـ .. لـقـدـ اـمـتـدـتـ أـمـامـنـاـ حـقـولـ الـخـنـطةـ وـمـزـارـعـ قـصـبـ السـكـرـ إـلـىـ أـمـيـالـ ، وـالـمـيـاهـ تـجـرـيـ فـيـ كـلـ اـتـجـاهـ فـنـقـاطـتـ مـعـ طـرـيقـنـاـ ، وـمـاـ أـضـفـيـ عـلـىـ الـنـظـرـ بـهـاءـ ، الـابـتـسـامـةـ الـتـيـ اـرـتـسـمـتـ عـلـىـ وـجـوهـ الـمـزـارـعـينـ الـذـيـنـ مـرـرـنـاـ بـهـمـ ، حـتـىـ أـنـتـيـ اـعـتـقـدـتـ بـأـنـ مـاـ أـرـأـهـ أـمـامـ عـيـنـيـ هـوـ الـعـرـبـيـةـ الـمـلـارـكـةـ ، الـتـيـ أـلـفـتـ عـلـىـ أـنـهـ جـالـتـ فـقـطـ فـيـ خـيـالـ شـعـرـائـنـاـ»ـ ، إـنـهـ لـيـسـ جـمـالـ الـطـبـيـعـةـ وـجـهـ ، الـذـيـ أـثـارـ إـعـجـابـ وـلـسـتـدـ بـلـ وـأـيـضاـ : «ـجـمـالـ السـيـدـاتـ وـجـبـنـ لـلـضـحـكـ وـالـرـحـ الذيـ لـمـ أـعـهـدـهـ مـنـ قـبـلـ»ـ .

(٨٢) تـقـعـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـدـاخـلـيـةـ مـنـ عـمـانـ (ـالـمـتـرـجـمـ)ـ .

على وصف رحلته من بغداد إلى دمشق ويتحدث فيه بصفة المتكلم مع أنه لم يقم بذلك الرحلة وإنما قام بها صديق له ، أما قصته عن كيفية نجاته من موت حقيق على يد جماعة من المتعصبين في دمشق بسبب علاقات حب فاشلة مع فتاة أفريقية وأرملة مسلمة ، فهي على ما يبدو خالية تماماً .

ومهما كان ، فإن وصف ولستد ، لجزيرة سوقطرة وساحل الحجاز ، لذو أهمية ، فقرب مدينة ينبع لاحظ ما يلي : «... من عادة الأهالي هنا أن يعملا شروحاً في أ骸اهم ، ثم يقربوها من النار ، ويشربوا أكواباً من القهوة مضافاً إليها كميات من التوابل والقلفل ... إنهم يعتقدون أن هذه العملية هي أحسن علاج للوقاية من تأثير البرد»^(٨٥) .

لقد كانت نهاية حياة ولستد أليمة ، فقد رجع إلى مسقط في عام ١٨٣٧ م ، وبينما كان تحت تأثير هذيان الحمي أطلق رصاصتين في داخل فمه ، وإن لم تقتله حالاً إلا أنه مات بعد سنوات قلائل ، وكان عمره آنذاك سبعاً وثلاثين عاماً .

ترفي السيد سعيد في عام ١٨٥٦ م وساعات أحوال مسقط بعده ، فضعف مركز المرفأ التجاري بعد أن جاءت السفن المتركرة بقوة البحار لتحمل محل مراكب الدهو العمانية^(٨٦) ، وذكر زائر لمسقط في العقد الأخير من القرن التاسع عشر إن أخاء كثيرة من المدينة أصبحت خرائب ، وما زاد الطين به ، الحرب الأهلية التي أثارها الأباشيون المحافظون من سكان المناطق الداخلية ، الذين ساءهم التغير الذي طرأ على أبناء عمومتهم

(٨٥) يدور لي أن الأهالي لا يخدتون هذه الشروخ في أقانيمهم بأيديهم بل تحدث تلقائياً في العقب أثناء الشتاء خاصة عند الفلاحين والقرويين الذين لا يخرون على الانتعال وتدفعه أقانيمهم ، فيذهب بعضهم هذه الصدوع بالشحوم ويعرضونها لحرارة النار لإذابتها ، وأما اضافة التوابل إلى القهوة ، فكثير من الناس هنا ، حتى يومنا هذا ، يضيفون مسحوق الرنخيل إلى أكواب الشاي أو الحليب الحار ، ومسحوق القلفل الأسود إلى المرق ، علال أيام البرد (المترجم) .

(٨٦) الدهو : مركب شرائي مألف في شرطاطي ، الجزيرة العربية وشرق أفريقيا (المورد ، ص ٢٦٩) - المترجم .

عربي^(٨٤) ، فقد وجد الأهالي يكرهون النصارى وعارضوا بشدة وجوده هناك ، لدرجة أن المترجم الإبراني المرافق له ، كا يقول ، كان يرتعش من الخوف ، بالرغم من أن طوله يبلغ ستة أقدام ، وممليء الجسم بشكل مناسب مع طوله ، حتى أنه من شدة خوفه أصبح بنوبات من الإنفجار العاطفي ، وتعرض ولستد للترجم بالحجارة وأُجبر على النكوص على عقبه إلى الساحل ، وهكذا مر جيل كامل بعد ذلك قبل أن يستطيع أوربي آخر التوغل بعيداً في المناطق الداخلية مرة أخرى .

لقد تحلى ولستد بميزة مهمة لأي رحلة ، وهي تفهمه لطبعات وأخلاق الأقوام التي مر بها وتعاطف معهم ، ولاحظاته كانت على الدوام دقيقة ، فنراه يصف أهل الواحات فيقول : «... عزيزي النفس ، ذوي روح عالية ، فهم أقل فساداً أو انحصاراً من بقية مناطق الجزيرة العربية ، التي انتقل سكانها من مرحلة الرعي إلى مرحلة الزراعة ... كرماء ، شجعان ، يكرمون الضيف ، ومع هذا فإنهم في نفس الوقت سريعوا الغضب ، ويعبون الانقسام» وما أثار إعجاب ولستد ، شخصية البدوي ، فقال عنه : «... لو قارنا أخلاقه وطباعه ، بصفة عامة مع تلك التي يملكونها جيرانه ، لوجدناها تتفق شائحة أمامهم ، فوطنيته واستقلاليته يجعله أسمى روحًا من الفارسي الذي يرزح مثل العبد تحت جبروت وطغيان الحكم ، كما أنه بتفوقه بالقدرة الجسمية وبجرأته وشجاعته ، يقف في المقدمة أمام الهندى ، الهادي ، اللطيف ، والضعيف ، ودون ما يؤمن البدوي بأنه أعلى عناصر البشر وأفضلها .

لقد تنقل ولستد في أحسن الظروف والأحوال وذلك بمساعدة من السيد سعيد ، ولا شك في أن ما جمعه من معلومات في عُمان ، تمثل في أهميتها تلك المعلومات التي جاء بها نبيور عن الين ، واعترف ولستد بأن معرفته باللغة العربية ، كانت ضعيفة ، ومن المؤكد أنه ارتكب أخطاء بسبب عدم فهمه لما يقوله الناس له ، كما أن خرائطه لم تكون دائماً صحيحة ، ولم يكن كريماً مع رفاقه في السفر ، ومعظم كتابه الثاني يشتمل

(٨٤) تقع في الشمال على بعد ١٥٠ كم تقريباً من حدود العين (المترجم) .

صحبوا في سفره ، رفضوا الأكل من المعلبات التي جلبها معه ، وفضلوا اصطياد سحلية وطبخها مع الأرز ، وقد امتدح كرم الناس وسماحتهم ، حيث سمح له بالجلوس في المسجد بل وسمح له حتى بـالقاء مواعظه هناك ، ثم وصل زويمير إلى باطنه^(٨٧) على ساحل عمان ، وقال بأن مصاريف رحلته ومن ضمنها مصاريف المرافقين ، كانت تسعين دولاراً .

وبعد فترة قصيرة جداً من زيارة زويمير إلى البريمي ، جاءها بيرسي كوكس Percy Cox الذي كان في حينها ممثل بريطانيا في مسقط ، وقد اشتهر كوكس فيما بعد لكونه المسؤول السامي في العراق^(٨٨) ، وكان في صحبة كوكس أحد أبناء شيخ أبو ظبي ، وكان شاباً ذكياً ناقشه في مواضيع التكنولوجيا الحديثة ، وعن مدى امكانية عبور الجزيرة العربية بواسطة المنطاد ، وفي ذلك الوقت كان في نية ملاح جوي [إنجليزي] اسمه تكون Bacon الاستفادة من الرياح السائدة التي تهب من الغرب إلى الشرق ، في أن يقلع من السودان بمنطاد علىأمل أن يصل به إلى الخليج ، وكان هذا الرجل قد تمكّن من عبور البحر الإيرلندي بتلك الوسيلة وفي احدى المرات ، كاد أن يصطدم بكائنات إثنان بول [في لندن] .

واستمر كوكس في رحلته من البريمي بتشجيع من حكومة عمان وفي عدة مناسبات تعرض كوكس إلى إطلاق النار ، واكتشف أن العادة جرت على أنه إذا كان الشخص عدواً ، فإنه سيرد على النار بالمثل وإلا فعله أن يتوجه لها ، وعندما وصل إلى عربى وجد أن أهلها لا يتذكرون رؤية شخص بريطاني من قبل ، ولذلك فقد أصر الجميع على مصافحته ، ولكن في تونف^(٨٩) ، صادف كوكس على كل حال من يتذكر مايلز الذي كان هناك قبل خمسة وعشرين عاماً ، وقد ادعى أحد شيوخ البلدة أن السماء

(٨٧) الباطنة : منطقة في عمان ومن مدتها صحم وصغار (المترجم)

(٨٨) كان ذلك بعد الحرب العالمية الأولى وقبل الاستقلال (المترجم)

(٨٩) قرية تقع في المنطقة الداخلية وتشتمل على عدد من القوافل (الأفلاج) وفيها مصنع لإنتاج المياه الصالحة (المترجم) .

سكان الساحل نتيجة الاتصال مع الغرب ، وبسبب تلك الاضطرابات ، لم يذهب أحد من الرحالة إلى المناطق الداخلية بعد ولستد ، مما حدا بأحد الباحثين في عام ١٨٧٠ أن يشتكي من الوضع ومن الحكومة البريطانية في الهند فيقول : «... بالرغم من علاقتنا السياسية والتجارية مع عمان ، خلال القرن الماضي ، فإن معرفتنا بهذه البلاد ، باستثناء الساحل أقل من معرفتنا بمنطقة البحرات في أفريقيا الوسطى .

وعلى آية حال ، فإنه في الفترة ما بين عامي ١٨٧٢م و ١٨٨٦ ، كان الممثل البريطاني في مسقط رجلاً اسمه مايلز S. B. Mile الذي تحدثنا عن رحلاته إلى المناطق الداخلية في عدن ، وكانت معرفته باللغة العربية ممتازة وكانت اهتماماته متعددة ، فقد لاستطع مثلاً ، أن ذكر التخلق قد ينسو إلى ١٣٠ قدمًا طولاً ، وأن واحدًا يكفي لتلقيح ما يقارب من ٧٠٠ نخلة ، وتثال بعض ذكور التخلق سمعة من حيث الفحولة وطلع هذا النوع يساوي بضعة دولارات ، وتنثر التخلقة بشكل طبيعي عندما تبلغ ثمانية عشر عاماً وعندئذ يمكن أن يصل انتاجها من التمر إلى ٣٠٠ رطل في السنة .

اتبع مايلز في رحلته ، خطى سلفه ولستد فزار الأماكن التي زارها وفي أكثر من مرة صادف بعض كبار السن الذين تذكروا ذلك النصراوي الذي زارهم قبل أربعين سنة ، ومر مايلز بعمرى ولم يعترضه أحد وقد وجدها بلدة «قدرة ... كريبة الرائحة ، مزدحمة جداً بالبدو ، الذين كانت أجسامهم هزلة وكلهم مدججون بالسلاح» . وكان مايلز ثانى رجل أوربي يزور البريمي وأول من وصل إليها من جهة الشرق ، وقد أعجب ، مثل هامerton ، بمحضرة الواحة ، ولكن تقريره لا يحمل الصفة الرسمية ، فقد وصف النساء في البريمي فقال ؛ بأنهن يلبسن أحذية ذات كعب عالٍ ويقطعن رءوسهم بقماش أسود بدلاً من البرقع في مسقط .

لقد مضى ربع قرن بعد ذلك قبل أن يصل إلى البريمي زائر غربي آخر ، وفي هذه المرة كان الزائر رجلاً أمريكيًا اسمه الأب صامويل زويمير Samuel Zwemer ، وكان مبشرًا نصراوياً ، وقد وصل إلى البريمي قادماً من أبوظبي . وذكر بأن البدو الذين

الرواة^(٩٠) وكان من أوائل الزوار لهذه المنطقة ، بعض البحارة البريطانيين الذين وصلوا إليها قبل نهاية القرن السابع عشر بعد تحطم سفينتهم [قرب الساحل] وقد أكرمهم الأهالي وعاملوهم معاملة حسنة ، وقد علم البريطانيون فيما بعد أن زعيمًا دينياً قد تنبأ بوقوع الحادثة فأمر البدو بحمايتهم ، وقد أخذوا برأ إلى مسقط وكان طعامهم التمر وحليب الناقة ، وعندما أحسوا بالمرض اهتم الأعراب بهم وعالجوهم بالكى .

مع هذا فقد كتب أوفنجتون Ovington بعد سنوات من ذلك ، أن الظفاريين مؤذنون جدًا في معاملتهم التجارية ولؤماء مع الأجانب ، ثم مضى يصف ممارساتهم الدينية قائلاً «هم في حامسهم الشديد ، فإنهم لا يستحقون أحياناً من ادعاء الوحي وبخاصة عندما تتباهم صرعة الرقص ، وذلك لأن لديهم نوعاً من الرقص فيه من الجهد والحماس ، والفورة والعاطفة ما تدور به قواهم ، وما تخلصهم به حيوتهم أثناء هذه الحركات العنيفة ، وأخيراً عندما يستغلون طاقتهم يسقطون على الأرض كالموت ، وبينما هم كذلك وزرقة الموت تلتقطهم ، فإنهم يصيرون «الله أكبر» . ولكن وكما سبق أن رأينا فإننا للأسف لا نطمئن إلى كلام أوفنجتون [بسبب عدم زيارته لجنوب الجزيرة] .

ونسمع معلومات قليلة أخرى عن ظفار حتى الثلاثينيات من القرن الماضي عندما بدأت البحرية البريطانية بمسح سواحلها وكان من أفضل المعلومات التي وصلت حينئذ ، هي تلك التي كتبها الكابتن هاينز Haines الذي قابل رجلاً أمريكيًا من بين رجال القبائل ، حيث يقيم هناك منذ ثلاثين عاماً مضت ، بعد أن أسره القراءنة ، ودخل في دين الإسلام ، وتزوج من إحدى النساء هناك . وقد استمتع مع البدو بمشاهدة البريطانيين وهم يلعبون كرة الكركت على الرمال . ووصف هاينز سكان المنطقة ، وهم من قبيلة «القرا»^(٩١) ، أنهم نشيطوا الحركة ، يتسلّح أكثرهم بالعصى ، والتي إذا

قد أمسكت عن المطر منذ أن قام ذلك التصرّف بالتقاط الصور وطالب بتعويضه عن الخسائر التي لحقته في محاصيله الزراعية ، إلا أن كوكس رفض قبول دعوى كهذه . وبعد أن استقبلت البريسي زائرين في خلال ثلاثة سنوات ، توقفت الزيارات عنها بعد ذلك لمدة ربع قرن آخر حتى وصلت إليها بعثة التنقيب عن النفط في عام ١٩٢٥م ، وعندما زارها ولفرد ثسجر Thesiger في عام ١٩٤٨م وجدها في عزلتها كما كانت ووجد كذلك صعوبة الوصول إليها ما يبرّح قائمة إلا أن كاتب هذا الكتاب زارها في عام ١٩٧٠م في سفرة دامت ساعة واحدة من أبو ظبي بواسطة طريق بري مُعبد ومزدوج ، وشاهد هناك أساسات المبني المخصص لفندق هيلتون .

وفي عام ١٨٩٤م زار مسقط كل من ثيودور بنت وزوجته ميل ، اللذين تحدثا عنهما في الفصل السابق وقد استقبلهما السلطان الشاب ، ولاحظ في قصره وجود قفصين ، أحدهما يحتوي على مجرم والثاني على أسد . وفي نفس العام سكن في مسقط عدد من الأطباء الأمريكيين ، كجزء من بعثة تبشرية نصرانية ، وقد أعطى أحدهم واسمه بول هاريسون Harrison صورة مضحكة لحياة الطيب هناك ، فذكر أن أحد الشيوخ جاء لعلاج أسنانه وقد أحضر معه عبده الذي يجب أن يجرب الطيب مهاراته عليه قبل أن يفتح حضرة الشيخ فمه لتلقى العلاج ، ومرة جاء بدوي وترك حماره كمن بعض الأدوية ولكنه رجع بعد فترة وسرق الحمار بعد أن قامت البعثة بتسمينه . وقد قام هاريسون بعدة رحلات في المناطق الداخلية الممتدة على طول طرق الجبل الأخضر الشديدة الانحدار والتي سبق أن وصفها ولستد ، وقد تجول هاريسون وهو مطمئن إلى الطريق الذي يتسلقه حماره مثل المهر فقد كان الحمار يتوقف بين آونة وأخرى ليشم طريقه مثل الكلب .

لقد تجاوزنا حتى الآن المنطقة الجنوبية لعمان مع أنها من الناحية الآثرية تعتبر أهم بكثير من بقية المناطق ، ويعتقد الباحثون أن ظفار هي «غير Ophir» التي ذكرت في

(٩٠) الواقع أن هذه الكلمة "Ophir" بعيدة في لفظها عن ظفار وقد تكون كلمة «سفار» التي وردت في الفقرة (٣٠) من الاصحاح العاشر في التكون ، أقرب إلى لفظ ظفار (أنظر ، على ، ج ١ ص ٤٢٣) - المترجم .

(٩١) لازالت هذه القبيلة معروفة بنفس الاسم في منطقة ظفار ومن الأفخاذ المترغعة منها : المشنى ، جمبو ، العمري ، كشوب ، تبوك ، باق ، ييت سعيد ، حربان (المترجم) .



صورة فوتوغرافية لبرترام توماس
لتقطها بنفسه وهو يستعد للقيام بأول
عبور للربع الخالي.

يتم إما بإبتلاع قيء القرة الذي يتم الحصول عليه بإدخال عصا في حلقتها ، أو باسترضاء الجنين الذي سكن في المكان الذي أصيب فيه المريض وذلك بارسال فتاة عذراء مع قربان من بيضه .

وذكر لنا أيضاً ، كيف أن رجلاً صمم على أن يكفر عن خطيئة قتله لعمه [أو خاله] بالرغم من تنازل عائلة القتيل وأخيراً حكم أحد الشيوخ ، أن يسر هذا الرجل إلى الخلف بإتجاه بئر وضفت فيه نتوءات جارحة ولم يبال الرجل بذلك فأخذ يسر نحو البشر ، وفي اللحظة الأخيرة سارع أقاربه فأمسكوا به .

لقد كان هدف توماس الرئيسي ، هو عبور الربع الخالي وتحسين الحظ أن لديه متسعاً من الوقت ليعد نفسه ، وفي الفترة ما بين ١٩٢٧ - ١٩٢٨ قام برحلة في ظفار على ظهر جمل أحدهذه لمسافة ٦٠٠ ميل ، وفي فصل الشتاء التالي ركب بإتجاه الشمال حتى وصل إلى حافة رمال الربع الخالي ، وفي أثناء هذه الرحلات ، استطاع توماس أن يحصل على ثقة رجال القبائل وذلك لأنه تصرف تماماً مثل تصرفاتهم : فأطلق لحيته ، وليس ما يلمسون وأكل ما يأكلون ، وأقلع عن التدخين وشرب الخمر وقد تعرض معهم عدة مرات لإطلاق النار ، وفي رحلته الثانية ، اتفق توماس مع بعض الرجال من قبيلة

رميت على مسافة مائة قدم فإنها قد تقتل ، كما وصف لهم أنهم كرماء جداً ، ويدرك أنه في إحدى الولائم التي أقيمت له على بعد أميال قليلة في الداخل ، قدمت له زوجة وبعض رعوس من الغنم . لقد كان الترحيب به كبيراً جداً لدرجة أنهم منعوه من الشرب من العيون الجارية وكلما حاول ذلك قدموا له غوراً طاسة من الحليب ، ووصف ضابط آخر ، غلايينهم [جمع غلينون] بأنها مصنوعة من الكلس Lime ويحملون سيفهم مائة على الكتف الأيمن وهي غيردة من أخنادها .

أما أول الأوربيين الذين توغلوا في المناطق الداخلية لأكثر من أميال قليلة ، فهو بنت وزوجته وذلك في عام ١٨٩٤ ، وقد بقيا فترة في الحافة^(٩٢) مع حاكمة الشديد ، ولاحظوا عدداً من السجناء مكبلين بالحديد وأخرين مشدودين بالسلسل إلى كتل خشبية ، ينحوه ويصرخون طوال الليل . وقد جهزها الحاكم بقاقة مع سبعة عشر شيخاً ، أجرا كل واحد منهم نصف دولار في اليوم ، ويقول بنت : «إننا لم نتعامل مع رجال قساه طوال حياتنا مثل هؤلاء الذين رافقونا في رحلتنا هذه» وقد لاحظت السيدة بنت ، أن الإبل الضفارية مولعة جداً بالعظام البالية وقد تنقض عليها من الطريق لتلتقطها ثم تمضغها كلما ساحت لها الفرصة ، وقد أعجب بنت وزوجته كثيراً بمناظر الطبيعة الخلابة ، ولم يتوفعاً أن في الجزيرة العربية القاحلة بقعة بهذا الجمال المدهش ، الذي يعتبر واحداً من أعظم المفاجئات التي مرت عليهما في حياتهما .

بعد مغادرة هذين الزوجين غير المحترفين لفن الرحلات ، يبدو أنه لا توجد رحلات ذات شأن في ظفار حتى أواخر العقد الثالث من هذا القرن عندما جاء رحالة محترف جداً في هذا المضمار وهو بيرترام توماس Bertram Thomas الذي شغل وظيفة ضابط سيعني في العراق ، قبل أن يصبح في عام ١٩٢٤ م وزيراً لسلطان مسقط الذي اصطحبه في عدة زيارات إلى المناطق الشرقية لساحل عُمان ، وقد دون توماس ما شاهده من عادات الناس وتقاليدهم ، ومن الأشياء التي لاحظها ، أن علاج المرضى

(٩٢) الحافة : أحد أحياي مدينة صلالة وكان يسكنها الصيادون (المترجم) .

الراشد^(١) على ملاقاته في السنة القادمة ليأخذوه إلى مكان يستطيع أن يلتقي فيه مع بلو
دقيقين وشيه بصفارة المرفأ التي تندر السفن بوجود ضباب ، وما زاد في قيمة كتابه ؛
الصور الفوتوغرافية الرائعة التي التقطها .

إن مساهمة توomas في التعريف بهذا الجزء من الجزيرة العربية ، لا يضاهيه أحد ،
فقد كانت اهتماماته واسعة ، وقد اهتم بالقصص الشعبية المتداولة بين البدو ، فيخبرنا أن
الضبعة تُعتبر ناقة الساحرة ، وأن القردة من سلالة شخص سرق نعال الرسول عليه السلام ،
 وأن العلامة السوداء في ذيل الأرنب البري ، ظهرت بعد أن ضرب الرسول عليه السلام أرنباً
بعصا محروقة لأنها سلمت رسالة لغير صاحبها ، وكان توomas اهتمام كبير في علم
الحيوان ، وخبرة في النبه إلى أحطوارها ، فمثلاً ، أحضر له بدوي مرة أفعى كوبرا يبلغ
طولها خمسة أقدام ، كانت ما تزال على قيد الحياة ، وكان توomas مهتماً أكثر بدراسة
الناس القاطنين على حواف الرمال والذين يعتبرهم من بقايا سكان الجزيرة العربية
الأصليين ، قبل أن ينزع الساميون إليها ، فدرس لغاتهم الغربية وقاده هذا البحث إلى
زيارة منطقة مستند وهي شبه جزيرة تبرز من عمان باتجاه إيران ، وقابل رجال
الشیخو^(٢) الذين يعيشون في الكهوف ، وقد وجدهم يعيشون في حفر يتراوح عمقها
بين ١٢ - ١٤ قدماً ويصل طولها إلى ١٥ قدماً وعرضها ١٢ قدماً ، جدرانها مبنية من
الحجارة وسقوفها من الخشب المغطى بالرمل ، حتى إنه يصعب رؤيتها أو تمييزها ،
ووصف لها رقصاتهم الشعبية حيث يقفاثا عشر رجلاً في حلقة ، ويبداً فائدتهم يولول
منغيناً ، فيرون عليهم بصوت شبيه بنباح الكلب ، وفي كل مرة يرمون سيفهم في الهواء
ثم يلتقطونها بأيديهم العارية ، ثم ترك توomas مسقط في عام ١٩٣١ ، وقدم فيما بعد
خدمة جليلة ، حيث أصبح أول مدير لمدرسة الدراسات العربية الموجودة حالياً في
شلان بلبنان .

وبعد الحرب [العالمية الثانية] بدأ ولفرد ثسجر Welfred Thesiger سلسلة من
العبور للربع الخالي التي أخذته إلى عدة أماكن مثل ليوه Lewa التي لم يصلها أي أوربي

(١) تعرف هذه القبيلة بالشحوج ومتازها في مستند في شمال عمان (المترجم) .

الراشد^(٢) على ملاقاته في السنة القادمة ليأخذوه إلى مكان يستطيع أن يلتقي فيه مع بلو
من قبيلة مره عند قدمهم من الشمال .

وقد بدا في أول الأمر كما لو أنه سيساب بخيبة أمل ، حيث كانت هناك شائعات
عن حروب وغزوات ، فقد كان يعتقد أن [قبيلة] صعر Saar ، ذات الربع الخالي ،
 كانوا في طريقهم للحرب ، وعلى أي حال ، فقد بدأت البعثة رحلتها من ظفار في العاشر
من ديسمبر ١٩٣٠ م ، وألقت أول نظرة على الخليج في الثاني من فبراير ، وكتب توomas
عن الرمال فقال : «كم هي مدهشة منطقة التلال الرملية العظمى عندما شاهدتها للوهلة
الأولى ، حيث نجد محيطاً شاسعاً من الرمال المتسمجة ، فهي مرتفعات مفاجئة هنا
ووديان متدرجة هناك ... دون أن تشاهد أي بقعة خضراء ، والتلال من مختلف
الأحجام ولكنها غير متناسقة مع بعضها ، غير أنها باستدارتها الجميلة تشبه نهدي فتاة ،
وترتفع تلك التلال طبقة فوق طبقة كمنظومة جبلية ولا وجود للظلال هناك ، فأشعة
الشمس تكاد تكون عمودية» ، وكتب يقول أيضاً : «وهناك لحظات فوجئنا فيها
بمشاهدة منظر خلاب ، في منتهى الأبهة والجمال لتصميم معماري بديع بلون أحمر -
وردي ، تحت سماء صافية وضوء ساطع ... إنها طبيعة جميلة ، لا يضاهيها إلا جمال يوم
شتائي في سويسرا ، لقد كان جواً مفعماً بشيء من العظمة والابهاج .

وقد أبان الرحالة الذين جاءوا بعد توomas ، أنه قد عبر الربع الخالي من أسهل
الطرق ، التي يسلكها البدو عادة ، غير أن ذلك لا يقلل من أهمية الانجاز الذي حققه ،
وقد مرت عليه لحظات خطيرة ، تمثلت في احتفال وقوع هجوم ، ولكن الرمال دفتر عام
لكل الناس ، لتدوين يومياتهم ، فعند رفاقه قدرة على معرفة من يكون هناك وحتى معرفة
هوية الإبل بواسطة أثر الأقدام على الطريق ، وقد وجد شسجر فيما بعد ، أن البلوي
يستطيع أن يخبره ، من بعر الجمل ، عن المراعي الذي رعي به الجمل أخيراً ، وعن الوقت
الذي مر به في ذلك الطريق ، وقد سمع توomas أزيز الرمال أثناء الرياح الذي دام مدة

(٢) تتفق هذه القبيلة إلى فرعين رئيسين : بيت يماني والراشد وتقع متازها ما بين ظفار والربع الخالي (المترجم) .

الوحدة يقدر ما كان يتوق للانفراد بنفسه .

جمع ثسجر كثيراً من المعلومات عن البداية وأعطى صورة واقعية عن كيفية حياة الرجال في الصحراء ، أما بعض وصفه الجغرافي فهو على نمط سابقه : «رملي الغفي Al-Ghafa ، جميلة جداً ويتراوح ارتفاع أكبر كثباتها ما بين ٤٠٠ - ٥٠٠ قدم وهو رمل أحمر موشح بألوان الذهب والفضة ومنقط بنباتات ذات أزهار صفراء ، تخللها شجيرات صغيرة بلونها الأخضر البراق» ، ومع هذا فإن ثسجر قال : «ليس لرحلتي عند الآخرين ، سوى أهمية بسيطة وكل ما نتج عنها هو خارطة حالية من الدقة ، قد لا يستفيد أحد منها مطلقاً ... فرحلتي هذه لا تعلو عن تجربة شخصية ، وكل ما كروفت به هو جرعة من ماء صاف لا طعم له تقريباً ، وقد قنعت بذلك» .

كما أشرنا في الفصل الأول ؛ إن كثيراً من الناس قد ذهبوا إلى الجزيرة العربية ليكتشفوا أنفسهم ، أكثر من ذهابهم لاكتشاف شبه الجزيرة ، ولا يمكن لأي إنسان أن يظهر تحت أشعة الشمس المحرقة أو وسط الصحراء العربية القاسية على غير حقيقته ولكنه ، بالإضافة إلى سيره لأغوار نفسه ، فإنه قد يلتقي بجنس من أكثر الأجناس التي خلق الله فيها فتنة وسحراً ، إن مثل تلك التجربة لن تعود مرة أخرى ، فكما يقول ثسجر بأنه سيأتي للجزيرة العربية كثيرون للدراسة ، ولكنهم سينتقلون هنا وهناك بوساطة السيارات وبواسطة الراديو ، سيفرون على اتصال مع العالم الخارجي وسيعودون بتتابع ذات أهمية أكثر بكثير من النتائج التي حققتها ولكنهم لن يتعرفوا مطلقاً على روح تلك الأرض ولا على عظمة العرب .

[تم بعون الله]

قبله ، وقد بدأ ثسجر اكتشافاته منذ أن كان طالباً في المرحلة الدنيا في الجامعة ، ثم بعد أن أصبح مسؤولاً إدارياً في أحد المقاطعات في السودان ، قام بعدد من السفرات التي قطع فيها مسافات طويلة على ظهر الجمل ، وبعد مغامرة الحرب ، عمل في منظمة مكافحة الجراد الصحراوي ، التي ساهمت كثيراً في جمع المعلومات عن الجزيرة العربية .

وفي رحلته التي قام بها في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٤٦ ومايو ١٩٤٧ م ، استطاع ثسجر أن يعبر الربع الخالي مبتدئاً من صلاله إلى ليوه ثم سافر في طريق شبه دائري إلى المكلا ، وقد جهز نفسه في رحلته بالآلة تصوير ، و«بارومتر» معدني ، و«مكبس للنباتات Press for Plants» ، وصندوق صغير للأدوية ، وجزء من كتاب جيبون Gibbon ، ونسخة من قصة الحرب والسلام [لولستوي] كما أخذ معه ألفي رطل من الطحين ، و٣٠٠ رطل من الأرز ، وبعضاً من السمن ، وكعكات من القهوة والشاي ، أما بالنسبة للحم فقد اعتمدوا على ما استطاعوا صيده خلال الرحلة ، وقال ثسجر إنهم اصطادوا أرنبًا وحشياً وقد قبلوا على مضمض أن يشاركون فيه جماعة من البدو الذين مرروا بهم ، طبقاً للأصول وعادات البداية في الكرم والضيافة ، وذات مرة سرق ثعلب منهم لحم غزال ودفنه في مكان ولكنهم عثروا عليه وما كان منهم إلا أن نفضاً التراب عنه ، وأكلوه في لذة متناهية .

وقد تألفت قافلة ثسجر في بداية الأمر من ٢٤ رجلاً ولكنه استغنى عن أكثرهم لتوفير الطعام والشراب ، حتى وصل تعدادها أخيراً إلى أربعة رجال وخامسهم ثسجر ، وكان قد سبق لأحد هؤلاء الأربعه أن عبر الرمال كلها لوحده ، وقد كانت رفقة هؤلاء الرجال ومحاولة فهمهم ، تعني الشيء الكثير بالنسبة لثسجر الذي يقول : «لقد شعرت بعاطفة شخصية نحوهم وتعاطفت معهم بسبب صعوبة حياتهم» وقال أيضاً : «... لقد نظرت إلى الماضي بشوق شديد . وإلى الحاضر بامتعاض ، وإلى المستقبل بخوف ورعب ... ، الساعة تلو الساعة ، سار جميـلـيـ وـكـأنـهـ يـرنـوـ بـاتـجـاهـ أـفـقـ لاـ يـكـنـ تحـديـهـ ...» ، ولا ريب في أن ثسجر شعر بالطمأنينة في الصحراء ، ولم يكن يعياني من

الادارة العثمانية في ولاية سوريا : ١٨٦٤ - ١٩١٤
م (القاهرة ١٩٦٩ م).

«بلاد العرب : من تاريخ بلينوس» مجلة المجمع
العربي، ج ١ المجلد ٣ (١٩٥٤ م) ص ١٣٠ - ١٤٢ .

كتاب الجغرافيا ، حفظه اسماعيل العربي (بيروت ،
١٩٧٠ م). المورد ، ط ١٦ (١٩٨٣ م) .

«القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنورة»
العصور م ١ ج ٢ (شوال ١٤٠٦ هـ).
التاريخ العربي القديم ، ترجمة : فؤاد حسنين على
(القاهرة ١٩٥٨) .

هذه بلادنا : بريده (الرياض ، ١٤٠٢ هـ).
فرحة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ ابن ،
ط ٢ (القاهرة ، ١٩٤٧ م) .
بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية
الدولة الأيوبية ، ط ١ (القدس ،
١٤٠٢/٥١٩٨٢ م) .

١٣ - عوض ، عبدالعزيز محمد

١٤ - محمد ، محمود شكري

١٥ - المغربي ، أبو الحسن علي بن موسى

ابن سعيد

١٦ -

١٧ - نصيف ، عبدالله آدم

١٨ - نلسون ، وآخرون

١٩ - الهويبل ، حسن فهد

٢٠ - الواسعي ، عبدالواسع بن يحيى

٢١ - يوسف ، حمد أحمد عبدالله

ثانياً - المراجع الأجنبية :

- 1- The Bible.
- 2- Doughty, C. *Arabia Deserta* (London, 1926).
- 3- Freeth, Zahra and Winstone, V. *Explorers of Arabia* (London, 1978).
- 4- Ghabban, Ali Hamed, *Introduction à L'étude archéologique des deux Routes Syrienne et égyptienne de pèlerinage*.

رسالة دكتوراة دولة غير منشورة ، جامعة بروفانس ، فرنسا (أبريل ١٩٨٨ م)

- 5- Lawrence, T.E. *Seven Pillars of Wisdom* (London, 1941).
- 6- Meulen, D. Van Der and Wissmann, H. Von hadramaut, *Some of its Mysteries Unveiled* (leyden, 1964).
- 7- Philby, H. St. T. *The Land of Midian* (London, 1957).
- 8- Al-Qasmi, S. M. *The Myth of Arab Piracy in the Gulf* (London, 1986).
- 9- Western Arabia and the Red Sea (Oxford, 1946).
- 10- Who'd did What (Mitchell Beazley Publishers Ltd., U.K., 1974).

المراجع التي استخدمها المترجم في الشروحات

أولاً - المراجع العربية :

- ١ - القرآن الكريم
 - ٢ - ابن تيمية ، أحمد
 - ٣ - ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح
 - ٤ - البركاني ، ناصر عبدالله سلطان
 - ٥ - جبرا ، جبرا إبراهيم
 - ٦ - حافظ ، اسماعيل أحد
 - ٧ - رافق ، عبدال الكريم
 - ٨ - الصباغ ، محمد بن لطفي
 - ٩ - عبدال الكريم ، أحمد عزت
 - ١٠ - عبدالله ، عبد القادر محمود
 - ١١ - علي ، جساد
 - ١٢ - عمر ، عمر عبدالعزيز
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
جع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ،
المجلد ٢٧ (الرباط بدون تاريخ) .
تاريخ بعض الحوادث الواقعه في نجد
(الرياض ١٩٨٦ م) .
- «التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي الشريف»
العصور ، المجلد ٢ ج ٢ (ذو القعدة ١٤٠٧ هـ).
«بلاد العرب من جغرافية استرايون»
مجلة الجمع العلمي العراقي ، ج ٢ (١٩٥١ م) .
«باب الكعبة المعظمة على مر العصور»
الناره ، العدد ٣ السنة السابعة (١٤٠٢ هـ).
العرب والعثمانيون (دمشق ، ١٩٧٤ م) .
محات في علوم القرآن ، ط ٢ (بيروت ،
١٩٨٦ م) .
- دراسات في تاريخ العرب الحديث ، (بيروت ،
١٩٧٠ م) .
- اللغة المروية ، ج ١ (الرياض ،
١٤٠٧/١٩٨٦ م) .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت ،
١٩٧٦ م) .
- دراسات في تاريخ العرب الحديث : الشرق
العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن
عشر (بيروت ، ١٩٨٠ م) .